مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور منصور فهمي باشا رئيس الجمعية، والدكتور علي عبد الواحد وافي وكيلها



# إخوان الصفاء

تأليف

عمر الدسوقي

B. A. hons. London

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

والسكرتير العام للجمعية الفلسفية المصرية

ملتزم الطبع والنشر أصحاب

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه



# مقدمة

## بسم الله الرحمن الرحيم

### وبه نستعين

لا يزال تراثنا الإسلامى فى حاجة ماسة إلى أن يدرس درساً منظماً ، وتحقق موضوعاته بطرق البحث الحديثة ، وتعقد بينه وبين الفكر الأوربى ، موازنات تكشف عما فيه من ثروة علمية وتبين مبلغ تأثر الغرب به وسيره على مناهجه.

وبعض ما درس يحتاج إلى عرض جديد فى ثوب جذاب ، يشجع جمهرة القراء من أبناء الأمة العربية على تعرف ماضيهم ، وما خلفه آباؤهم من كنوز ثمينة ، وكيف عانوا وجدوا فى أن يتركوا للإنسانية ذخيرة دسمة من المعارف والعلوم هدتها ردحا طويلاً من الزمن ، حتى بنى عليها من جاء بعدهم ما بناه، فكانوا بعملهم هذا خير مشجع لركب الإنسانية على المضى فى سبيل التقدم والرقى .

فبهذا النوع من الدراسات نؤدى أجل خدمة فى إحياء تراثنا العربى ونشره . فمما يحز فى النفس أن نظل عالة على غيرنا من الأمم حتى فى مسائلنا الخاصة وتحقيقها ؛ فقدسبقنا المستشرقون إلى الكشف عن نفائس ما تركه العلماء المسلمون ، وتناولوه بالبحث الدقيق .

و « إخوان الصفا » من هؤلاء المفكرين المسلمين الذين لم يكد يعنى بهم أحد من المحدثين من علماء الشرق العناية التى يستأهلونها ، مع أنهم فى الطليعة من حيث ثقافتهم الواسعة ، وتبسيطهم لمعضلات الفلسفة ، وتناول المسائل الفلسفية بفكر إسلامى يحاول المزج بين العقيدة والفلسفة ، والتوفيق بينهما ، حتى لا يتعارض الدين الذى آمنوا به وأحبوه بالفلسفة التى أغرموا بها ووجدوا فيها غذاء لعقولهم . وقد تبعهم فى هذا معظم من جاء بعدهم من فلاسفة المسلمين.

وإليك مثلا المقدمة التى كتبها لرسائلهم المرحوم زكى باشا . فقد جانب فى كثير من مواطنها المنهج العلمى السليم ، ومعظم ما وصل إليه من نتائج لا يطمئن إليه التحقيق الصحيح كما سنبين ذلك فى موضعه .

أما المستشرقون فقد أكثروا من الكلام عنهم ، فى مقالات قصيرة ، ولكن كان لهم فى كثير من المسائل آراء خاصة تشبعوا بها ، وأخذوا يبحثون على ضوئها ، فأفسدت عليهم أحكامهم ، ومن هؤلاء الذين أغرموا بإخوان الصفا والبحث عنهم ، والكشف عن غاياتهم ومذهبهم كازانوفا المستشرق الفرنسى. وله فى المجلة الأسيوية أبحاث عديدة فى هذا الموضوع تناولتها جميعاً بالتمحيص والتحقيق ، وقد تبين أن كثيراً منها يحتاج إلى المراجعة ، وإعادة النظر وتعديل الحكم . ومنهم ديبور فى دائرة المعارف الإسلامية ، وفى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » ، وكارادى ڤوفى كتابه « مفكرو الإسلام » ومكدونالد « فى العقائد الإسلامية » .

ولإخوان الصفا آراء فى التربية لم يعرض لها أحد من مؤرخى التربية عند

العرب ، وإنما أشاروا إليها إشارات عابرة دون أن يقفوا ، ويوضحوا هذه الآراء ، ويوازنوا بينها وبين الآراء الحديثة فى التربية .

لهذا كله كان البحث فى ( إخوان الصفا ) ، وتحقيق أسمائهم ، وزمانهم ، ومكانهم ، ونظام جماعتهم ، وغايتهم ، وانتسابهم إلى الشيعة الباطنية ، أو عدم انتسابهم إليها، ورسائلهم ، وفلسفتهم ، وآرائهم فى التربية ، بحثاً شاقاً لم يمهد له إلا بهذه المقالات المبتورة التى سبقت الأشارة إليها لذلك وجدتنى أمام معضلة عويصة ، وخاصة أن إخوان الصفا قد ألقوا ظلاً ثقيلاً وأشاعوا الغموض والإبهام على شخصياتهم وأغراضهم ، وأكثروا من الرموز والكنايات فى رسائلهم ، وأن رسائلهم ضخمة تجمع أشتاتاً من العلوم فى غير اتساق ، وهم كثيرو الاستطراد يتعبون من يجاريهم فى أفكارهم .

ولم أجد بداً من قراءة الرسائل أكثر من مرة ، استشف ما بين سطورها وأنقب فيها عما أخفوه من آراء ، وما رمزوا إليه من أمور هامة تبين مقصدهم وهدفهم من تأسيس جماعتهم . فالرسائل كانت أعظم مرجع لجأت إليه فى هذا البحث الذى أقدمه بين يدى قراء العربية ، وقد أيدت الأحكام التى وصلت إليها بالنصوص وحاولت جهدى أن أثبت النصوص بدون تغيير فيها ، لعل القارئ يستعين بها على فهم مالم أستطع إدراكه منها .

ولقد عانيت كثيراً فى تحقيق مذهب إخوان الصفاء ، ولم أستطع آخر الأمر إلا أن أصدر حكما أدنى إلى اليقين على أنهم ينتمون إلى طائفة الأسماعيلية من الشيعة الباطنية .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى إعطاء صورة واضحة عن جماعة مشهورة من مفكرى الإسلام ، لايزال فى زماننا من يعتز بآرائهم ورسائلهم ، ويعتقد أنها من تأليف أحد الأعلام من آل البيت ؛ عن جماعة حاولوا من طريق الفكر أن يقوضوا عرش العباسيين متخذين الفلسفة مطية لهم ولآرائهم السياسية والدينية؛ عن جماعة حاولت أن تخلط الدين بالفلسفة فما استقام لها الدين ، ولا استقامت لها الفلسفة .

هذا ولا أعتقد أن البحث فى (إخوان الصفا) قد تم ، وما كتابى هذا إلا مفتاح لمن يريد أن يوفى الموضوع حقه ، ويستقصى رسائلهم بحثاً ودرساً ، ولعل الأيام تهيئ لنا من يقوم بهذا والله الموفق إلى الصواب .

عمر الدسوقى

جمادي الآخرة سنة ١٣٦٦
إبريل سنة ١٩٤٧

# الفَصْلُ الأوّل

## الحالة السياسية فى القرن الرابع

— ١ —

### تمهيد تاريخى :

تاريخ أية شخصية مهما عظم نفوذها ، وقوى تأثيرها فيمن حولها ،وأثرها فى زمانها ، متأثر بالعصر الذى عاشت فيه ، وبالبيئة التى أحاطت بها،وبالأحداث التى ساعدت على ظهورها . وكذلك تاريخ أية جماعة بالغة ما بلغت من السيطرة المادية والمعنوية على جيلها ، فإنه وليد سلسلة متصلة من الحوادث والأسباب التى تؤدى إلى نتائج معينة ؛ ولا يجوز بحال أن ندرس شخصاً تاريخياً ، أو جماعة لها أثرها ونتائجها ، دون أن نلقى نظرة ـ ولو عابرة ـ على البيئة التى نشأ فيها هذا الشخص أو هذه الجماعة .

فالكائن المستقل عما قبله وما بعده ، والذى لايتأثر بشىء مما حوله ولايتأثر بشىء مما سبقه أو أحاط به ، لا عهد للعالم به حتى اليوم ؛ فالمصادفة محال ، ولا يوجد فى هذا العالم شىء إلا وهو نتيجة من جهة وعلة من جهة أخرى ، نتيجة لعلة سابقة ، وعلة لأثر يتلوه . ومهمة المؤرخ الكشف عن هذه العلل ، وما بينها من صلات ، وما ترتب عليها من آثار ، وبذلك يوضح من التاريخ صوره

الغامضة ، ويلقى ضوءاً نفاذاً على الأحداث المهمة التى دقت أسبابها وخفيت العوامل التى أنتجتها .

وظهور « إخوان الصفاء » ليس بدعاً فى التاريخ ، فهم نتيجة لازمة ، أو ثمرة ناضجة لطائفة من العلل والأسباب اشتركت وتضافرت على ظهورهم ، وتكوين عقليتهم وتحديد أهدافهم .

كانت الدولة الأموية عربية النزعة والطابع ، وعلى الرغم من خضوع كثير من الشعوب الإسلامية غير العربيــة ، ذات التاريخ الحافل ، والحضارة القديمة لها ، فلم يُعن بنو أميــة بغير العرب ، فمنهم كان الولاة والقواد ورؤساء الدولة ، ولهذا كره الموالى حكمهم وعملوا على إسقاطهم ، وكانوا معاول هدم فى أيدى أعداء بنى أمية .

وكان العلويون وشيعتهم أعظم أعداء الأمويين خطراً وقوة ، فالخلاف بينهم قديم منذ علىّ ومعاوية ، وقد اضطهد الأمويون بنى هاشم جميعاً ، وعمل هؤلاء على تقويض دولة بنى أمية ، وكانت الدعوة أول الأمر لآل البيت دون تخصيص بعلويين أو عباسيين ، ثم لمـا تنازل أبو هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الحزب الكيسانى[1] إلى محمد بن عبد الله بن عباس قوى الحزب العباسى واشتد ساعده بهذا التنازل ؛ ولكن أبا مسلم فى خراسان ــ وهو من المتعصبين للعباسيين ــ كان يدعو إلى آل البيت من غير تعيين ، وانتهى الأمر بتغلب العباسيين وتولية

---

(١) الشيعة الكيسانية . نسبة إلى المختار بن أبى عبيد ، وكيسان لقبه ، وكان قد خرج يدعو إلى محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب .

أبى العباس السفاح الخلافة بمؤازرة الفرس بخاصة والموالى بعامة. وكان أبو العباس براً بآل علىّ ، قربهم وأغدق عليهم الأموال ، ولكنه كان يخشاهم ويرقبهم عن كثب ، ويغرى بهم من يحصى عليهم أخطاءهم ، ويتعرف خبيئة نفوسهم ، فلما مات وتولى الخلافة أبو جعفر المنصور أيقن العلويون أن لا أمل لهم فى الخلافة ، وأن العباسيين قد استأثروا بالملك ؛ فخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية على أبى جعفر المنصور بالمدينة وغلب عليها ، فحبس المنصور أباه عبد الله ، وأهله من بنى الحسن فى سجن الكوفة — وقد ماتوا فيه — ووجه إليه جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، ولما أراد إنفاذه بجيشه ، قال له عيسى : شاور عمومتك ياأمير المؤمنين ، فقال المنصور : امض أيها الرجل ! فوالله مايراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا ، فسار وسيّر معه الجند ، وقال المنصور حينئذ : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » ؛ لأن عيسى كان ولى عهده ، وكان المنصور يريد تنحيته وتولية ابنه المهدى .

وكانت الغلبة لجيش المنصور ، فقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ فكانت هذه الحادثة إنذاراً بالغاً للعلويين وشيعتهم بعهد طويل من الاضطهاد الشنيع دونه ما لاقوه فى عصر بنى أمية .

استعان العباسيون فى تقويضهم الدولة الأموية ، وتشييد ملكهم بالفرس ، وخدعوا العامة منهم بدعوتهم لآل البيت بدون تخصيص ، وانفرادهم بالملك دون

آل على ، ثم أخذوا فى اضطهادهم . كان لهذين الأمرين : الاستعانة بالفرس ، واضطهاد العلويين ، أثر عظيم فى تاريخ الدولة العباسية ، لم تظهر نتائجه وتنضج ثماره إلا فى القرن الرابع الهجرى .

أقام العباسيون دولتهم على غير أساس ثابت ؛ لأنهم تنكروا للعرب ، ولم يعتمدوا عليهم مع أنهم ركنهم الذى إليه يأوون ، وشجرتهم التى بها يستظلون؛ واصطنعوا الفرس ، وركنوا إليهم ، والفرس أمة موتورة غلبت على أمرها منذ الفتح الإسلامى ، وفنيت شخصيتها فى الدولة العربيـة ، وذهبت حضارتها وامتزجت بالحضارة الجديدة ، وكلما تذكرت ماضيها عصر الحقد والضغن قلبها ، فكان خطأ بالغاً من العباسيين أن يركنوا إليهم ويملكوهم أمور الدولة ، ويظهروا الجفوة والقلى للعرب .

فإن العرب لما لم يعد لهم من الأمر شىء ، ولم يعد منهم ولاة الأمصار وقواد الجيوش ، وعمال الخراج ، ورؤساء الدولة ، انصرفوا إلى طلب العيش ، ولا سيما هؤلاء الذين يعيشون فى الحواضر الكبرى ؛ ثم فنيت شخصيتهم فى سواهم ، وتقلص نفوذهم على مر الأيام ، بينما استبد الفرس بشئون هـذه الدولة الفسيحة الأرجاء ، وصبغوا الحضارة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية بصبغتهم وأظهروا كامن حقدهم وكيدهم للدولة الجديدة والدين الجديد ؛ تمثل هـذا فى أشعار الموالى ، وفى فرق الزنادقة ، وفى الثورات المختلفة بأطراف الدولة ، وباستئثار الوزراء من الفرس بشئون الملك ، حتى أصبح الخليفة لا يركن إلى أحد من جنده ، ولا يثق بأحد من أعوانه ؛ لا يثق بالعرب لأنهم متهمون بحب

بنى أمية ، ولا يثق بالفرس لأن ميلهم إلى الاستئثار بالملك قد ظهر .

فداوى المعتصم بن الرشيد هذه الغلطة الشنيعة بغلطة أخرى أشنع منها وأقسى فى نكاتها ؛ إذ اصطنع جنداً من الترك يعتمد عليهم ويعتز بهم ، فطعن بذلك الخلافة العباسية طعنة نجلاء عجلت بضعفها ثم بزوالها ، وكان أول مظهر لهذا الضعف قتل المتوكل .

استبد هؤلاء الأتراك بالخلفاء ، يولون الأحداث منهم ، ويصرفون شئون الدولة كما يشاءون ، ثم يعزلونهم ، ويقتلونهم ويمثلون بهم ، ويولون غيرهم ؛ حتى ذهبت هيبة الخلافة من النفوس ، وأحس ولاة الأمصار ضعف الخلفاء الشديد ، وعجزهم عن السيطرة على أطراف الدولة المترامية فطمع كل منهم فيما تحت يده .

فاستقلت عدة ولايات ، بيد أن كل أمير طمع فى أن يقره الخليفة على ولايته حتى يكون سلطانه على الناس مشروعاً ، وكان الخلفاء لايجدون مندوحة أمام الأمر الواقع إلا الموافقة والرضى ، حرصاً على أن تبقى أسماؤهم على ألسنة الخطباء فى الجمع والأعياد .

وما أن أتى القرن الرابع الهجرى إلا وقد بلغت الخلافة من التهالك والضعف ، وأمور الناس فى بغداد وما حولها من الفساد والانحلال مالا مزيد عليه .

جاء القرن الرابع والمقتدر خليفة على المسلمين ، وكانت أيامه شر أيام على

الدولة العباسية ؛ لأنه حكّم فيها النساء والخدم ، وبذّر فى الأموال تبذيراً فظيعاً وكان الوزراء يولَّوْن ويعزلون بمقدار ما يقدمون من الرشوة للخليفة ولأمه ولقهرمانته ولخدمه ؛ ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على مادفعه ، فكان جل هم الكثيرين منهم أن يسدوا حاجتهم أولا ثم حاجة من ولاهم ، ولا يسألون بعد هذا أجاءت الأموال من ظلم أو عدل ، وهذا لعمرى نهاية الفساد ، وإشارة مؤذنة بخراب الدولة .

وأخيراً جاءت الضربة القاضية فى سنة ٣٣٤هـ حين دخل أحمد بن بويه بغداد غازياً فاتحاً ، والخليفة المستكفى بالله بها ، فقابله الخليفة واحتفى به ، وبايعه أحمد ، وحلف كل منهما لصاحبه ، هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة ، وفى هذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب ، فلقب علياً « وهو أكبرهم وصاحب بلاد فارس » عماد الدولة ، ولقب الحسن « وهو الثانى فيهم وصاحب الرى والجبل » ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العمران معز الدولة(١) .

---

(١) فى سنة ٣٢٠ هـ استولى مرداويج الديلمى على خراسان وبلاد الديلم والرى والأهواز حتى حدود العراق ، فى عهد المقتدر بالله ، وأقبل عليه أعيان الديلم وذوو الخبرة منهم ؛ وممن جاءه ثلاثة إخوة : على ، والحسن ، وأحمد أولاد بويه ؛ فولى علياً بلاد الكرج فخرج إلى الرى وبها حينئذ الحسين بن العميد ، كاتب مرداويج ووالد أبى الفضل ابن العميد الكاتب المشهور ، فتصادقا . ثم ندم مرداويج على تسرعه فى تولية على بن بويه ، فأرسل إلى أخيه وشمكير ووزيره وكاتبه الحسين يطلب رده إليه ، ولكن الحسين أوحى إلى على بالأمر فمضى لطيته ، وحسنت سيرته فى ولايته ، وبسط سلطانه على ماجاوره من البلاد هازما كل من تصدى له حتى أتى شيراز عاصمة فارس ، وأرسل إلى الخليفة =

وبهذا تدخل الخلافة العباسية فى عصر حديد ، عصر زوال السلطان الحقيق من أيدى الخلفاء ، ولم يعد الخليفة سوى رئيس دينى لا أمر له ولا نهى ولا وزير وإنما له كاتب يدير أملاكه ويصرف أموره ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء .

ولقد هم معز الدولة بإزالة الخلافة العباسية ، وتولية علوى ؛ لأن بنى بويه كانوا شيعة زيدية ، تلقوا تعاليم الإسلام على يد الحسن بن زيد ثم على يد الحسن الأطروش ، وكلاهما زيدى ، فكانوا يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ؛ بيد أن بعض خواصه نصحه بألا يفعل ، وقال له : إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك بطلان خلافته ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، صرت تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، ولو أمرهم بقتلك لفعلوا ، فأعرض عما كان قد همّ به وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس وانفرد هو بالسلطان ، ولم يبق بيد الخلافة شىء ألبتة ، ويا ليته أبقى على الخليفة المستكفى بالله ، ولكنه قتله بعد أربعين يوماً من دخول بغداد ، وولى المطيع بن المقتدر مكانه .

وفى عهد معز الدولة هذا ساءت حال العراق جداً ؛ لأن جنده غالوا فى مطالبهم ، فجبى الأموال بالقهر ، وأقطع أصحابه الإقطاعات فانصرف الزراع عن

= الراضى بالله الهدايا والأموال مظهراً الطاعة ، ولما مات مرداويج أرسل أخاه الحسن إلى بلاد الجبل فاستولى على أصبهان ، وأرسل أحمد إلى الأهواز فملكها ثم دخل بغداد فى ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ .

الأرض ؛ ثم إن الخلاف اشتد بين جنده ، إذ كانوا من جيشين متنافسين : الأتراك والديلم ، وكان ميل معز الدولة مع الأتراك على الرغم من أنه ديلمى ، وقد جنت البلاد من جراء هـذا الخلاف شراً كثيراً . ثم إن الخلاف الدينى كان أعظم مصيبة نـكب بها العراق فى ذلك العهد ؛ لأن أكثريته كانت سنّيّة ولـكن بنى بويه حاولوا تشجيع المذهب الشيعى ، وغالوا فى ذلك جداً وعظمت الفتنة بين الناس ، وتبادلوا اللعنات والقتال .

وعلى العموم كان العراق فوضى ، واشتد بالناس الفقر والمرض ، وعظم الغلاء حتى أكل أهل بغداد الميتة والسنانير والـكلاب ، ومات عدد كبير منهم جوعاً ، ولم يستطيعوا دفن موتاهم فـكانت الـكلاب تأكل لحومهم ، ولم تـكن مدن العراق الأخرى كالبصرة والـكوفة بأحسن حظاً من بغداد .

هذا وقد صارت الدولة الإسلامية دويلات مختلفة كل منها تنافس الأخرى وتغير عليها ؛ فالأندلس بيد الأمويين ، وبلاد أفريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة ، والذين طمعوا فى ملك مصر ثم نالوه بعـد مدة وجيزة ، وحلب والثغور بيد سيف الدولة الحمدانى ، ومصر بيد الإخشيديين ، والجزيرة الفراتية بيد ناصر الدولة الحسن بن حمدان ، والعراق للديلم ، وعمان والبحرين واليمامة ، وبادية البصرة للقرامطة ، وفارس والأهواز لعلى بن بويه ، والجبل والرى لركن الدولة بن بويه ، وخراسان وما وراء النهر لآل سامان ، وآل سبكتكين فى الهند وأفغانستان ، ودولة العلويين بطبرستان

وهكذا تمزقت هذه الدولة العظيمة إلى دويلات صغيرة معظم أمرائها من الأعاجم الذين اضمحلت بهم الحضارة الإسلامية وذهب بهاء الدين ، وضاع شأن العرب ورحم الله أبا الطيب المتنبي حين وصف هذه الحال بقوله :

وإنما الناس بالملوك وما تصلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أُمَمٌ ترعى بعبد كأنها غنم

— ٢ —

**القرامطة:** عرفنا مما تقدم إلى أي مدى أثر في الدولة العباسية اعتمادها على الفرس دون العرب ، وكيف انتهى الحال بخلفائها ، بل كيف زال سلطانهم ، وتقوض ملكهم إلا مراسم اسمية لا قيمة لها . وقد كان من جراء اضطهاد العباسيين للعلويين — وهذه غلطتهم الثانية — أن عمل العلويون كل ما في وسعهم لهدم الدولة العباسية ، وانتقاص أطرافها ، وإشاعة الفساد والفوضى في أرجاء ملكها . أجل ! لم يكن كل خلفاء بني العباس من مضطهدي العلويين ، بل إن كثيراً منهم كالمأمون والمعتصم والواثق قد أظهروا تسامحاً ، بل محبة لعلي بن أبي طالب وآل بيته . وولى المأمون ولاية عهده علوياً هو «علي الرضا» بن موسى الكاظم ، وتزيى بشعارهم الأخضر ، لولا أن ثار عليه بنو العباس ، ومات علي الرضا ، فرجع عن قصده في تولية العلويين ولاية العهد ، إلا أنه أوصى أخاه المعتصم وهو يجود

بنفسه بإكرامهم حيث يقول : « وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها،فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى».
ولكن كان منهم من اشتدت قسوته ، وعظمت غلظته على العلويين كالمتوكل فإنه أمر فى سنة ٢٣٧هـ بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ، وتعسف فى معاملة الشيعة تعسفاً شديداً ، ولكن هؤلاء لم تخمد عزائمهم ، أو تلن قناتهم ، فكثرت ثوراتهم فى عهد خلفاء المتوكل ، وقد نجح منهم فى عهد المستعين الحسن بن زيد ، إذ أسس دولة فى طبرستان استمرت قرناً كاملا من ٣٥٠ — ٣٥٥هـ وفى أواخر دولة المعتمد على الله ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ . ظهر بسواد الكوفة رجل قدم إليها من خوزستان ، وأظهر الزهد والتقشف والعفة عما فى أيدى الناس ، وكان يدعو لإمام من أهل البيت ، وظل على ذلك زماناً ، ثم إنه مرض فتعهده رجل يقال له « كرمية »[١] لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية أحمر العين ، ولم يزل مقيما عنده حتى برىء ، فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه كثير من الأكرة ، وكان يأخذ من كل رجل دخل فى مذهبه ديناراً يزعم أنه للإمام ، واتخذ من أهل القرى المجاورة له نقباء اثنى عشر ، فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة ، وتسمى ذلك الزاهد العابد باسم من آواه فى

---

(١) كرمية أو قرمط على ماذكره ابن الأثير، جـ ٧ ص ١٤٨ اسمه حمدان بن الأشعث.

مرضه أى « كرمية » ثم خفف اسمه فقيل « قرمط »[١] ، وذكر فى سبب تسميتهم بالقرامطة غير ذلك .

فشا هذا المذهب فى سواد الكوفة ، والسلطان لاهٍ عنهم ، حتى اشتد أيدهم ، وعظم شرهم ؛ فى سنة ٣١١ هـ كان رئيس القرامطة بالبحرين أبا طاهر الجنابى ، فغزا البصرة غزوات متتابعة ، وفى تلك السنة دخلها وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها ، وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل مايقدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان ، ثم اعترض طريق الحجاج وقتلهم ونهب قوافلهم . وفى سنة ٣١٧ هـ فعل ماهو أشنع وأدهى ، وذلك أنه غزا مكة فوافاها إبان الحج ، فلم يرع حرمة البيت الحرام ، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام ذاته ، وقلع الحجر الأسود ، وأرسله إلى هجر ، فخرج إليه أمير مكة فى جماعة من الأشراف يتشفعون لديه فقتلهم أجمعين ، وطرح القتلى فى بئر زمزم ، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه . ولم يحدث فى التاريخ أن انتهكت حرمة البيت الحرام بهذا الشكل ، حتى إن المهدى عبيد الله العلوى — وسيأتى ذكره — لما علم بذلك كتب إلى أبى طاهر ينكر عليه ويلومه ويلعنه ويقول له : لقد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت . وأمره أن يرد الحجر الأسود فرده ، واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده إليهم .

---

(١) يقال إن اسم هذا الزاهد العلوى : الفرج بن عثمان القاشانى : راجع ابن الأثير جـ ٧ ص ١٤٨ .

وقد ظل القرامطة مصدر شر كثير للمسلمين ، يغيرون وينهبون وهم آمنون لايملك لهم الخليفة ولا وزراؤه رداً ولا زجراً ، وكلما أرسلوا من يقف فى طريقهم أو يؤدبهم هزموه وسخروا منه .

ولما تم للعبيديين فى أفريقية التغلب على مصر ، وأسسوا بها الدولة الفاطمية سنة ٣٥٩ هـ استظل القرامطة بلوائهم ، ودعوا لهم ، بل إن صلتهم بهم كانت قبل مجيئهم إلى مصر ، يلتمسون منهم التأييد والتعضيد فى ثوراتهم ضد الدولة العباسية ؛ ولكن لما خرجوا عن كل حد وزاد عبثهم ، وسفكهم ، وغزوا مكة ، ولما ذهبوا فى جرأتهم إلى مهاجمة الدولة الفاطمية ذاتها فى الشام ، وانتزعوا منها دمشق ، بل هاجموها فى مصر منزلها الجديد ، تنكر لهم الفاطميون وتبرأوا منهم .

وقد أرسل المعز لدين الله إلى حسن الأعصم زعيم القرامطة حينذاك وقت زحفه على مصر كتاباً ينوه فيه المعز بما له ولآبائه من صفة الإمامة ، ويشير إلى ما كان لهم من الولاية والوصاية على زعماء القرامطة أسلاف الحسن ، وإلى ما كانوا ينشدونه من رعاية الأئمة الفاطميين وبركاتهم ، وأنهم لم ينتصروا على العباسيين إلا بفضل هذه الرعاية الروحية ، وينعى على الحسن خروجه ونكثه ، ويتوعده بسوء العاقبة[1] .

---

(١) راجع نص هذه الوثيقة بأكمله فى اتعاظ الحنفاء ص ١٣٣ — ١٤٣ .

— ٣ —

**الباطنية :**

عرفنا فيما سبق ما كان من أمر القرامطة ، وسنرى فيما بعد مدى اتصالهم بإخوان الصفاء ؛ ولكن هؤلاء القرامطة لم يكونوا إلا مظهراً لحركة أخرى كبيرة ، تلك هي الدعوة السرية الباطنية . نشأت هذه الدعوة ، ونظمت مبادئها السرية لأول مرة على يد جماعة من الثوريين بزعامة أبى شاكر ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، وكان متفقهاً فى درس الأساطير الدينية ، والبحوث الكلامية والجدل الفلسفى ، ومتآمراً وافر الإقدام والجرأة ، وكان فارسياً من أصل مجوسى من سبى الأهواز ، وكان معظم الزنادقة والمبتدعين فى العقيدة الإسلامية ، والعاملين على هدمها فرسا .

بدأ ميمون حياته مولى لجعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، واستتر بالتشيع والدعوة لآل البيت ، ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا بالكوفة ، وواليها يومئذ عيسى بن موسى ، وذلك فى أواخر عهد المنصور سنة ١٤٥ هـ ، وفى السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم وأسسوا مذهبهم الشهير بمذهب الباطنية ، ولما خرج من السجن ادعى أنه من ولد محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق[١] . وانتشرت دعوته فى جنوب فارس وفى جنوب العراق والبحرين ، وانتشر دعاته فى كل مكان ، يخاطبون كل طائفة

(١) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ص ٢٦٦ « مطبعة المعارف »

بما يلائم ميولها وتفكيرها . وكانوا يتوسلون للتأثير في الكافة بأعمال التنجيم والكيمياء التي كانوا يحذقونها .

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده عبد الله ، وكان مثله ذكاء وبراعة ، وتبحراً في المباحث الفقهية والكلامية والنظريات الفلسفية الحرة ؛ فنظم الدعوة ، وصاغها في تسع مراتب ، ودعا لإمامة آل البيت الذين يزعم الانتساب إليهم . وكان يدعى علم الغيب ، والأسرار الروحية ، والعلوم الخفية ، ويزعم أنها انتهت إليه من جده محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق — وهو في نظر الشيعة مستودع العلوم والأسرار — وسموا باطنية لأنهم كانوا يقولون بالإمام الباطن أو المستور ، أو لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلا ، وربما عرفوا بذلك أيضاً لأنهم كانوا يكتمون مبادئهم ويلقونها سراً إلى الكافة ، كما عرفوا بالإسماعيلية لقول دعاتهم بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، فولده محمد المكتوم فولده جعفر ، ثم ولده محمد الحبيب وهو عندهم آخر الأئمة المستورين[١] .

ويحمل عليهم خصومهم ، وعلماء السنة ومؤرخوها حملة شعواء ، فيقول عبد القادر البغدادي : « إن الباطنية يزعمون أن المبدع الأول أبدع النفس ،

---

(١) اتفق الشيعة جميعا على إمامة ستة انتهوا بجعفر الصادق ، ثم اختلفوا بعده فذهب الاثنا عشرية إلى إمامة ولده موسى الكاظم ، وذهب الإسماعيلية إلى ولده إسماعيل . ولما كان الإمام هو حجة الله على خلقه ولا بد من وجوده ليؤدى ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ، ولما رأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس قالوا : إن الإمام يكون مستورا، ولكنه سيظهر يوما ما وهو المهدى أو الإمام المنتظر .

ثم إن الأول والثانى دبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة ، والطبائع الأربعة ، وهذا مايطابق قول المجوس: إن أليزدان خلق أهرمن، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم ، غير أن أليزدان فاعل الخيرات ، وأن أهرمن فاعل الشرور .

ويقول : «إن الباطنية يرفضون المعجزات وينكرون الوحى ، وأنهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والصوم هو الإمساك عن إفشاء سر الإمام ، والزنا هو إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وأن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها .

ويرى عبد القاهر من ذلك أن الباطنية دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع . ويستدل على ذلك بما ورد فى رسالة بعث بها عبد الله بن الحسن القيروانى أحد دعاتهم إلى الحسن بن سعيد الجنابى زعيم القرامطة يوصيه فيها: « أن ادع الناس بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنست منه رشداً، فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ... » ثم يقول : « إن الجنة هى نعيم الدنيا ، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد ، وأن أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ولايحصلون عليه إلا على اسم بلا جسم[1]» .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ويلخص الغزالى فى رسالته التى وضعها للرد على الباطنية مذهبهم فيما يأتى:
« وبالجملة فهو مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض، مفتاحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم، والقول بأن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين : هذا مبتدأ دعوتهم ؛ ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم ؛ لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين فى متن واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منه بالانقياد والموالاة لإمامهم فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم، ويقرونهم عليها، فهذه جملة المذهب، وأما تفصيله فيتعلق بالإلهيات والنبوات والإمامة والحشر والنشر[١] ».

لقد أطلنا الكلام على الباطنية، وسنذكر بعد شيئاً عنهم غير هذا ؛ لأن لهم علاقة قوية فيما نعتقد بإخوان الصفا الذين نكتب عنهم وسنرى هذه العلاقة فى حينها.

ولا يسعنا ونحن نكتب عن الباطنية هذه الكلمة الموجزة إلا أن نذكر كلمتين لمستشرقين عظيمين إحداهما للسير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة الإسلامية » يبين فيها مدى انتشار هذه الدعوة، ووسائلها فيقول : ـ

«مؤسس هذه الدعوة ـ التى تشبه المذهب الجزويتى فى نظرتها الثاقبة للطبيعة الإنسانية، وفى المهارة الفائقة التى أعدت بها نظرياتها لتتناسب مع الطبائع

---

(١) رسالة الرد على الباطنية المطبوعة بعناية المستشرق جولد تسهر ص ٧، ٨ .

المختلفة ، والميول المتنوعة ـ هو عبد الله بن ميمون ، وقد أرسل دعاة متخفين بأشكال شتى إلى كل جهة ، يظهرون غالباً فى زى المتصوفة ، وأحياناً فى زى التجار ، ولقد تعلموا كيف يكونون كل ما يحتاجه أى إنسان ، وكيف يدخلون فى طاعة أستاذهم الأكبر الرجال من أى طبقة كانت ؛ بأن يتحدثوا إلى كل رجل باللغة التى يفهمها ، وبأن يغيروا تعاليمهم تبعاً لمقدرة سامعيهم على الفهم ، وتبعاً لاختلاف آراء هؤلاء الذين ينصتون إليهم . لقد خلبوا الجمهور الجاهل وأسروه بأعمال الشعوذة التى ظنها معجزات أو كرامات ، وهاجوا فضول المنصتين إليهم بعبارات غامضة مبهمة ، لقد أظهروا للورع أنهم نماذج الفضيلة والحماسية الدينية ، ووضحوا للصوفى ما كان غامضاً من التعاليم المشهورة ، واستغلوا فكرة التطلع إلى منقذ ومخلص ـ تلك الفكرة التى كانت شائعة فى كثير من الديانات ، وأخذوا يذيعون بين المسلمين : أن قد حان الأوان لظهور المهدى المنتظر ، وبين اليهود المسيح ، وبين النصارى المعزى ؛ ولكن لاأمل لكل طائفة إلا بمجىء علىٍّ المنقذ الأعظم .

أما مع الشيعة فقد أظهر الداعية الإسماعيلى نفسه متحمساً لنظرياتهم . أيصبر على قسوة السنيين وظلمهم لعلىّ وأولاده ؟ كلا ! بل أخذ يذم الخلفاء السنيين بحرية وبلسان طلق ، وبعد أن يمهد الطريق على هذا النحو يبتدئ ببث نظريات الإسماعيلية البحتة كتتمة ضرورية للعقيدة الشيعية ؛ وفى معاملته لليهود كان لزاماً عليه أن يزدرى النصارى والمسلمين على السواء ؛ وأن يوافق مخاطبه

على التطلع إلى المسيح المنتظر . ولكن يقوده بالتدريج ليعتقد أن هذا المسيح المنتظر لن يكون إلا علياً المسيح الأكبر للمذهب الإسماعيلي... ... ... وبمثل هـــذا الأسلوب حاول الإسماعيليون الذين عموا شطر بلاد الهند أن يجعلوا نظرياتهم مقبولة للهندوس بجعلهم علياً هو « الأفاتار[١] » العاشر المنتظر الذى سيأتى من الغرب ( من ألموت[٢] ) ، ولقد كتبوا كتاباً يشابه كتاب « بورانا[٣] » .

بمثل هذه الطرق اتحد جمهور كبير من مختلف الديانات ليدفعوا إلى الأمام عملا لا يعرف غايته إلا القليل .

ويخيل إلى أن آمال عبد الله بن ميمون كانت سياسية سلك إليها طريقاً دينية[٤] » .

وأما الكلمة الثانية فللمستشرق الكبير دوزى يصف بها برنامج ابن ميمون : —

---

(١) أفاتار : مكونة من كلمتين Ava يعنى بعيداً ، و tara يعنى ينزل ، والكلمة كلها تعنى نزول إله هندى على صورة مرئية ( اللغة السنسكريتية ) .

(٢) ألموت : قلعة على جبل شاهق فى حدود الديلم صارت حصنا منيعا للشيعة الإسماعيلية .

(٣) بورانا Purana أحد الكتب الشعرية المقدسة فى اللغة السنسكريتية ويكون مع تنتاراس Tantaras الأسس الرئيسية للديانة البرهمية .

(٤) الدعوة الإسلامية للسير توماس أرنولد The Preaching of Islam. T.Arnold ص ٢١١ — ٢١٢

«أن يدمج الغالبين والمغلوبين فى هيئة واحدة ، وأن يجمع فى حظيرة واحدة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة ، بين أحرار المفكرين ـ الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لإذلال الشعب ـ وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يجعل من المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التى شادوها ، وأن ينشئ حزباً كبيراً مؤتلفاً منظماً، يرفع فى الوقت المناسب ـ إن لم يكن شخصه ـ فعلى الأقل أبناءه على العرش : هكذا كانت غاية عبد الله بن ميمون ، وهى فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش وبراعة نادرة وخبرة عميقة بأسرار القلب البشرى ، وكانت الرسائل التى ابتدعها غاية فى المكر والدهاء .

« ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ولكن بين الثنوية والوثنيين، وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة وإليهم وحدهم استطاع أن يفضى بسره وخفى عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر ـ أو الحمر كما يسميهم ـ ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ، غير أنه تحقيقاً لغايته لم يعف عن مؤازرتهم بل كان يلتمسها ، ويحذر فى نفس الوقت من أن يحشد الأنفس المخلصة الطائعة إلا فى المرتبة الأولى لدعوته[١] » .

وهكذا حمل عبد الله بن ميمون دعوة أبيه ونظمها ببراعة فائقة ، واتخذ بلدة

---

(١) دوزى Essai sur L'Histoire de L'Islamism ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢

« ساباط[١] » مركزاً لدعوته حيناً من الدهر مستتراً بثوب عميق من التشيع والورع والدعاء لآل البيت . وكان عبد الله بارعاً فى طب العيون وعلاجها وفى أعمال التنجيم والكيمياء ، وكانت براعته فى هذه الشئون وسيلة للتأثير فى العامة ؛ ولما شعر أولو الأمر بخطورته هموا بمطاردته ففر إلى البصرة ، ومعه الحسين الأهوازى من أقطاب الشيعة ، فلما طورد منها فر مع الحسين إلى الشام ونزل ببلدة « سلمية » من أعمال « حمص » واتخذها مركزاً لدعوته . وحمل الدعوة من بعده ولده أحمد ، وسيّر الحسين إلى العراق ، وكان مجيئه العراق سبباً فى ثورة القرامطة كما بينا آنفاً ، وخلف أحمد فى حمل الدعوة ابنه الحسين ثم أخوه محمد المعروف بأبى الشلعلع ؛ وكانت هذه الدعوة قد ثبتت واستقرت وقويت أئمتها ودعاتها وكثرت أموالهم ورسلهم ، وبعث محمد بدعاته إلى المغرب وعلى رأسهم أبو عبد الله الحسين المعروف بالشيعى فنشر الدعوة هناك ، وأخذ يبشر بالإمام المنتظر ثم قام بالدعوة سعيد بن الحسين .

ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين إن سعيداً هذا ليس ولد الحسين وإنما هو ولد زوجه اليهودية، رباه ولقنه أسرار الدعوة واختاره للزعامة والإمامة من بعده[٢] .

---

(١) ساباط : من أعمال المدائن القديمة فى جنوب الفرات .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٨ ، وابن الأثير لا يصدق هذه الرواية ويحاول أن يثبت صحة نسب الفاطميين ويستدل بأبيات للشريف الرضى وهو من هو علما ومكانة :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى

وسعيد هذا هو الذى فر إلى بلاد الغرب حينما همت السلطات بالقبض عليه، ففر إلى مصر ومنها إلى إفريقية ، وتسمى بعبيدالله المهدى أبى محمد ، وزعم أنه الإمام المنتظر ، وكان أبو عبد الله الشيعى قد مهد له سبيل الدعوة ، واجتذب إليه عدة من القبائل القوية ، فاستطاع عبيد الله بعد خطوب وأحداث جمة أن ينتزع لنفسه ملك الأغالبة ، وأن يؤسس دولة العبيديين أو الدولة الفاطمية بإفريقية سنة ٢٩٦ ﻫ وتوطدت دعائم الدولة الجديدة بسرعة ولم تلبث حتى غلبت على المغرب كله ثم افتتحت مصر واتخذتها مستقراً ومنزلا ( ٣٥٩ ـ ٣٦٣ ﻫ ) .

هذه أهم الأحداث السياسية التى ظهرت فى القرن الرابع الهجرى والتى لها علاقة ماسة بموضوعنا اختصرناها اختصاراً على الرغم مما يظهر عليها من التطويل، ولكن كان لا بد منها حتى نفهم حقيقة أهداف إخوان الصفاء .

---

ألبس الذل فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيدا النا ... س جميعا محمد وعلى

ويقول: كيف يعقل أن يعمل كل هؤلاء العلماء الأجلاء من أجل تولية يهودى ؟ وقد تبعه المرحوم الشيخ الخضرى بك فى رأيه هذا وقال : إن هذا كلام يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبنى العباس ( تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية ص ٣٠١ ) أما عبد الله عنان فى كتابه الحاكم فينكر نسبتهم إلى آل البيت ويوافق معظم علماء السنة فى هذا ، وأرى أن الطعن فى نسبهم مبنى على ظنون وشكوك لاتقوم مقام اليقين ، وأن كثيراً من علماء السنة تملقوا العباسيين وتملقوا مذهبهم وتعصبوا له فى طعنهم هذا .

# الفصل الثاني

## الحياة العقلية فى القرن الرابع

**السريانه :**

إخوان الصفاء ــ كما سترى ــ نتيجة لعاملين عظيمين : أولهما سياسى ، وثانيهما فكرى علمى ، وقد رأينا الحالة السياسية التى مهدت لظهورهم ، أو بالأحرى وصفنا الحياة السياسية فى عصرهم وصفاً يساعدنا عند الكلام عنهم على تعرف صلتهم بالحركات السياسية والجمعيات السرية التى كانت موجودة إبان ظهورهم . وأما الحياة الفكرية والعلمية التى عملت على إظهار رسائلهم ، فتحتاج منا كذلك إلى كلمة عابرة ، ولمحة سريعة نحو تلك المادة التى استمد منها إخوان الصفاء معارفهم وأفكارهم ؛ حتى نستطيع الحكم عليهم حكماً صحيحاً بعد تفهم آرائهم ، ومدى مافيها من ابتكار أو تقليد .

فتح المسلمون جهات كثيرة من العالم المعمور فى ذياك الوقت ، ووجدوا به كثيراً من النصارى فى مصر والشام وبلاد المغرب والأندلس ، وكانت النصرانية عند الفتح منقسمة إلى جملة طوائف أشهرها فى الشرق ثلاث : اليعاقبة وكانوا منتشرين فى مصر وبلاد النوبة والحبشة ، والنساطرة ــ نسبة إلى نسطور الحكيم

وقد كان بطريقاً للقسطنطينية فى بعض أيامه ، ومات فى منفاه سنة ٤٥٠م ـ وكانوا منتشرين فى الموصل والعراق وفارس ، والملكانية وكانوا منتشرين فى بلاد الغرب وصقلية والأندلس والشام ؛ وكان بين هذه المذاهب الثلاثة جدال عنيف فى العقائد بلغ أحياناً حد الاضطهاد مثلما حدث لنصارى مصر على يد إمبراطور روما .

وكان كثير من السريان ـ وهم نصارى ـ تجاراً يجلبون الخمر والحرير وغيرهما إلى بلاد المغرب ، ويحملون فى عودتهم كتب الثقافة اليونانية من الإسكندرية وإنطاكية وصقلية وينشرونها فى الشرق ، وأسسوا عدة مدارس كانت مراكز لهذه الثقافة وأهمها : الرها ، ونصيبين ، وحران ، وجند يسابور .

واستعان النصارى فيما وقع بينهم من خلافات دينية بالفلسفة اليونانية وبالمنطق قبل أن يغزو المسلمون ديارهم ، فقام السريان بترجمة كتب الفلسفة اليونانية من القرن الرابع الميلادى إلى القرن الثامن تقريباً ، ومن أوائل الكتب التى نقلوها إلى لغتهم : كتب أرسطو المنطقية وشروحها كإيساغوجى ، وترجموا كتباً فى الإلهيات والأخلاق والتصوف ، ونقل سرجيس الرسعنى كتباً فى الطب والفلسفة والطبيعة ، واستمروا فى ذلك حتى بعد الفتح الاسلامى ، وكانت ترجمتهم دقيقة ، ولا سيما فى كتب المنطق والطب والطبيعة ؛ أما ترجمتهم لكتب الأخلاق وما بعد الطبيعة فقد صبغوها صبغة مسيحية ، وأحلوا عناصر مسيحية محل ما هو وثنى ؛ فبطرس ، وبولس ، وحنا ، تظهر أحياناً بدل سقراط وأفلاطون

وأرسطو[١]، وحل الإله الواحد محل آلهة اليونان العديدين، ثم صبغوا فكرة العالم والخلود والخطيئة بصبغة مسيحية .

وقد عنى السريان على الأخص بالحكمة الفيثاغورية الأفلاطونية التى تنزع إلى التصوف ، وكان محور أبحاثهم نظرية لأفلاطون فى النفس تناولوها بما يتفق مع الفلسفة الفيثاغورية أو الأفلاطونية الحديثة ، أو بما يتفق مع المسيحية ؛ بل إنا لنجد السريان فى أديرتهم يمثلون أفلاطون فى صورة راهب شرقى انتبذ لنفسه صومعة فى قلب البرية بعيداً عن مساكن البشر ، وبعد أن لبث ثلاث سنين صامتاً يتفكر فى آية من الكتاب المقدس ، انتهى به تأمله إلى الاعتقاد بالتثليث[٢] .

— ٢ —

**المسلمون والفلسفة** : لما فرغ المسلمون من الفتح ، واستقر بهم الأمر ، أخذ عقلهم يتفلسف فى الدين وينظر فى بعض آيات القرآن المتشابهة، وحاولوا أن يوفقوا بينها، وقد اختلفت وجهات نظرهم فى تأويلها ؛ ثم إن القرآن تعرض لبعض الفرق الملحدة كالدهرية الذين يقولون: «وما يهلكنا إلا الدهر » وأمر النبي أتباعه بالرد على المخالفين ومجادلتهم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ترجمة الدكتور أبو ريده ص ٢٠

(٢) المصدر نفسه .

وجادلهم بالتى هى أحسن» فشغل المسلمون بالبحث فى هذه المشكلات الجديدة، وخاصة أنه قد دخل فى الإسلام كثير من النصارى واليهود والفرس والدهريين والصابئة والبراهمة ، وأثاروا عدة مسائل كانت فى دياناتهم القديمة : من جبر واختيار ، وتناسخ... الخ . وجد المسلمون أنفسهم أمام خصوم أقوياء يجادلونهم بالمنطق ويدعمون حججهم بالفلسفة ؛ فاضطروا إزاء كل هذا إلى درس الديانات المختلفة ؛ كى يتعرفوا مواطن القوة والضعف فيها ، كما لجأوا إلى الفلسفة يتخذون منها عوناً ضد خصومهم ، وتعلموا المنطق ليقرعوا الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان .

فهذه الأسباب مجتمعة ، كونت أول جماعة مفكرة فى الإسلام ، ألا وهى علماء الكلام ، ورأينا عالماً كالنظام يقرأ أرسطو ويرد عليه ، ورأينا كثيراً من أبحاث المعتزلة هى أبحاث الفلسفة كالتوالد ، والجوهر والعرض، والجزء الذى لا يتجزأ ... الخ .

بيد أن علماء الكلام لم يشغلوا أنفسهم بالفلسفة إلا بالقدر الذى يحتاجون إليه فى الرد على الملاحدة وفى إثبات حقائق الإسلام ، وقد اختلف منهجهم فى البحث عن منهج الفلاسفة الحقيقيين ، لأنهم أشبه بمدرَه اعتقد صحة قضية من القضايا ، وأخذ يدافع عنها بكل ما أوتى من قوة وفصاحة وجدل. أما الفلاسفة فيبحثون المسائل بحثاً مجرداً ، وعقولهم خالية من المؤثرات والعقائد، ثم ينظرون ما ينتجه البحث ، كائنة ما كانت هذه النتيجة ، وشتان بين المنهجين والطريقتين.

## — ٣ —

**حركة الترجمة** : ابتدأت حركة النقل إلى العربية فى عهـد بنى أمية ، ولـكنها ظلت محدودة الأفق ، قليلة الإنتاج ، فيروى لنا صاحب الفهرست : أن أول نقل إلى العربيـة كان على يد خالد بن يزيد بن معاوية ، المسمى حكيم آل مروان ، وأنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان يقطن مصر وحذق اللغة العربية ، وعهد إليهم بنقل كتب فى الطبيعة أو الـكيمياء من اللغة اليونانية ، ثم نُقل الديوان من الفارسية إلى العربية فى عهد الحجاج بن يوسف، كما نقل من الرومية فى زمن هشام بن عبد الملك . فلما جاء بنو العباس ، وكثر اختلاطهم بالفرس ، كان النقل بادئ الأمر من هذه اللغة إلى العربية ، وكانت الفارسية قد أفادت كثيراً من هجرة بعض فلاسفة اليونان المضطهدين فى عهد الإمبراطور جوستنيان ، ومن غيرهم ، فترجم لنا ابن المقفع بعض الآثار اليونانية فى المنطق عن الفارسية ، كما ترجم كتاب المدخل لمنطق أرسطو المعروف بإيساغوجى الفرفريوس. وقد اشتدت حركة النقل نوعاً ما أيام المنصور، وكان مولعاً بالفلك فترجم له كتاب السند هند الـكبير ، وأرسل فى طلب جبرائيل ابن بختيشوع الطبيب النسطورى فلازمه ، وأخـــذ ينقل له بعض الـكتب اليونانية ، واستمر النقل فى ازدياد إلى أن أتى الرشيد ، ورتب الصوائف ، وصار الغزاة يجلبون فيما يجلبون من بلاد الروم كتب الحـكمة والطب والفلسفة والرياضيات ، ولا سيما من مدينة عمورية ، وقد ترجم كتاب المجسطى فى عهد

الرشيد ، ثم جاء عصر المأمون فدخلت الترجمة فى عصرها الثالث ، وهو أزهى عصورها ، وذلك أن المأمون اعتنى بدار الكتب التى أسسها الرشيد ، وسماها بيت الحكمة ، وجمع بها العلماء والمترجمين والنساخ والمؤلفين،يخرجون له كنوز الفلسفة ، وأنواع الثقافة اليونانية ، وكان يتردد عليها كثيرون ممن يشتغلون بالحركة العلمية كالفضل بن نوبخت ، وأولاد شاكر ، وغيرهم ، وأرسل المأمون رسله فى الآفاق يجلبون له نوادر الكتب اليونانية .

ونقلت فى هذا العهد كتب كثيرة منها : كتاب السياسة لأفلاطون ، وكتب منطق أرسطو : المقولات ، والقياس والجدل ، وكتاب الشعر ، والكون والفساد ، والحيوان . كما نقلت كتب بقراط ، وجالينوس فى الطب .

انتهى عصر المأمون ، ولكن لم تثبط عزيمة المترجمين ، أو يتقاعس من أتى بعده من الخلفاء عن متابعة نهضته ، فظل النقل نشيطاً حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ومن أشهر مترجمى هذا العصر : متى بن يونس ، وسنان ابن ثابت بن قرة ، ويحيى بن عدى ، وفى هذا العصر والذى قبله ترجمت أكثر كتب الرياضيات ، والنجوم ، وسائر العلوم ، فترجم كتاب إقليدس فى أصول الهندسة ، وكتابه فى الموسيقى والقانون ، كما ترجمت كتب أرشميدس وغيره مع استمرار النقل من الفارسية والهندية والنبطية وغيرها من اللغات.

— ٤ —

**فهم العرب للفلسفة** : وصلت الفلسفة اليونانية إلى العرب على يدالسريان

وهؤلاء كما رأينا قد نقلوا منها ما احتاجوا إليه فى محاولاتهم الدينية ، واهتموا كثيراً بالآراء الأفلاطونية ممزوجة بفلسفة فيثاغورس وبالأفلاطونية الحديثة التى تدعو إلى الزهد والتصوف وتقوية الروح على حساب الجسم .

وكان اليعاقبة بخاصة هم الذين عملوا على نشر هذا المذهب والترويج له (١) فأخذ العرب عنهم هذا الميل نظرا لتمكن الدين من نفوسهم . ومن ثم أخذوا يهتمون بفلسفة أرسطو ، وأعجبوا بمنطقه أيما إعجاب إلا أن رأيه فى أزلية العالم وقدمه ، ومذهبه فى أمر النفس وفى الأخلاق ، كانا يتعارضان نوعا ما مع عقيدة المسلمين ؛ ولذا رأوا فيه خطرا على دينهم ، فرد عليه كثير من علماء الكلام . ولم يجدوا فى أفلاطون مثل هذا الخطر ؛ لأنه قال بحدوث العالم وبقاء النفس ، وأنها جوهر روحانى ، وهذا مايتمشى مع عقيدة المسلمين إلى حد ما ؛ بيد أن بعض فلاسفة المسلمين نبذ نظريته القائلة : بأن فى العالم نفسا كلية واحدة وبأن نفوس أفراد الإنسان ليست إلا أجزاء منبعثة من تلك النفس الكلية ، وأخذوا يلتمسون ما يقرر رجاءهم فى الخلود عند أرسطو ؛ لأنه جعل للنفوس الجزئية شأنا كبيرا (٢) .

وقد نسب العرب كتبا كثيرة لأرسطو أول الأمر ؛ لأن كتبه وصلتهم بشروح فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ، وأكبر شاهد على ذلك كتاب التفاحة وشأن أرسطو فى ذلك الكتاب هو شأن سقراط فى قصة فيدون ، التى ألفها أفلاطون ، ونسبوا إليه كتاب « فى العالم » وغيره من كتب أفلاطون

---

(١) الدكتور فيليب حتى . تاريخ العرب. The History of the Arabs ص ٣١٥
(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ص ٢٨ .

المزوجة بمذهب فيثاغورس ، وبالأفلاطونية الحديثة [١] .

وإذا شئت دليلا أبلغ فهاك كتاب « الربوبية » المنسوب خطأ لأرسطو ، ففى هذا الكتاب نجد أفلاطون الالهى مصوراً فى صورة مثل أعلى للإنسان ، يعلم الأشياء كلها بنظر العقل ، فلا يحتاج لمنطق أرسطو ، وترى فيه أن الحقيقة العليا ، وهى الوجود المطلق لاتدرك بالتفكير ، بل بالمشاهدة فى حال الغيبوبةعن عالم الحس . وفى هـذا الكتاب يقول أرسطو « فيما ظن العرب » والقول فى الواقع لأفلوطين[٢] . « إنى ربما خلوت بنفسي وخلعت بدنى جانبا ، وصرت كأنى جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلا فى ذاتى ، راجعاً إليها ، خارجامن سائر الأشياء ، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعا . فأرى فى ذاتى من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبا فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الشريف الفاضل الإلهى ، ذو حياة فعالة ، فلما أيقنت ذلك ترقيت بذاتى من ذلك العالم إلى العالم الآلهى ، فصرت كأنى موضوع فيه متعلق به فأكون فوق العالم العقلى كله وأرى هناك من النور والبهاء مالا تقدر الألسنة على صفته ولاتعيه الأسماع[٣] » فهذا الكتاب لايمت إلى أرسطو بصلة،ولكنهمن كتب الأفلاطونيةالحديثة[٤] .

---

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام لدى بور ، ترجمة الدكتور أبو ريده ص ٢٩ ، ٣٠

(٢) هو المؤسس الحقيقى للإفلاطونية الحديثة ، ولد بأسيوط سنة ٢٠٥ م ،ويسميه العرب الشيخ اليونانى أو الإسكندرانى وألف كتبا كثيرة حفظتعنه، وتعرفبالتاسوعات وكان فى حد ذاته زاهدا ورعا .

(٣) كتاب الربوبية ص ٨ ورسائل إخوان الصفاج ١ ص ٩٢ .

(٤) تاريخ الفلسفة الإسلامية لدى بور ص ٣٠ ، ٣١ ترجمة الدكتورأبو ريده .

ليس الذنب فى كل هذا الخلط بين مذاهب فلاسفة اليونان ذنب العرب ، ولكن الذنب على هؤلاء الذين نقلوا إليهم هذه الكتب ممزوجة بالأفلاطونية الحديثة وغيرها ، ثم على العصر الذى لم تكن فيه وسائل النقد وتمييز كتب أرسطو من غيرها متوفرة كما هو لدينا الآن .

هذا وقد وجد المسلمون الإفلاطونية الحديثة تشرح مذاهب اليونان القدماء ، وتوفق بينها ، فنهجوا طريقهم ومزجوا بين نظريات الفلسفة اليونانية .

ورأوا أن السريان المسيحيين خلطوا بين الفلسفة والدين ، وحاولوا أن يؤيدوا دينهم بنظريات فلسفية ، فسلكوا سبيلهم ، وجدوا فى التوفيق بين الإسلام والفلسفة ، وإذا وجدوا فى الفلسفة مايخالف الدين حاولوا تأويله ، وإلا سكتوا عنه ، أو ردوا عليه ؛ ولهذا نرى مثلا فيلسوفا كالفارابى يؤلف رسالة فى الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون وأرسطو ، ونرى إخوان الصفاء مثلا يؤلفون رسائلهم زاعمين « أن الشريعة دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، فأرادوا تطهيرها بالفلسفة ، معتقدين أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية ، والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال [1] » .

نالت الفلسفة الطبيعية التى نقلت من مؤلفات إقليدس وبطليموس ، وبقراط وجالينوس ، ومن بعض كتب أرسطو ، إلى جانب كثير من كتب شتى ترجع إلى المذهبين الفيثاغورى الجديد ، والأفلاطونى الجديد ، نالت هذه

---

(١) رسائل ج ١ ص ٢٤ .

الفلسفة قبولا عظيما من العرب ، بل صارت فلسفة الجمهور ، وقد راجت جداً لدى الشيعة ، ولدى غيرهم من الفرق ، ولم يقتصر تأثيرها على مجالس الملوك ، بل تعدى هذه المجالس إلى طائفة كبيرة من المثقفين وأنصاف المثقفين .

ذهب الناس فى البحث إلى أبعد مما كانت تتطلبه حاجاتهم العملية التى لم تكن تستلزم إلا قليلا من علم الحساب ينتفعون به فى تقسيم الفرائض ، وفى شئون التجارة ، إلى جانب قليل من علم الفلك يضبطون به مواقيت العبادات وسارعوا إلى جمع الحكمة من كل صوب .

كان فيثاغورس هو أستاذ العرب فى الرياضيات ، وكان يقال : إن الإنسان لايكون فيلسوفا ، ولا طبيباً حاذقا إلا بدراسة فروع الرياضيات ، كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى .

وكان الانتقال هينا من الرياضيات إلى الفلك والتنجيم . وأدى التنجيم إلى آراء تعارض الدين ، وحاول المنجمون أن يثبتوا تأثير الأفلاك السماوية فى هذا الكوكب الذى نعيش فوقه ، ومن يقل من أناسىّ ، وأخذوا يتنبأون بالمستقبل ودخل فى هذا العلم كثير من الأوهام والخرافات سنعرف شيئاً منها عند إخوان الصفاء.

أظهر المسلمون حرصاً شديداً على كل مانقل إليهم من لغات الأمم القديمة فأخذوا يدرسونه ، ويتفقهون كنهه ، ويعلقون عليه ؛ وظهر منهم فلاسفة تحرروا إلى حد ما من ربقة التقاليد والعادات ، وكونوا لأنفسهم نظريات خاصة فى بعض القضايا الفلسفية التى تلقوها عن اليونان ، فمن هؤلاء يعقوب ابن

إسحاق الـكندى الذى يقول فيه العلامة « ماسنيون[١] » إنه إمام أول مذهب فلسفى إسلامى ببغداد . ويقول فيه دى بور : عند الترجمة له فى دائرة المعارف الإسلامية : إن « كوردان » Curdan ، وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة يعد الـكندى واحداً من اثنى عشر يعتبرون أنفذ الناس عقلا ، وأنه كان فى القرون الوسطى يعتبر واحداً من ثمانية هم أئمة العلوم الفلـكية .

ومن هؤلاء أيضا قسطا بن لوقا البعلبكى ، وكان معاصراً للـكندى، ومن أهم آثاره رسالة فى الفرق بين الروح والنفس ، وقد بقيت إلى يومنا هذا بعد أن ترجمت إلى اللاتينية [٢] وانتفع بها كثير من المشتغلين بالفلسفة .

ثم جاء الفارابى بعدها ، فصحح تراجم كتب أرسطو وشرحها ، ومهد لنهضة الفلسفة الإسلامية التى تـكاملت بعده ، وفيه يقول ابن خلـكان: «وهو أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن منهم من بلغ رتبته من فنونه ، والرئيس أبو على بن سينا ـ المتقدم ذكره ـ بكتبه تخرج ، وبكلامه انتفع فى تصانيفه » .

ثم إن أبا نصر الفارابى هو أول من عنى بإحصاء العلوم ، وترتيبها فى كتابه « إحصاء العلوم »[٣] ومن أجل ذلك يعتبر بعض الباحثين أبا نصر أول واضع

(١) Massignon. Recueil de texte inedits concernant L'Histoire de la Mystique en pay d'Islam,

(٢) ترجمها إلى اللاتينية حنا الاسبانى منذ القرن الثانى عشر الميـلادى ، ونشرها بالعربية الأب لويس شيخو فى مجلة المشرق سنة ١٩١١ عن نسخة خطية بالمـكتبة الخالدية بالقدس .

(٣) نشره فى ١٩٣١ الدكتور عثمان أمين ووضع له مقدمة طيبة ، وعنى بنشره كـذلك المستشرق الأسبانى بلا نسيا ١٩٣٤ .

فى العالم لنواة دوائر المعارف(١) .

وقد تأثر إخوان الصفا بالكندى فى فلسفته الطبيعية ، وبالمترجمين وآرائهم ، وبالفارابى فى إحصائه للعلوم ، ووضعوا رسائلهم التى هى أشبه بدائرة المعارف التى كانت معروفة فى أيامهم ، كما سيأتى الكلام عن ذلك فى حينه .

ومن أراد ثبتاً بالفلاسفة المسلمين وما ألفوا من كتب ، وما ترجموا من رسائل ، فليلتمس ذلك فى فهرست ابن النديم ، وتراجم الحكماء للقفطى ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة .

وإن القارىء لينتظر منا بعد كل ما تقدم أن نصدر حكما عاما على الحياة العقلية فى القرن الرابع الذى نحن بصدده . والحياة العقلية ولاشك تشمل كل أنواع العلوم والآداب وأصناف الفنون والصناعات . وليس غرضنا فى هذه العجالة أن نتكلم عن كل نواحى النشاط العقلى عند العرب فى هذه الحقبة من التاريخ ، وإنما حسبنا أن وضحنا ناحية هامة منها تتعلق بموضوع كتابنا ، ألا وهى ناحية الترجمة من اليونانية وغيرها، وناحية الآراء الفلسفية .

أما بقية مجالات النشاط العقلى ، فلم يشهد المسلمون عصراً زهت فيه حياتهم العقلية ، وأزهرت وأتت أطيب الثمر وألذ الجنى كهذا العصر الذى نبحث عنه ، وإذا درسنا الحياة العقلية لهذا العصر لم نجد فنا من فنون العلم التى عرفها الأقدمون ولا ضربا من ضروب الهزل والجد التى اشترك فيها الناس ، إلا وقد

(١) فيلسوف العرب والمعلم الثانى لمصطفى باشا عبد الرازق ص ٧٠ ، من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية .

أخذ المسلمون منه بحظ غير قليل .

أخذوا منه بحظ موفور أفاضوا عليه صبغتهم ، وطبعوه بطابعهم ، ولونوه بلونهم الخاص ، فليس فيه مايدل على أنه متكلف أو مستعار . ولولا أن التاريخ نفسه يدلنا على أن المسلمين قد نقلوا فنون العلم عن الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة لخيل إلى الباحث أن العلم فيهم قديم .

وأقل نظرة إلى العلوم العربية ، ومدى ما وصلت إليه فى القرن الرابع كالنحو والفقه ، والنقد الأدبى ، وعلوم البلاغة ، والتفسير والتاريخ والجغرافيا تدلنا على ذلك النضج العقلى ، وعلى عظم التراث الذى خلفه العرب والمسلمون لمن أتى بعدهم . هذا كله على الرغم من سوء الحالة السياسية فى هذا القرن ، تلك الحالة التى بيناها فيما سبق ؛ وقد ذكرنا آنفاً علة هذا النضج العقلى بإيجاز ولننتقل الآن للكلام عن إخوان الصفاء الذين ظهروا فى هذا العصر الملىء بالنشاط الفكرى .

# الفصل الثالث

## إخوان الصفاء

### — ١ —

**أسماؤهم** : ورد اسم إخوان الصفاء فى غير ما موضع من الشعر العربى ، وأقدم نص ورد فيه هذا الاسم أبيات لأوس بن حجر يندد فيها بطفيل بن مالك ابن جعفر والد عامر بن الطفيل الملقب بملاعب الأسنة فى يوم السوبان :

لعمرك ما آسى طفيل بنفسه    بنى عامر إذ ثابت الخيل تدعى
وودّع اخوان الصفاء بقُرْزُلٍ    يمر كمريخ الوليد المقزع (١)
فراراً وأسلمت ابن أمك عامراً    يلاعب أطراف الوشيج المزعزع
وقد علمت عرساك أنك آيب    تخبرهم عن جيشهم كل مَرْبع (٢)

وورد الاسم كذلك فى أبيات لأبى حناك البراء بن ربعى الفقعسى أحد شعراء الحماسة يرثى :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا    أرجى الحياة أم من الموت أجزع

(١) قرزل : اسم فرس طفيل بن مالك .
(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٨٦ ج١ طبعة ليدن .

ثمانيـــة كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم وما الـكف إلا إصبع ثم إصبع
لعمرك إنى بالخليـل الذى له علىّ دلالٌ واجب لمفجع [1]

ووردت صيغة الاسم فى كتاب كليلة ودمنة ، فى باب الحمامة المطوقة . وقد جاء فى الرسائل : « فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة فى كتاب كليلة ودمنة » [2] .

وقد كان الإخوان معجبين بهذا الـكتاب ، وعنه اقتبسوا كثيراً من الحـكايات ، فلا يبعد أن يكون قد أوحى اليهم بهذه الصيغة [3] .

أما السبب الحقيق الذى من أجله تسموا بهذا الاسم فهو ما كان بينهم من اتحاد وامتزاج واتفاق فى الغرض . وقد أحاطت هذه الجماعة نفسها بسياج متين من الـكتمان ، فلم يذكروا فى رسائلهم ماينم على أسمائهم أو أعمالهم ، ويقولون فى ذلك : « إننا لانكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوى السلطة ، ولا حذراً من شغب جهور العوام ؛ ولـكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا [4] » وإن كان هـذا الـكلام يحمل فى طياته خوفا من سطوة

---

(١) ديوان الحماسة ج ١ ص ٣٥١ . مطبعة السعادة سنة ١٩٢٧ .

(٢) الرسائل ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ . المطبعة العربية بمصر ١٩٢٨ ، وسنشير غالبا إلى هذه الطبعة فيما سيأتى .

(٣) راجع رسالة الإنسان والحيوان فى الجزء الثانى ولاسيما صفحات ٢٧٧ـ٢٨٠ ، ج ٤ ص ١٦٨ .

(٤) الرسائل ج ٤ ص ٢١٥ .

الملوك ، وحذرا من شغب جمهور العوام ؛ فقد كانت الفتنة بين السنة والشيعة على أشدها فى الوقت الذى ظهر فيه إخوان الصفاء ؛ لأن معز الدولة بن بويه حينما استولى على بغداد — كما مر فى سنة ٣٣٤ ، شجع الشيعة ، وعمل على إظهار مذهبهم ، بيد أن جمهور الأمة فى العراق حينذاك كان من أهل السنة ، وكان لهم من السطوة والتأثير مايحمل جماعة مثل إخوان الصفاء على كتمان أمرهم ؛ وسنعلم فيما بعد أن لهم أغراضا أخرى حملتهم على هذا الكتمان ، ودعتهم إلى أن يتشددوا حتى فى تداول رسائلهم فيقولون لمن حصل على هذه الرسائل : « وليتحرز فى حفظها وإسرارها وإعلانها وإظهارها كل التحرز ، ويحرسها غاية الحراسة ، ويصنها أحسن الصيانة (١) » .

ومن أجل هذا الكتمان الشديد حار الناس فى أمرهم قديما وحديثاً ، فيقول القفطى فى تاريخ الحكماء : « ولما كتم مصنفوها — أى الرسائل — أسماءهم ، اختلف الناس فى الذى وضعها ، فكل قوم قالوا قولا ، بطريق الحدس والتخمين ، فقوم قالوا : هى من كلام بعض الأئمة من نسل على بن أبى طالب ، واختلفوا فى اسم الإمام الواضع لها اختلافا لايثبت له حقيقة (٢) » .

وقد يكون لمن ظن هذا الظن ، وأن رسائل إخوان الصفاء من وضع بعض الأئمة شىء من العذر ؛ إذ ورد فى رسائلهم مايوحى بهذا حيث يقولون : « ومن الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسبا لها ، مثل النائحة والقصاص ،

---

(١) الرسائل ج ١ ص ٢٠ .

(٢) مقدمة زكى باشا على رسائل إخوان الصفاء طبعة مصر ص ٢٢ ج ١ .

لايعرفون من التشيع إلا التبرى والشتم والطعن واللعنة والبكاء ، وترك طلب العلم وتعلم القرآن ، وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد ، وزيارة القبور كالنساء الثواكل يبكون على فقدان أجسادنا ، وهم بالبكاء على أنفسهم أولى [١] » والشيعة طبعا لايبكون إلا على فقدان آل البيت .

ويقول القفطى بعد ماذكرنا : « وقال آخرون : هى تصنيف بعض متكلمى المعتزلة فى العصر الأول . ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفيها ، حتى وقفت على كلام لأبى حيان التوحيدى [٢] ، جاء فى جواب له عن أمر سأله عنه وزير صمصام [٣] الدولة بن بويه ، فى حدود سنة ٣٧٣ ، وصورته : وقال أبو حيان حاكيا عن الوزير المذكور : حدثنى عن شىء هو أهم من هذا إلىّ ،

---

(١) رسائل ج ٤ ص ١٩٩ .

(٢) هو أبو حيان التوحيدى على بن محمد بن العباس الصوفى ، كان مفتنا فى جميع العلوم ، يشبه الجاحظ فى علمه وأدبه ، ويقال له شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، وقال عنه ياقوت : وكان يتأله والناس على ثقة من دينه وقد حكم المتأخرون بزندقته فطلبه الوزير المهلبى . وقد درس الفلسفة على عدى بن زيد ، وأبى سليمان محمد ابن طاهر المنطقى وتوفى سنة ٣٨٠هـ ، وقيل فى سنة ٤٠٠ ببغداد فقيراً معدماً .

(٣) أخطأ المرحوم زكى باشا فى النقل من كتاب أخبار الحكماء للقفطى حين قال : سألنى « الوزير صنصام الدولة » رسائل ص ٢٣ ، وكذلك أخطأ من تبع زكى باشا فى هذا النقل ، ورواية القفطى : سألنى وزير صمصام الدولة — وصمصام الدولة هذا هو صمصام الدولة أبوكاليجار المرزبان بن عضد الدولة بن بويه ، تولى العراق فى عهد الطائع لله ، وكانت مدته ثلاث سنين وأحد عشر شهرا انتهت فى رمضان سنة ٣٧٦ . أما وزيره المشار اليه فهو أبو عبدالله الحسين بن احمد بن سعدان ، فإن صمصام الدولة البويهى لم يكن وزيرا وإنما كان ملكا على بغداد .

وأخطر على بالى ! إنى لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولا يريبنى ، ومذهبا لاعهد لى به ، وكناية عمّا لا أحقه ، وإشارة إلى مالا يتوضح شىء منه ، فما حديثه ؟ ، وما شأنه ؟ فقد بلغنى ياأبا حيان ، أنك تغشاه ، وتجلس اليه وتكثر عنده ، ولك معه نوادر معجبة ، ومن طالت عشرته لإنسان ، صدقت خبرته ، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه ، وخافى مذهبه . فقلت : أيها الوزير ! أنت الذى تعرفه قبلى قديما وحديثاً ؛ لاختبار ، ولاستخدام ، وله منك الإمرة القديمة ، والنسبة المعروفة .

قال : دع هذا وصفه لى !

فقلت : ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع فى قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس وسماع المقالات ، وتبصر فى الآراء والديانات ، وتصرف فى كل فن ، إما بالشد الموهم وإما بالتوسط المفهم ، وإما بالتناهى المفحم . ثم يقول أبو حيان عن زيد بن رفاعة هذا : «وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا ، وصادق بها جماعة لأصناف العلم ، وأنواع الصناعة منهم : أبو سليمان محمد بن معشر البستى « ويعرف بالمقدسى » وأبو الحسن على ابن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد المهرجانى ، وأبو الحسن العوفى وغيرهم .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله [1] » وهذا المذهب هو مزج الفلسفة بالدين .

---

(١) مقدمة زكى باشا على رسائل إخوان الصفاء منقولة عن تاريخ الحكماء للقفطى ج ١ ص ٢٤ .

— ٢ —

**جماعة بغداد** : هذا مبلغ علمنا بأسماء مؤلفى رسائل إخوان الصفا ، ولولا ماذكره أبو حيان لعمى علينا الأمر ، على أن ما ذكره لايلق كثيراً من الضوء على شخصيات هؤلاء العلماء الأجلاء الذين جهدوا فى كتمان أسمائهم وأخبارهم ولم يعثر أحد على ترجمة لأحدهم ، اللهم إلا ماذكره صاحب كشف الظنون من أن لأبى الحسن العوفى « وهو من أصحاب إخوان الصفا » رسالة فى أقسام الموجودات وتفسيرها ، وهى لطيفة ذكرها الشهر زورى فى تاريخ الحكماء[١]

على أننا نستطيع أن نتصور مدى ما كان عليه إخوان الصفاء من العلم والفضل والمقدرة على التصرف فى كل فن من رسائلهم أولا ، ومما يذكره أبو حيان التوحيدى عن زيد بن رفاعة ثانيا ، وهو واحد منهم ، بل خادمهم كما ذكر أبوحيان ، فكيف بهم ؟ ! .

ولقد كانت هناك جماعة أخرى تقيم ببغداد ، وعلى اتصال وثيق بإخوان الصفا ، وعنها يقول أبو حيان فى كتابه المقابسات[٢] : ومن أعضائها أبوسليمان محمد بن طاهر السجستانى ، وأبو زكريا العميرى ، والعروضى أبو محمد المقدسى ، ويحيى بن عدى ، وأبو إسحاق الصابى ، ومانى المجوسى » .

---

(١) مقدمة زكى باشا على رسائل إخوان الصفاء منقولة عن تاريخ الحكماء للقفطى ج ١ ص ٣٤ .

(٢) المقابسات ص ٥٧

ويظهر أن أبا سليمان المنطق السجستانى كان رئيس هذه الجماعة ، فكثيراً مايقول أبوحيان : « دارت فى مجلس أبى سليمان . . . مناظرات » ، ويقول : « أملى علينا أبو سليمان [١] » .

وفى هذه الجماعة الثانية أسماء أكثر وضوحا ، وأعظم شهرة من أسماء الجماعة الأولى ، وحسبك بأبى سليمان المنطق السجستانى، فهو أستاذ أبى حيان، وأبو حيان علم من أعلام الأدب والفلسفة ، وحسبك كذلك بأبى اسحاق الصابى [٢] ، أو يحيى بن عدى [٣] .

ويظهر كذلك أن أمر هذه الجماعة الثانية كان على شا كلة أختها فى البصرة سرياً ، فقد ثبت أن أبا العلاء المعرى كان يختلف إلى مجمع فلسفى خاص ، يأتلف يوم الجمعة من كل أسبوع بدار عبد السلام بن الحسين البصرى ـ وهو الذى كان يتولى أمر مكتبة سابور بن أردشير التى أنشأها بين السورين سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ـ وفى هذا المجمع يقول أبو العلاء من قصيدة بعث بها إلى عبد السلام :

---

(١) المقابسات ص ٥٧

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الحرانى الصابى ، قال عنه ياقوت « كان الصابى فى منزلة ابن العميد وابن عباد بلاغة وترسلا ، وشعرا ، وحلاوة منطق ، وغزارة علم باللغة والفلسفة » ويفوتهما بثقافته الطبية والفلكية وتوفى بعد أن تجاوز السبعين سنة ٣٨٤ وظل مجوسيا لم يسلم .

(٣) كان يحيى رئيس أساقفة الكنيسة اليعقوبية ، وكان يمثل نشاط هذه الطائفة فى النقل من اليونانية وقد تتلمذ للفارابى ، وأبى بشر متى بن يونس ، ويقول عنه صاحب الفهرست وكان معاصرا له . « إنه كان وحيد عصره » وذكر له مؤلفات كثيرة .

تهيج أشواق عروبة أنها إليك ذوتني عن حضور بمجمع[1]

وكان هذا المجمع السرى هو الذى أسماه إخوان الصفا وذلك حيث يقول :

كم بلدة فارقتها ومعاشر يذرون من أسف على دموعا
وإذا أضاعتني الخطوب فلن أرى لوداد إخوان الصفاء مضيعا
خالت توديع الأصادق للنوى فمتى أودع خلى التوديعا[2]

وقد كان لاحتكاك أبى العلاء مع تلك الجماعة ، وتعرفه إلى مختلف النظريات الفلسفية والدينية والصوفية أثر كبير فى اتجاه أفكاره الفلسفية ، فيقول الأستاذ ماكدونالد : « يظهر أن أبا العلاء قد اتصــل فى وقت ما ، بجماعة مثل إخوان الصفاء إن لم يكونوا أهم أنفسهم[3] » .

يلوح لى أن هذه الجماعة تختلف بعض الاختلاف عن جماعة البصرة ، فى نهج دراستها ، وأهدافها النهائية ؛ لأن كلام أبى حيان التوحيدى لوزير صمصام الدولة يشعرنا أن أبا سليمان المنطقى السجستانى رئيس جماعة بغداد لم يكن على علم برسائل إخوان الصفاء ، وأنه درسها بعد أن قدمها إليه أبو حيان وأصدر حكمه عليها ، وهاك مادار بين أبى حيان ، ووزير صمصام الدولة لتعرف به مدى اتصال هاتين الجماعتين :

« قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل ؟

(١) عروبة : هى يوم الجمعة .
(٢) ذكرى أبى العلاء للدكتور طه حسين ص ١٩٢ الطبعة الأولى .
(٣) Pro. MacDonald London 1903. Muslim Theology 199.

« قلت : قد رأيت جملة منها . وهى مبثوثة من كل فن ، بلا إشباع ، ولا كفاية . وهى خرافات ، وكنايات وتلفيقات ، وتلزيقات ، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقى السجستانى ، وعرضتها عليه ، فنظرفيها أياما وتبحرها طويلا ، ثم ردها على وقال :

« نقبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجروا ، وحاموا وما وردوا ........ ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة ( التى هى علم النجوم والأفلاك ، والمقادير والمجسطى ، وآثار الطبيعة ، والموسيقى ــ الذى هو معرفه النغم والإيقاعات ، والنقرات والأوزان ــ والمنطق ــ الذى هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكاليات والكيفيات ) فى الشريعة ، وأن يربطوا الشريعة بالفلسفة ؛ وهذا مرام دونه جدد ، وقد تورك على هذا قبل هؤلاء قوم ، كانوا أحد أنيابا ، وأحضر أسبابا ، وأعظم أقداراً ، وأرفع أخطارا ، وأوسع قوى ، وأوثق عرى ؛ فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا ماأملوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات موحشة وعواقب مخزية[1] » فتعليق أبى سليمان السجستانى على الرسائل بعد قراءتها يدل على أنه لايوافق إخوان الصفا على نهجهم الذى ارتضوه لأنفسهم ، وهو مزج الفلسفة بالدين ، وتأييد الدين بالفلسفة زاعمين « أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال » .

ولايعنينا هنا أن نبحث عن منهج جماعة بغداد ، وإنما نقرر أن الجماعتين

---

(١) رسائل ج ١ المقدمة ص٢٣.

كانتا متعاصرتين ؛ وأن الصلة بينهما كانت ضعيفة أو معدومة ، وعلى ذلك فظن الأستاذ ماكدونالد الذى سبقت الإشارة إليه ـ وهو أن أبا العلاء ربما كان قد اتصل بجماعة تشبه إخوان الصفاء إن لم يكونوا هم أنفسهم ، يفهم على هذه الصورة التى أوضحناها ، وهى أن جماعة بغداد كانت تشبه جماعة إخوان الصفاء فى أنها سرية ، تشتغل بالفلسفة ، وربما كانت تشتغل بالفلسفة لذاتها ، وليس لها غرض آخر من وراء اشتغالها بالفلسفة كإخوان الصفاء الذين سنعرف فيما بعد شيئا عن أهدافهم . ويؤيد هذا وجود أبى إسحاق الصابى الحرانى من عبدة النجوم (الصابئة) ويحيى بن عدى المسيحى بل رئيس أساقفة الكنيسة اليعقوبية ، ومانى المجوسى ، مع أبى سليمان المنطقى السجستانى المسلم . فما الذى يجمع هؤلاء سوياً ، ويدعوهم إلى تأليف مجمع سرى بعيد عن شغب جمهور العوام إلا الرغبة فى البحث الحر ، ودراسة الفلسفة لذاتها ، ولا سيما وبغداد كانت على عهدهم خاضعة للحنابلة وسيطرتهم ، يضطهدوون كل من تجرأ على الجهر برأى يخالف ، أو يظن أنه يخالف الشريعة الإسلامية ونصوصها الحرفية .

وأما تسمية أبى العلاء لهم بإخوان الصفاء ، فالتسمية كانت شائعة فى ذلك الوقت ، ولعل أبا العلاء ظن أن هؤلاء إخوان الصفاء ، أو سماهم بذلك ؛ لأنهم يشبهون إخوان الصفاء فى تعمقهم الفلسفى ، وإحاطتهم بالعلوم المعروفة فى زمانهم إحاطة تامة ؛ أو لأنه أنس بهم وبصحبتهم ، ووجد فى الاختلاط بهم لذة عقلية حببت إليه مجلسهم ، ووجدوا فيه مفكراً حراً ثائراً على كثير من تقاليد زمانه

وعاداته ، وأفكار العامة ، فأحبوه وبادلوه وداً بود ، وصفاء بصفاء فأسف حين فارقهم وأرسل هذه الأبيات لتحيتهم .

— ٣ —

**هل الرسائل من تأليف المجريطي** ؟ وثمة نقطة غامضة لا بد من جلائها قبل أن ننتهى من الكلام عن تحقيق أسماء إخوان الصفاء ، هذه النقطة الغامضة هى ما أثاره المرحوم أحمد زكى باشا فى مقدمته التى دونت فى الجزء الأول من رسائل إخوان الصفاء المطبوعة بمصر سنة ١٩٢٧ . فإن زكى باشا قال : « وقد رأيت فى كتاب جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين تأليف نعمان خير الدين الشهير بابن الألوسي البغدادى ، المطبوع ببولاق فى سنة ١٢٩٨ هـ ، كلاما على هذه الرسائل منقولا من كشف الظنون ومن شرح عقيدة السفارينى ، وجاء فى هذا الكلام الذى نقله زكى باشا : « وفى فتاوى الشيخ ابن حجر ما نصه : نسبها كثير إلى جعفر الصادق ، وهو باطل ، وإنما الصواب أن مؤلفها مسلمة بن قاسم الأندلسى ، كان جامعاً لعلوم الحكمة من الإلهيات والطبيعيات والهندسة والتنجيم وعلوم الكيمياء وغيرها ، وإليه انتهى علم الحكمة بالأندلس ، وعنه أخذ حكماؤها وتوفى سنة ٣٩٥هـ[١] » .

وذكر زكى باشا كذلك أن المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، قد كتب مقدمة لرسائل إخوان الصفاء المطبوعة بمطبعة الآداب ، وأنه اقتبس فى

---

(١) الرسائل جـ ١ مقدمة ص ٣١

هذه المقدمة عبارة للقفطى صاحب تاريخ الحكماء يفهم منها أن رسائل إخوان الصفاء من تأليف المجريطى .

على أن زكى باشا يذكر بعد هذا : « نعم إن حضرة الشيخ قال فى آخر جملته : وقد علمت أن رسائل إخوان الصفاء التى ألفها المجريطى هى غير هذه ؛ وذلك عقيب قوله : وبعد أن شاع اسم هذه الرسائل بالأندلس ، وتطلعت لها علماء الغرب ، ألف أبو محمد مسلمة المجريطى القرطبى رسائل على مثالها وكتم اسمه فيها . . . الخ ؛ وهو قول نطالبه عليه بالدليل ، ولا نأخذه منه قضية مسلمة ، فإن مثل هذا مما يهم المؤرخين نقله[١] » .

ويقول زكى باشا فى هامش الرسائل تعليقاً على هذا : « وقد سكت الشيخ رحمه الله عن الجواب ، منذ صدور إنكارنا هذا ؛ لأنه لايمكن الجواب عن شىء غير موجود بشىء غير السكوت أو الاعتراف الصريح[٢] » .

ويحاول زكى باشا جهده فى مقال طويل أن ينكر وجود رسائل المجريطى فيقول : واعلم أنى قد راجعت ترجمة الحكيم أبى القاسم مسلمة بن أحمد بن عمر ابن وضاع المجريطى المعروف بالحكيم المجريطى ، فى كثير من الكتب والتواريخ فما رأيت شيئاً يدل على أنه وضع « رسائل إخوان الصفاء » أو كتابا على نمطها فقد ذكره جم غفير من العلماء ، ولم يقل أحد فى سيرته قولا ينطبق على هذا الرأى . وأقوى دليل أورده مكتفياً به عما سواه : أن أبا الحكم الكرمانى هو

(١) رسائل جـ ١ مقدمة صفحة ٣٨ .

(٢) نفس المرجع .

أول من جلب إلى الاندلس الرسائل المعروفة بإخوان الصفاء ، والظاهر أن الذى أوهم بعض القوم أن هذه الرسائل للمجريطى ، هو قوله فى كتابه الذى سماه «رتبة الحكيم» فى علم الكيمياء : ( وقد قدمنا من التأليف فى العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية رسائل استوعبناها فيها استيعابا لم يتقدمنا فيها أحد من أهل عصرنا ألبتة ، وقد شاعت هذه الرسائل فيهم ، وظهرت إليهم فتنافسوا فى النظريات إليها ، وحضوا أهل زمانهم عليها . ولايعلم من ألف ولا أين ألف غير الحذاق منهم ؛ لما دأبوا على مطالعتها ، لاستحسانهم إياها واستعذا بهم لألفاظها وعلموا أنها من تأليف زمانهم وعصرهم الذى هم فيه ، ولايعلمون من ألفها . وكل ذلك من تلك التآليف مبسوط المرسوم ) .

ويقول زكى باشا بعد إجهاد نفس فى البرهنة على نظريته : « وغاية ماأراه فى هذا الشأن أن لهذا الحكيم كتابا آخر أو كتبا متعددة لم يضع اسمه عليها . فلما رأى الناس عبارته فى «رتبة الحكيم» وكانوا يبحثون على مؤلف « رسائل إخوان الصفاء » بغير جدوى ، ظنوا أنهم أدركوا الطلبة ، وأصابوا الغرض ، فنسبوا له هذه الرسائل ، من غير ماتمعن ولاتدبر[١] » .

هذه هى النقطة الغامضة التى أثارها زكى باشا والتى تحتاج منا إلى توضيح فما تقدم ترى أن الآراء ثلاثة :

١ — رأى ابن حجر وهو أنها من تأليف الحكيم المجريطى .

٢ — رأى الشيخ على يوسف وهو أن هناك نوعين من الرسائل : رسائل

---

(١) رسائل ج ١ مقدمة صفحة ٤١ .

إخوان الصفاء التى بين أيدينا ، ورسائل غيرها للحكيم المجريطى .

٣ — رأى زكى باشا وهو ينكر إنكاراً تاماً نسبة الرسائل للمجريطى أو أنه ألف شيئاً على نمطها، ويؤكد أنه لا يوجد إلا هذه الرسائل المعروفة المنسوبة إلى جماعة البصرة .

فأى هذه الآراء أصح ؟ وما الدليل الذى يقدم على صحته ؟

الواقع هو أن هناك نوعين من الرسائل : الأولى لجماعة البصرة ، وهى هذه التى نتكلم عنها، والتى تنسب إلى إخوان الصفاء الذين ذكرنا بعض أسمائهم فى هذا الفصل نقلا عن أبى حيان التوحيدى ؛ والثانية ألفها أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى المتوفى سنة ٣٩٥هـ على نمط رسائل إخوان الصفاء المشهورة ، فى إحدى وخمسين رسالة مثلها ، وجعلها كرسائل إخوان الصفاء على أربعة أقسام : أربع عشرة رسالة فى العلوم الرياضية الفلسفية ، وسبع عشرة رسالة فى الجسمانية الطبيعية وعشر رسائل فى النفسانية العقلية ، وعشر أخرى فى الناموسية الإلـهية .

وهناك نسختان فى دار الكتب المصرية من رسائل الحكيم المجريطى ، نسخة تيمور باشا، وهى على مايظهر أقدم النسختين وأوفاهما ، وإن وقع بها خرم مابين صفحتى ١٠٢ ، ١٠٣ ذهب فيه آخر الرسالة الرابعة عشرة من القسم الأول « العلوم الرياضية الفلسفية » وسبع رسائل من القسم الثانى « العلوم الجسمانية الطبيعية »، وقد أكملته دار الكتب فى النسخة الفوتوغرافية الموجودة تحت رقم ٣٠٠٦ ، وكذلك فى النسخة التى عملت للمجمع العلمى بدمشق .

والنسخة الثانية من هذه الرسائل هى نسخة دار الكتب المصرية الموجودة

تحت رقم ٤١ حكمة ، وهى نسخة خطية غير كاملة ، ومكتوب على الصفحة الأولى منها : « هذا سفر فيه رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، وربما نعتت بالرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة ، للمجريطى » .

فكيف تشابه الاسمان ؟ ، وكيف اتحدا فى عدد الرسائل ، وفى تقسيمها إلى أربعة أقسام ، وفى عدد رسائل كل قسم ؟ ، وهل هناك علاقة بين رسائل إخوان الصفاء للمجريطى ، والرسائل التى بين أيدينا ؟ .

لقد وازنت بين هذه الرسائل وتلك ، فوجدت مشابهة عجيبة فى الأسلوب وفى الفكرة ، وفى المعلومات ، بل هناك عبارات بنصها فى كليهما ؛ ولكن رسائل المجريطى أخصر ، وليس فيها تلك العناية الملحوظة فى رسائل إخوان الصفاء بالعلوم الرياضية ، نعم هناك رسائل فى العلوم الرياضية ولكنها توضح أشياء أخرى تتعلق بأسرار الأعداد ، وفلسفة العدد ، وعلاقته بالله وبالموجودات ثم إن المجريطى يتصرف فى الرسالة بأكلها ، فيقدم فيها ويؤخر ، ويعبر بكلمات من عنده عما ورد فى رسائل إخوان الصفاء المشهورة ، ولقد خرجت بعد الموازنة بالنتيجة الآتية :

وهى أن رسائل المجريطى محاضرات ، وتلخيص ، وشرح ، وتعليق ، على رسائل إخوان الصفاء المشهورة ، أملاها على تلاميذه بالأندلس ، بعد أن درس رسائل إخوان الصفا دراسة جيدة ، وفهمها فهما تاما .

أما علاقة المجريطى بإخوان الصفاء ، فهناك احتمالان : إما أن يكون المجريطى قد اتصل بإخوان الصفاء بالمشرق ، ومعلوم أن الرحلة من الغرب إلى الشرق ،

ومن الشرق إلى الغرب كانت مألوفة فى ذاك الوقت ولاسيما رحلة العلماء ، ثم عاد إلى موطنه بالأندلس يحمل هذه الرسائل ـ وقد كان معاصراً لإخوان الصفاء إذ توفى سنة ٣٩٥ هـ كما تقدم ـ وأخذ يملى على تلاميذه شرحا لها وتعليقاً عليها يوضح ألغازها ، وقد يكون هذا الشرح نفسه من عمل إخوان الصفاء أنفسهم حمله المجريطى معه فيما حمل ، وسماه الرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة ، فقد ورد فى آخر رسائله ما يأتى :

« فصل : ولما انتهى بنا القول إلى هذا المكان ،من شرح الرسائل الإحدى والخمسين رسالة ، فى هذه الرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة ، فلنلحقها بشرح رسالة عشرة إخوان الصفا وخلان الوفا » .

ونستنتج من هذه الكلمة أمرين :

(١) أن كتابه هذا شرح لرسائل إخوان الصفا ، وأيد هذا بقوله : فلنلحقها بشرح رسالة عشرة إخوان الصفاء .

(٢) أنه سمى كتابه الرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة .

أما سبب تسميته كتابه بالرسالة الجامعة ، فهو أن إخوان الصفا قد أشاروا فى كثير من المواضع فى رسائلهم إلى أن هناك رسالة جامعة ، تحل رموز رسائلهم ، وتفسر ماغمض منها ، بل صرحوا فى فهرسهم بهذه الرسالة حيث قالوا : « تم الكلام على الرسائل ، وتليها الرسالة الجامعة لما فى هذه الرسائل المتقدمة كلها ، المشتملة على حقائقها بأسرها . والغرض منها إيضاح حقائق ما أشرنا اليه ، ونبهنا فى هذه الرسائل عليه أشد الإيضاح والبيان ، يأتى على ما

فيها فتتبين حقائقها ومعانيها ، ملخصة مستوفاة ، مهذبة مستقصاة ، ببراهين هندسية يقينية ، ودلائل فلسفية حقيقية ، وبينات علمية ، وحجج عقلية ، وقضايا منطقية ، وشواهد قياسية ، وطرق إقناعية ، لايقف على كنهها ، ولا يحيط بحقائقها ، ولايحصلها ولا شيئاً منها ، إلا من ارتاض بماقدمنا ، وحذق وعرف وتدرب فيها ؛ إذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها والمدخل إليها ، والأدلة عليها ، والأنموذج منها ؛ لاينفتح غلق مفتاحها ، ولاينكشف مستور غامضها إلا لمن تهذب بهذه الرسائل الاثنتين والخمسين أو بما شا كلها من الكتب . والرسالة الجامعة من رسائلنا هى منتهى الغرض لما قدمناه وأقصى المدى ونهاية القصد وغاية المراد[1] »

والرسائل التى بين أيدينا لاتحوى إلا إحدى وخمسين رسالة ، أما الرسالة الجامعة التى أشاروا إليها فغير موجودة فى النسخ التى بين أيدينا .

فالاحتمال الأول : كما ذكرنا ، هو أن المجريطى كان أحد إخوان الصفا، وقد وقف على سر الرسالة الجامعة فأملاها على تلاميذه فى هذا السفر الذى ذكرنا أن منه نسختين بدار الكتب المصرية :

والاحتمال الثانى : وهو أن الرسائل قد وصلت إلى الأندلس بطريقة ما ، وكان المجريطى أحد المشتغلين بالحكمة المشهورين فى العلوم الفلسفية ؛ فقرأها ، وفهمها ، وأغراه ماورد بها من إشارة إلى الرسالة الجامعة ، وأنه لايقف على كنه رسائل إخوان الصفا إلا من ارتاض بما قدموه وحذق وعرف وتدرب

(١) رسائل ج ١ ص ١٩ .

وتمهر فيها ، فأملى هذا الكتاب شرحا وتوضيحا لرسائل إخوان الصفا مدعيا أنه الرسالة الجامعة التى أشاروا إليها فى العبارة التى نقلناها عنهم .

ومما يدل على أنه أملاها تكرار هذه العبارة فى ثنايا كتابه وهى « قال الحكيم » ، والحكيم هو المجريطى فقد اشتهر بهذا ؛ وأما ماورد من أن الكرمانى تلميذه هو أول من أدخل رسائل إخوان الصفاء إلى الأندلس، فيظهر أنه بعد وفاة أستاذه المجريطى عثر فى مكتبته على الرسائل الأصلية لإخوان الصفا التى أملى المجريطى عليها هذا الشرح ، أو أن الكرمانى حملها من المشرق ودفعها إلى المجريطى ، فأذاعها فى الأندلس وعرف الناس بها .

والقارىء لكتاب المجريطى يدرك من أول وهلة أنه يعلق على رسائل إخوان الصفا ويشرح ماغمض فيها ، ويحاول أن يأتى بجديد ليس فى الرسائل الأصلية ؛ وإليك مثلا بعض ما ورد فى آخر كتابه فى تلك الرسالة التى ختم بها الرسائل الإحدى والخمسين، والتى سماها : « عشرة إخوان الصفا وخلان الوفا » ، فهذه الرسالة وردت فى الرسائل الأصلية ضمن القسم الأخير « العلوم الناموسية الإلهية » وهى الرسالة الخامسة والأربعون فى مجموع الرسائل ، ويمكن الاطلاع عليها بسهولة ، ولكن المجريطى أتى فى رسالته بما لايوجد فى رسائل إخوان الصفا ، قال :

« اعلم أن الذى يجب علينا أن نوصيك به ، ونلقيه إليك ، ونبلغك إياه ، ونعتمد فيه عليك من مراعاة إخوانك ، ومن قبلك من أصحابك ، ومن استجاب إليك ، ويستجيب إن شاء الله ، أن تجعل لهم مجلسا يجمع

جماعتهم فى كل اثنى عشر يوما يوما واحداً يجتمعون حيث ما اتفق لهم من مواضعهم ، وأمكنتهم ، بحيث يأمنون فيه على أنفسهم ، ويكون اجتماعهم على تقوى من الله ، ويتطهرون قبل حضورهم . فإذا اجتمعوا بحيث تراهم ، ولا يقعد أحد منهم إلا لعذر يمنعه من القدوم عليك ، والوصول إليك ، فابرز إليهم واخرج عليهم فى زيك ، وجليل هيبتك ، كبروز النفس الكلية للنفوس الجزئية ؛ إذ هم لك كالأولاد ، وأنت لهم كالوالد ... ...» الخ .

ويقول فى آخرها : « فإذا استخلصتهم ورضيت سعيهم ، بعد إيقاعك المحنة بهم ، فى أمور دنياهم ، ومواضع المحبوبات منهم . أما فى المطلوبات إذا أمرتهم بفقد الأقارب فى الله ففعلوا ، وصلة الأباعد فى الله فامتثلوا ، ونفقة الأموال فى سبيله فأنفقوا ، والجهاد بالأنفس فبذلوا ، والسعى فيما يرضى الله فسعوا ، والخروج من الأوطان فى الله فخرجوا ، وفارقوا الأحباب ، وأيتموا الأولاد ، وأرملوا النسوان ، وفارقوا البلاد والأوطان ؛ فعند ذلك إذا صبروا على هذه المحن ، فاهدهم بعلمك ، وطهرهم بماء الحياة ، واقرأ عليهم الكتب المصونة ، والأسرار المخزونة ، والعلوم المكنونة ، بشرح ما فى هذه الرسالة الجامعة ، وما فى غيرها من الكتب التى ألفناها إليك وأودعناها عندك » .

ويقول بعد هذا : « وأوقفهم على الأسرار ، وعلى معانى الأخبار ، والروايات والأمثال والإشارات والعلامات ... » الخ

فتعيين يوم يجتمع فيه الإخوان كل اثنى عشر يوما ، وكيفية الخروج عليهم وامتحانهم بهذه المحن الكثيرة ، كلها أمور لم ترد فى الرسائل الأصلية ؛

وتفصيلات لم يشيروا إليها . وعلى هذا النمط جميع رسائل المجريطى بالنسبة لرسائل إخوان الصفا .

والخلاصة : أن زكى باشا لم يطلع على رسائل المجريطى فأنكر وجودها إنكارا تاما ، والشيخ على يوسف سمع بها ولكن لم يقرأها فحكم أنها غيرها وقال : « وبعد أن شاع اسم هذه الرسائل بالأندلس ، وتطلعت لها علماء الغرب ألّف أبو محمد مسلمة المجريطى القرطبى رسائل على مثالها ، وكتب اسمه فيها .. » الخ

ورأيه مع هذا أصح الآراء الثلاثة ، أما رأى ابن حجر ، وهو أن الرسائل جميعها من تأليف المجريطى فغير صحيح ألبتة لوجود نوعين من الرسائل كما بينا .

وقد ورد فى مجلة Revue de l'histoire de religions تعليقاً للأستاذ M, Basset على مقالة[1] للأستاذ كازانوڤا ، يدعى فيها : أنه عثر على مخطوط فيه الرسالة الجامعة التى أشار إليها إخوان الصفاء بقوله : « يجب أن نلاحظ أن هناك مجموعة أخرى من رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا المعروفة بالرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة للمجريطى القرطبى ، وتوجد فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٣٠٦ والموجود ليس كاملا إذ يحتوى على ست وعشرين رسالة من الأول .

وهناك جزء تحت رقم ٢٣٠٧ . وقد أشار ابن خلدون وابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء ج ٢ ص ٣٩ إلى هذه الرسائل التى ألفها المجريطى .

ويجب قبل البت فى كلام كازانوڤا ، وأنه عثر على الرساله الجامعة لإخوان الصفا

---

(١) هذا المقال منشور بالمجلة الأسيوية عدد يناير وفبراير سنة ١٨٩٨ ص ١٥١ — ص ١٥٩ وسنشير إليه مرة أخرى .

الموازنة بين هذه الفصول التي وجدها ، ورسائل المجريطي» .

— ٤ —

**هل ألفها أحمد بن عبد الله ؟ :** وقد أثار المرحوم زكي باشا كذلك في مقدمته المنشورة في الجزء الأول من الطبعة الأخيرة لرسائل إخوان الصفا ـ مصر ١٩٢٧ ـ موضوعا استرعى نظري وهو : « أن هذا الكتاب قد تم طبعه كله في بلاد الهند ، وقد قيل في آخره : إن المؤلف هو رجل يدعى أحمد بن عبد الله ولا أرى هذا الاسم إلا مرادفا لهي بن بي ، والأغرب من هذا وذاك قوله ، بأن الرجل مترجم في كتاب اسمه « عيون الأخبار» لمن يدعى « إدريس عماد الدين» مع أن هذا الكتاب أثر لاعين ، وليس له مسمى في الوجود . وقد تحققت بأن هذه العبارات إنما هي تلفيق ومحض اختلاق ، وذلك لأنني كابدت مشقة عظيمة في البحث عن أمر هذا الكتاب المزعوم ، وعن شأن ذلك الرجل الموهوم ، وكل مايتعلق به مما هو مدون زوراً وبهتاناً بآخر تلك الطبعة ، ولما لم أعثر على شيء ، وداخلتني الريبة ، واختلفت عندي الظنون ، كاشفت بهذا الأمر أحد العارفين[1] »، وهنا ذكر زكي باشا جواب هذا العارف: بأن السبب في ذكر اسم مؤلف إخوان الصفا هو رغبة أصحاب المطبعة في احتكار طبع الكتاب وبيعه في بلاد الهند .

ولكن الأمر أعمق مما وهم زكي باشا ، ولم يذكر اسم مؤلف إخوان الصفا

(١) ج ١ مقدمة ص ٣٦

بطبعة بومباى إلا لأمر أهم وأعظم من احتكار الطبع ؛ وتحقيق هذه المسألة : أن الشيعة بعامة ، والإسماعيلية منهم بخاصة يعتقدون أن رسائل إخوان الصفاء من الكتب ذات الأثر العظيم فى مذهبهم ـ وسنتكلم عن هذا بتوسع فيما بعد ـ ولهذا نسبوها إلى أحد الأئمة من آل البيت ، وقد ذكرنا آنفاً أن ابن حجر قال « ينسبها كثير إلى جعفر الصادق »، ونجد الآن أن طبعة الهند التى يشير إليها زكى باشا تنسبها إلى أحمد بن عبد الله » .

فمن أحمد بن عبد الله هذا ؟ . وهل هو اسم منتحل أو حقيق ؟ . وهل هو مؤلف رسائل إخوان الصفا ؟ .

لقد رد على زكى باشا عبد المحيى الحويزى العربى [١] فى رسالة تسمى « العسل المصفى فى تحقيق اسم مصنف رسائل إخوان الصفا »، وذكر أن أحمد بن عبد الله من عقب جعفر الصادق ، وأنه وجد فى كتاب عيون الأخبار لإدريس عماد الدين الذى أنكر زكى باشا وجوده ترجمة أحمد بن عبد الله ، وأن إدريس عماد الدين

(١) عثرت على هذه الرسالة فى مكتبة صديق العلامة السيد محب الدين الخطيب ، ووجدته قد علق عليها وعلى اسم مؤلفها بقوله : هذا الرجل من أتباع محمد على اللاهورى تلميذ غلام أحمد القاديانى وكل مزيته فى هذه الرسالة اطلاعه على كتاب عيون الأخبار فى مكتبة طاهر سيف الدين سلطان البهرة فى الهند . أما وصفه لطاهر سيف الدين بأنه العالم الربانى فيدل على عدم مبالاته بما تفترق به البهرة الإسماعيلية عن قافلة المحمديين ، وكنا نود لو أنه زاد فى هذه الرسالة شيئاً من المعلومات عن أحمد بن عبد الله لجلاء شخصيته التاريخية إن كان فى عيون الأخبار شىء من هذا . وهذه الرسالة لاتتجاوز تسع عشرة صفحة صغيرة ، وليس فيها شىء من التحقيق إلا النقل عن عيون الأخبار .

قد ألف كتباً كثيرة وكل كتبه خطية ، ومنها كتاب عيون الأخبار فى سبعة مجلدات خطية صنفها جميعها فى القرن التاسع مابين سنة اثنتين وثلاثين وبين سنة اثنتين وسبعين بعد ثمانمائة من الهجرة ، وأنه نقل من الجزء الرابع منه العبارة الآتية : « ولما خشى السيد أحمد بن عبد الله أن يزيغ المسلمون عن الشريعة المحمدية إلى علوم الفلاسفة ، ألف رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، وجمع فيها من العلوم والحكمة والمعارف الإلهية والفلسفية والشرعية » ويذكر أن صاحب كتاب قلائد الجواهر المصنف بالفارسية ، قال فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه: «إن العلامة الفهامة أحمد بن عبد الله هو مصنف ثلاث وخمسين رسالة موسومة بإخوان الصفا ، وخلان الوفا » . ويظهر لى من التحقيق الذى قمت به أن الشيعة الإسماعيلية مجمعون على أن رسائل إخوان الصفا من تأليف أحد الأئمة من آل البيت ، وأن هذا الإمام هو أحمد بن عبد الله .

وقد وجدت فى الكتاب الذى ألفه أغاخان زعيم طائفة الإسماعيلية وعنوانه « نور مبين حبل الله المتين[1] » أن سبب تأليف رسائل إخوان الصفا أن عامة المسلمين توجهوا إلى الأمام «وفى أحمد» ـ وكان باب العلم ـ ليعرفهم الفرق بين الدين والفلسفة فاستجاب لهم ،وألف رسائل إخوان الصفا فى اثنتين وخمسين رسالة وأخفى اسمه لأسباب سياسية ونشره باسم «همايون» وحروفها بالجمل تساوى «وفى أحمد»

---

(١) وجدت هذا الكتاب كذلك فى مكتبة صديقى السيد محب الدين الخطيب وهو باللغة الأردية فى ستمائة وستين صفحة من القطع الكبير ، محلى بالصور الكثيرة لأغاخان وأسرته ، وشجرة نسبه . والأماكن المقدسة لديهم

ولما اطلع المأمون على هذه الرسائل ذهل ، وأيقن أن مؤلفها ليس من العلماء المغمورين ، بل لابد أن يكون أحد الأئمة ، ورأى أنه فى حاجة إليه لإصلاح أمور الدولة وشئونها ، فجد فى البحث عنه .

ثم جاء أحد دعاة « وفى أحمد » ويدعى أباترمذى ، وقابل الخليفة ، وأظهر المأمون أثناء محادثته معه أنه من المعتقدين المخلصين فى الإمام ، وطلب من أبى ترمذى أن يدله على مكانه فأبى، فقتله المأمون .

ولما بلغ الإمام الخبر وهو ببلدة «سلمية» خشى على نفسه ، فقام بسياحة كبيرة زار فيها الكوفة ثم بلاد الديلم ، ثم رجع إلى «سلمية» ماراً بعسكر مكرم، وبعد أن أقام مدة بسلمية قصد بلدة محمود أباد ، ومات هناك فى سنة ٢١٢ هـ . وتولى الإمارة بعده ابنه «تقى محمد»، واسمه الحقيق أحمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، و« تقى محمد » لقب له ، وإليه تنسب رسائل إخوان الصفا[١] ، لأنه هو الذى أذاعها بعد وفاة أبيه .

ومما تقدم تبين أن زعيم الإسماعيلية يعتقد ، وأتباعه كذلك يعتقدون تبعاً له ، أن رسائل إخوان الصفا من تأليف أحمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق

وقد ذكر الدكتور حسين الهمدانى فى مقال له بعنوان « الدعوة الإسماعيلية وآدابها[٢] » أن آداب الدعوة محفوظة فى خزائن اليمن والهند ، وأن

(١) ص ١٤٦ من الكتاب المذكور فى الصفحة السابقة .

(٢) مجلة المعرفة السنة الأولى نوفمبر سنة ١٩٣١ ص٧٩٧ والدكتور حسين الهمدانى يمنى الأصل متخرج فى جامعة لندن وهو من متعصبي إسماعيلية البهرة ودعاتهم وسنعرض لبعض آرائه عند الكلام على علاقة إخوان الصفا بالإسماعيلية .

تاريخ الدعوة الإسماعيلية باليمن موجود فى مؤلفات الداعى إدريس عماد الدين القرشى المتوفى فى القرن التاسع الهجرى .

ثم قال : « وفرقة الإسماعيلية يعتقدون فى إمامة اسماعيل بن جعفر وابنه محمد ابن اسماعيل ، وأولاده الثلاثة : عبد الله بن محمد ، وأحمد بن عبد الله ، والحسين ابن أحمد ، وهؤلاء الثلاثة هم من الأئمة المستورين » ويستشهد فى مقاله بعبارات من كتاب عيون الأخبار للداعى إدريس عماد الدين ، ويذكر أنه سبعة أجزاء

من كل هذا يتضح لنا :

١ — أن أحمد بن عبد الله هو من نسل جعفر الصادق .

٢ — وأن الإسماعيلية يعتقدون أنه مؤلف رسائل إخوان الصفا .

٣ — وأن وجود اسمه على طبعة بومباى ، إنما جاء بناء على هذا الاعتقاد لا لسبب آخر كما ذكر زكى باشا .

٤ — وأن كتاب «عيون الأخبار» لإدريس عماد الدين موجود بالهند واليمن وهو فى الهند فى مكتبة طاهر سيف الدين سلطان البهرة وزعيم اسماعيلية البهرة[١] .

ولسنا ندرى على وجه التحقيق مدى علاقة أحمد بن عبد الله بمؤلفى إخوان الصفاء ، وربما كان واحداً منهم ؛ لأنه حسب ماذكر التاريخ عاش فى أخريات

---

(١) هم غير اسماعيلية أغاخان

القرن الثالث ، ولكن مما لاجدال فيه أن رسائل إخوان الصفاء ، ليست من تأليف شخص واحد بل من تأليف جماعة متعددة ، تتباين معارفهم ، وأساليبهم ، وهذا واضح جداً فى رسائلهم ، وربما كان منهم بعض آل البيت ؛ فقد ظهر ما نم عنهم فى كثير من الرسائل ، وعلى كل ، فستعلم فيما بعد علاقة إخوان الصفاء بالشيعة بعامة ، والباطنية منهم بخاصة .

---

# الفصل الرابع

## زمانهم ومكانهم

— ١ —

زمانهم : مر بنا أن الخلافة العباسية قد أصيبت بضربة قاضية ، لم تترك فيها إلا ذماء يسيراً ، على يد أحمد بن بويه الملقب بمعز الدولة فى سنة ٣٣٤ هـ ، إبان خلافة المستكفى بالله . وعرفنا أن آل بويه كانوا من الشيعة ، وأن أحمد هذا همّ بإزالة الخلافة العباسية من أساسها ، لولا أن نصحه بعض المخاصين له .

كان استيلاء آل بويه على ملك بغداد فوزا للشيعة ، وتشجيعا لهم على الظهور ، والعمل على توطيد دعوتهم ونشرها فى مختلف الأمصار . نعم قد ظهر القرامطة فى البصرة من قبل ، ولكن ثورتهم وجموحهم ، وما صاحب أعمالهم من شذوذ وجرائم أغضبت عامة المسلمين ، جعلت كثيراً من الشيعة المعتدلين ينفرون من اسمهم ، وقد مر بنا كتابُ المهدى عُبيد الله العلوى إلى أبى طاهر زعيم القرامطة ، ينكر عليه أعماله ويقول له : « لقد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد » ، ومر بنا كذلك أن القرامطة قد هاجموا مصر فى عهد

المعز لدين الله الفاطمى ؛ ولذلك لم يكن أصحاب الدعوة السرية راضين عنهم كل الرضا .

ولم نسمع بإخوان الصفاء ، ورسائلهم قبل سنة ٣٣٤ ﻫ ، ويظهر أنهم تشجعوا بمجىء آل بويه وأظهروا من أمرهم ما كان خافيا ، وأنهم كانوا موجودين قبل هذا ولكنهم لم يتجرءوا على إظهار رسائلهم قبل هذا التاريخ .

وقد مر بنا كذلك حديث أبى حيان مع وزير صمصام الدولة بن بويه ، وأنه حمل عدة من الرسائل إلى شيخه أبى سليمان المنطقى ، وأن هذا كان فى حدود سنة ٣٧٣ ، أى الوقت الذى تولى فيه صمصام الدولة ملك العراق .

مما تقدم نرجح أن الرسائل ألفت بين سنتى ٣٣٤ ﻫ ، و٣٧٣ ﻫ تقريبا ، أما الأستاذ « كازانوفا » فى المجلة الأسيوية فيسلك سبيلا عجيباً فى تحديد تاريخ إخوان الصفاء حين يعلق على مقال للأستاذ « ماسينيون » فى هذا الموضوع[1] فيقول :

« إنى أجد فى النسخة التى بين يدى المطبوعة فى بومباى ١٣٠٥ـ١٣٠٦ﻫ مايطابق النسخة الخطية الموجودة بمكتبتنا ، وإنى سأحاول أن أعين التاريخ بناء

---

(١) مقال ماسينيون هو : Sur la date de la Composition de Rasil Ikwan-al-Safe وقد ذكر ديبور هذا المقال فى دائرة المعارف الإسلامية ضمن المراجع التى لم يذكرها بروكلمان ، وهو موجود بمجلة Der Islam العدد الثانى عشر . أما مقال كازانوفا، فهو منشور فى المجلة الأسيوية عدد يناير سنة ١٩١٥ وعنوانه Une date Astoronomique dans les Epître des Ikhwan Assafâ

على إشارة فلكية عجيبة ، يمكن تفسيرها بثقة واطمئنان . فقد جاء فى الجزء الرابع من الطبعة المذكورة ص ١٩٤ : « إن من خواص إخواننا الفضلاء أنهم العلماء بأمور الديانات ، العارفون بأسرار النبوات ، المتأدبون بالرياضيات الفلسفية ، وإذا لقيت أحدا منهم ، وآنست منه رشداً ، فبشره بما يسره ، وذكره باستئناف دور الكشف والانتباه ، وانجلاء الغمة عن العباد بانتقال القران من برج مثلثات النيران ، إلى برج مثلثات النبات والحيوان ، فى الدور العاشر الموافق لبيت السلطان ، وظهور الأعلام [١] » .

ويقول كازانوفا : « إن إخوان الصفاء قد علموا أن ثمة ظاهرة فلكية ستظهر فى السماء وتكون ملاءمة لهم . وكتابة الرسائل يجب أن تكون فى هذا التاريخ » .

ثم يحاول أن يفك هذا الطلسم ، ويحل اللغز ، وينتهى بقوله :« إن التاريخ المشار اليه هو ١٩ من نوفبر ١٠٤٧ أو ٢٦ من جمادى الأولى ٤٣٩ هـ » .

ثم يقول فى ص ١٥ : « وهذا التاريخ هو انتصار منتظر للفاطميين ، الذين ينتمى إليهم إخوان الصفاء ولا ريب . ففى ١٣ من ذى القعدة ٤٥٠ هـ الموافق أول يناير ١٠٥٩ أى بعد أحد عشر عاما وأربعة عشر يوما ، بعد هذا التنبؤ ، دعى للخليفة الفاطمى المنتصر ببغداد [٢] » .

---

(١) فى طبعة مصر سنة ١٩٢٨ ، وردت هذه الفقرة فى ص١٩٨ الجزء الرابع .

(٢) Cl Huart Histaire des Arabs. I. p 354
وتاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية للمرحوم الخضرى بك ص ٤١٧ ، ٤٢٣ . =

« حقاً أن هذا الانتصار لم يستمر إلا أمداً يسيرا ، وأعقبه عصر انحطاط وخمول ، ولـكن الفرقة المذكورة كان لها عزاء فى ظفر آخر مرتقب » .

« ومن هذا يظهر أن تاريخ كتابة الرسائل لاشك قد وقع قبل هذا التاريخ » .

ويقول الأستاذ كازانوفا بعد هذا : « ألا يمكن أن نعين التاريخ تعيينا أدق من ذلك ؟ . نعم ، ولا شك ! فإذا نظرنا إلى فقرة أخرى من الرسائل ، وعلمنا أن الشيعة اختلفوا فيما بينهم حول المهدى ، أو الإمام المنتظر . فمنهم من قال إنه مختف ، ولن يظهر إلا فى آخر الزمان ، وهذه هى فرقة الاثنى عشرية ، التى تقول بأن الإمام الثانى عشر اختفى ولن يرجع إلا فى آخر الزمان ، وهو لم يمت بل ينتظر نهاية العالم ؛ حتى يظهر فى صورة المهدى » .

« وقد ترك الفاطميون حين ملـكوا مصر فـكرة الإمام المختفى ، ودعوا للإمام الحاكم فى الخطبة ، والذى تضرب باسمه النقود ، أو الإمام الظاهر الحاكم

وهذه الفقرة من إخوان الصفا تثبت صلتهم بالفاطميين ، أو أنهم على آرائهم ، ولا سيما فى الإمامة : « ومن الشيعة من يقول إن الإمام المنتظر مختف من خوف المخالفين ، كلا بل هو ظاهر بين ظهرانيهم ، يعرفهم ، وهم له منكرون » .

---

= ويشير إلى محاولة البساسيرى ، « وهو غلام ذكى من مماليك بهاء الدولة » إزالة الخلافة العباسية عند ضعف آل بويه ، واستعانة الخليفة بالسلطان طغرل بك السلجوقى ، ودخول طغرل بك بغداد فى سنة ٤٤٨ هـ ، ثم تمكن البساسيرى بمعاونة جند مصر من دخول بغداد فى ٤٥٠ هـ ، وخطبته فى مسجد المنصور لصاحب مصر ، وأذانه بحي على خير العمل ، واستمر فيها سنة كاملة ، إذ خرج منها على يد السلجوقيين فى ٦ من ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ .

ج ٤ ، ص ١٩٦ طبعة بومباى [١] » .

ويقول كازانوفا : « أو ليس فى كلمة ( ظاهر ) هنا تلاعب باللفظ ، وإشارة خفية دقيقة للخليفة الفاطمى ـ الظاهر لإعزاز دين الله ـ الذى حكم بين ٤١١ـ ٤٢٧هـ بعد الحاكم بأمر الله » .

« وبذلك تكون كتابة الرسائل وقعت بين ٤١٨ـ٤٢٧هـ » .

وهذه لعمرى طريقة عجيبة فى تحقيق الحوادث التاريخية ، فلا بدع إذا أدت إلى نتيجة أعجب ، ظاهر بطلانها ؛ لأسباب واضحة منها :

١ ـــ أن ماذكره إخوان الصفا لايوجب أن تكون رسائلهم قد اختير لها هذا الوقت الملائم الذى أشاروا إليه ؛ لأن التنبؤ بالمستقبل قد يكون لسنين عديدة ، وقد يصدق ، وكثيراً ما يكذب . ثم إن العبارة التى يذكرون فيها الإمام المنتظر بأنه ظاهر ، ليس فيها مايشير أبدا إلى الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ، وهو توهم محض من الأستاذ كازانوفا .

٢ ـــ تبين من كلام أبى حيان التوحيدى الذى تقدمت الإشارة إليه ، أن الرسائل كانت مؤلفة فى ذلك الوقت ، لأنه قرر أنه حمل طائفة منها إلى شيخه أبى سليمان المنطقى ، وقد علمنا أن حكم صمصام الدولة انتهى فى سنة ٣٧٦ هـ وأن أبا حيان قد توفى فى سنة ٣٨٠هـ . على قول .

٣ ـــ مر بنا أن المجريطى قد لخص الرسائل وشرحها ، وأنه قد توفى فى

---

(١) فى الطبعة التى بين أيدينا سنة ١٩٢٨ جاءت هذه الفقرة فى ص ١٩٩ج ٤ ، ووردت فيها كلمة المخالفين بدل المخلفين .

سنة ٣٩٥هـ بالأندلس . فلا شك أن الرسائل كانت معروفة له من قبل .

لذا أعتقد أن الأستاذ « كازانوفا » لم يكن موفقا فى الطريقة التى لجأ إليها ، ولا فى الحكم الذى وصل إليه ، وأن تاريخ كتابة الرسائل ، وظهور إخوان الصفاء كان بحسب ماقررناه آنفا بين سنتى ٣٣٤هـ ـ ٣٧٣ هـ ، ويؤيدنا فى هذا «ديبور» فى دائرة المعارف الإسلامية وإن لم يعلل ؛ لأن المعروف فى التاريخ أن إخوان الصفا ظهروا فى منتصف القرن الرابع الهجرى دون تحديد السنة .

— ٢ —

**مظاهرهم** : هذا ما كان من تحقيق زمانهم ، والوقت الذى ظهروا فيه ، وما دار حوله من جدل ؛ أما مكانهم فلا خلاف فى أنهم ظهروا بالبصرة ، واتخذوا مركزهم الرئيسى بها ، ولا يوجد بالرسائل نص واحد يدل على ذلك ، بيد أن القفطى قال : « وقد أقام زيد بن رفاعة بالبصرة زمانا طويلا ، وصادق بها جماعة لأصناف العلم . . . الخ » ، وقد تقدم أن زيد بن رفاعة كان أحد إخوان الصفا .

ولا غرابة فى أن تكون البصرة مباءة هذه الجماعة ، وهى منذ أسست فى عهد عمر بن الخطاب عاصمة الإسلام فى العلم ، ومحط كثير من رجال الفرق الدينية الكثيرة التى حادت عن جادة الدين؛ أو حاولت تحميل العقيدة الإسلامية ماتأباه أو تضيق به ، ففيها ظهر المرجئة والقدرية ، وفيها نشأ الحسن البصرى ، وواصل بن عطاء زعيم المعتزلة ، وفيها ظهر النظام الذى خلط الدين بالفلسفة وخاض فى الجزء الذى لايتجزأ ، وفى الطفرة والتوالد والجوهر والعرض ،

وغير ذلك من المسائل التى تبعد عن نهج الدين الفطرى .

وفيها قام عبد الله بن ميمون بن ديصان بفتنة القرامطة ، التى أزعجت المسلمين ، وهاجمت الحجيج ، وغلت فى التشيع ، وهم أصل مذهب الإسماعيلية. وفى البصرة قام أبو الحسن الأشعرى يتنصل من الاعتزال ، ويفند أقوال أئمته ، ويجادل وينافح عن عقيدة أهل السنة .

وكان بالبصرة حلقات للعلم من كل فن وصنف ، وفى مربدها ينشد الشعراء قصائدهم ، وفيها ظهر النحاة والأدباء وأئمة اللغة .

فما تقدم نرى أن البصرة كانت مركز الفكر الإسلامى ، ولقد كانت كذلك لأنها أدنى مدينة عربية إلى الأهواز ففارس ، وتقع على باب الصحراء التى يفر إليها ، ويتخذها حمًى له كل خارج مخالف للخليفة ؛ فقد كانت البصرة بحكم موقعها الجغرافى ملتقى رجال الشرق الوثنى من فرس وهنود وديلم ـ برجال الإسلام، فيها التقت المانوية، والزرادشتية ، والبرهمية ، والصابئة، والدهرية ، وغيرها من تلك الديانات القديمة التى جاء الإسلام بغزوها فى ديارها بالدين الفطرى السهل .

وقد أثار علماء هذه الديانات ومنهم من دخل الإسلام ، موضوعات للجدل لم يكن يعرفها المسلمون الأوائل ، ألبسوا هذه المسائل لباس الإسلام ، فاضطر علماء المسلمين ، وعلى رأسهم المعتزلة ، إلى دراسة هذه الديانات والإحاطة بتعاليمها حتى يتسنى لهم الرد على ما أثاروه من جدل واعتراضات فى وجه الإسلام .

هذا وقد كانت بعض هذه الديانات ، كاليهودية والنصرانية ، قد تسلحت

بالفلسفة اليونانية ، والمنطق ، فلجأ المعتزلة إلى نفس السلاح ، حتى لا يهنوا أمام خصومهم فدرسوا الفلسفة ، وصارت البلاد الإسلامية ساحة تعرض فيها كل الآراء وكل الديانات ، ويتجادل فيها أقوام من شتى الملل والأجناس .

وقد كانت البصرة مأوى كل من يكيد للإسلام ، والخلافة ، لقربها من منبت الفكر ؛ فلم ينس الفرس والديلم وغيرهم من الأمم ، التى دخلت فى الإسلام ما كان لهم من حضارة ، ومُلك وديانات، فتآمروا على الإسلام فى أشكال مختلفة ، ووجدوا الأنصار قريبا منهم فى الأهواز وفارس . وإذا طاردهم الخليفة ورجاله ركبوا الصحراء العربية ، أو البحر حتى تتاح لهم فرصة أخرى .

فى هذه البيئة العلمية التى تتطاحن فيها الأفكار ، وتغص بالعلماء والأدباء والشعراء والمتكلمين ، وأهل الديانات المختلفة ، وفى هذا الموقع الجغرافى الممتاز، وهذا البلد الذى يسهل على أهله حرية الرأى والجدل ظهر إخوان الصفاء .

كانت البصرة المركز الرئيسى لإخوان الصفا ، ومنها انتشر دعاتهم فى مختلف الأمصار والبلدان وأوجدوا لهم أنصارا فى مواطن عدة يبشرون بمذهبهم بطرق سرية منظمة ، وفى هذا يقولون : « إن لنا إخوانا ، وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين فى البلاد »

أما إخوان الصفا ببغداد الذين ذكر المؤرخون أن أبا العلاء قد اتصل بهم فقد ذكرنا آنفاً مدى صلتهم بجماعة البصرة ، وتأثرهم بآرائهم .

# الفَصلُ الخَامِسُ

## نظام جماعتهم

### — ١ —

**طبقاتهم** : كانت جماعة إخوان الصفاء متكونة من أربع طبقات : أولاها شبان تتراوح أعمارهم من خمس عشرة سنة إلى ثلاثين سنة عرفوا بصفاء جوهر نفوسهم ، وجودة القبول وسرعة التصور ، وهم الذين يدعون فى الرسائل بالإخوان الأبرار الرحماء . ويظهر أن الرسائل قد ألفت لهؤلاء ؛ لأن الخطاب فيها موجه دائما إلى الأخ البار الرحيم .

أما الطبقة الثانية : فرجال بين الثلاثين والأربعين ، يتلقون الحكمة ، وهى مرتبة الرؤساء ذوى السياسات ، ويظهر أن مهمة هذه الطبقة مراعاة الإخوان وتعهدهم ، وإظهار العطف عليهم ومساعدتهم ، وهم الذين يسمون فى الرسائل بالإخوان الأخيار الفضلاء .

والطبقة الثالثة : أفراد بين الأربعين والخمسين من العمر ، وهم يعرفون الناموس الإلهي معرفة مطابقة لدرجتهم ، كما أنهم أصحاب الأمر والنهى ، ونصر الدعوة ، والقيام بدفع المعاندين ومن يظهرون الخلاف لفكرتهم ودعوتهم بالرفق واللطف والمداراة . وهم الذين يسمون فى الرسائل بالإخوان الفضلاء الكرام . وهم الذين ألفوا الرسائل وعملوا على نشرها .

والطبقة الرابعة : وهى مرتبة من يزيد على الخمسين سنة ، وهى أعلى المراتب فى نظرهم ، ومن يصل إليها يكون فوق الطبيعة والناموس ، ويكون ذا كشف يستطيع به أن يشاهد «أحوال القيامة من البعث والنشور والحساب والميزان»(١)

ويجدر بنا أن نتساءل : هل ابتدع الإخوان هذا النظام حين وجدوا حاجتهم ماسة إليه .؟ أو أنهم تأثروا فيه بفكرة فلسفية ، أو اقتبسوه من نظام آخر . ؟ قد يخيل إلينا أنه نظام طبيعى يتمشى مع الدعوة السرية ، فالذين يتقبلون الدعوة يختارون من الذين عرفوا بالذكاء ، وسرعة التصور والإدراك لمغزى الدعوة ؛ ويشرف عليهم ، ويعنى بهم جماعة أقدم منهم فى نظام الجماعة ، عرفوا بالنشاط والشفقة، يحببونهم فى الدعوة ويسخون عليهم حتى تتمكن من قلوبهم — ويكونون صلة بينهم وبين رؤسائهم وذوى الأمر والنهى فيهم ، ومن عندهم خبر بأسرار الدعوة وغايتها . والطبقة الأخيرة طبقه الأئمة المستورين ، الذين يدعى باسمهم وقد أحيطوا بهالة من القداسة والكتمان ؛ لأن ذلك أدعى إلى التعظيم والإكبار، أو أنها الطبقة التى يطمح للوصول إليها إخوان الصفاء .

وقد يخيل إلينا من جهة أخرى أن إخوان الصفا قد تأثروا فى نظامهم هذا بالأفلاطونية الحديثة — وستعلم حين الكلام عن فلسفتهم — أنهم من هذه المدرسة الفلسفية وأن آراءهم صدى للأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية الحديثة .

فمن آراء أفلوطين المشهورة: أن غاية الحياة التحرر من ربقة المادة ، وأول

---

(١) الرسائل ج ٤ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

خطوة لذلك التحرر من سلطة الجسم والحواس بالعبادة والتقشف والزهد، وعن هذا تنشأ الفضائل المألوفة ، والخطوة الثانية الفكر والتفلسف ، والخطوة الثالثة أن تسمو النفس فوق التفكير، وتصل إلى اللقانة والعلم اللدنى. وكل هذه الخطوات إعداد للدرجة الأخيرة وهى أن يفنى الإنسان فى الله وذلك بالهيام والذهول ، والغيبوبة والوجد ، عند ذلك تتحد النفس بالله ، وتصل النفس البشرية الراقية إلى هذه الدرجة فى لحظات من الحياة ، ثم تعود إلى حالتها البشرية ، وقد ذكر أفلوطين أنه سما إلى هذه الدرجة وذاق لذة الاتحاد ، وأدرك ساعات التجلى، بضع مرات فى حياته، يقال انها أربع[1].

فإذا وازنا بين رأى أفلوطين هذا وبين طبقات إخوان الصفاء وجدنا مشابهة بينة ، فرتبة الإخوان الأبرار الرحماء تشبه مرتبة التصوف والعبادة ، وتربية الفضائل المعتادة ؛ ومرتبة الإخوان الأخيار الفضلاء ، تشبه مرتبة التفكير والتفلسف عند أفلوطين ؛ ومرتبة الإخوان الفضلاء الكرام الذين يعرفون الناموس الإلهى ، تقابل مرتبة اللقانة ؛ والمرتبة الأخيرة عند إخوان الصفا، الذى يكون فيها المرء فوق الطبيعة والشريعة والناموس ، ويكون ذا كشف يستطيع به أن يشاهد أحوال القيامة ... الخ ، تقابل مرتبة الاتحاد مع الله عند أفلوطين ـ مرتبة التجلى والكشف والسمو فوق الطبيعة البشرية .

وقد يخيل إلينا من جهة ثالثة أن هذه الطبقات الأربع التى أطلق عليها

---

(١) Dresser : History of Ancient and Medieval Philosophy
من فصل عن الأفلاطونية الحديثة .

ما كدونالد[١] : طبقة المريدين ، ثم المعلمين ، ثم القادة ، ثم المقربين من الله تتمشى مع النظام العام لطبقات الشيعة الباطنية وأنظمتهم، حيث تبتدئ الدعوة بسؤال المدعو عن بعض المسائل الدينية والشرعية والمشكلات الغامضة ، ويلقن أن الدين أمر مكتوم يجهله السواد والكافة ، وأن أصل الشر هو انصراف الناس عن الأئمة الصادقين ، ثم يندرج هذا المدعو فى مراتب تسع ، يصل فى نهايتها إلى حظيرة الأسرار الأخيرة ، ومابعد الطبيعة[٢] ، التى تشبه الطبقة الرابعة عند إخوان الصفا ، وقد يكون هذا التقسيم الذى اقتبسه الفاطميون ، مأخوذاً عن إخوان الصفا ؛ وستعلم فيما بعد ـ إن شاء الله ـ مدى مابين إخوان الصفاء والفاطميين من صلات .

وأغلب الظن أنهم تأثروا فى نظام جماعتهم هذا بآراء الأفلاطونية الحديثة ووجدوه فى الوقت نفسه نظاما ملائما لطبيعة الدعوة السرية ، وإحاطة الأئمة بالكتمان ، وتحميس الأتباع للوصول إلى درجة أعلى من درجتهم دائما ليزدادوا فناء فى الدعوة .

— ٢ —

**كيف يقبل المرشح لعضوية هذه الجماعة ؟** : تجيبنا الرسائل : « بأنه ينبغى لإخواننا ـ أيدهم الله ـ حيث كانوا فى البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ

---

(١) Muslim Theology p 168

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٧ـ٢٣٣ عند الكلام على نظام الدعوة الفاطمية وهى هناك مفصلة فليرجع إليها من شاء .

صديقا مجدداً ، أو أخا مستأنفاً أن يعتبر أحواله ، ويتعرف أخباره ، ويجرب أخلاقه ، ويسأله عن مذهبه واعتقاده ؛ ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا ؟ لأن فى الناس أقواما طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ، ومذاهبهم مختلفة حائرة[1] » .

ومعلوم أن الغرض من هذه الأسئلة معرفة مدى استعداد هذا المدعو وسرعة تصوره وإدراكه لمغزاها ومرماها ، وهل يصلح أن يكون من حملتها أو لا ؟

وكانوا يتحرون عن الشخص ، الذى يراد ضمه إليهم ، كل التحرى ، ويحذرون إخوانهم من الاغترار بالظواهر: « واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق ، ويدلس عليك بشبه الموافق ، ويظهر لك المحبة ، وخلافها فى صدره » ، « واعلم يا أخى أن من الناس من لا يصلح للصداقة والأخوة والمقاربة أصلا ، فانظر من تصحب وتعاشر ، ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها واعتبر أحواله ، واختبر أخلاقه ، وسله عن مذهبه واعتقاده ، وانظر فى عادته وسجيته ، وشمائله وحركاته ، فإنه لا يخفى على المتفرس بواطنُ الأمور إذا نظر إلى ظواهرها[2] » ، « بل ينبغى أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس ، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج ؛ وشرى المماليك ، والأمتعة التى يشترونها » .

« واعلم أن الخَطْب فى اتخاذ الإخوان أجل وأعظم خطراً من هذه كلها ؛

---

(١) الرسائل ج ٤ ص ١٠٧

(٢) الرسائل ج ٤ ص ١٠٩ .

لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعاً ، وهم أعز من الكبريت الأحمر ، وإذا وجدت منهم واحداً فتمسك به ، فإنه قرة العين، ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة »

« وابذل له نفسك ومالك ، وافرش له جناحك ، وأودعه سرك ،وشاوره فى أمرك ، وإن هفا هفوة فاغفر له[١] ».

ولا يريدون أن يدخل فى دعوتهم المعجب الصلف ، أو الفظ الغليظ ، أو الماحك المارى ؛ أو الحسود الحقود ، أو المنافق المرائى ، أو البخيل الشحيح أو الجبان المهين ؛ لأن كل هذه صفات تنفر منه إذا كان داعيــة ، وتدعو إلى الشك فيه إن كان مدعوا ، وتدل على أنه ممن لن يتقبلوا الدعوة بسهولة ، أو يضحوا فى سبيلها ، أو يعتقدوها من قرارة نفوسهم ؛ ولهـــذا حذروا منه الإخوان .

وكانوا يحثون الإخوان على أن يعاون الغنى منهم الفقير ، والمتعلم الجاهل ويؤثرون أصدقاءهم على أنفسهم وأولادهم وأزواجهم: «فينبغى إذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقاربك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم ، فإنه خير لك من ولدك الذى من ظهرك ، وأخيك من صلب أبيك ، ومن زوجك التى جعلت كل كسبك لها ، وجميع سعيك من أجلهـا ، فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم ، بل ينبغى أن تؤثره عليهم كلهم ؛ لأنهم يحبونك من

---

(١) الرسائل ج ٤ص ١٠٩ .

أجل منفعة تصل منك [١] » .

« ٣ »

غايتهم : فإذا اختبر العضو الذى تقدمت صفاته ، ووثقوا به ، قرءوا عليه خطبة فيها دعوتهم وغايتهم .

« وينبغى لإخواننا إذا حضروا المجلس ومعهم أخ مستجيب مستحدث أن يقرأ عليهم هذه الخطبة :

« اعلموا أيها الإخوان أيدكم الله وإيانا بروح منه ، وهداكم للحق ، وجعلكم من أتباعه ، وسهل لكم سبيل الخير ، وأرشدكم إلى معرفة أهله ، وعصمكم من الشر وجنبكم صحبة أهله ، وحرسكم من غرور الشيطان، ووقاكم جور السلطان ، ونكبات الزمان ، ونوائب الحدثان ، ووفقكم لقبول نصيحة الإخوان إنه ودود منان .

واعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدى ، ولها غاية إليها ترتقى ، وحدإليه تنتهى ، وإذا بلغت إلى أقصى مدى غاياتها ، ومنتهى نهاياتها ، أخذت فى الانحطاط والنقصان ، وبدا فى أهلها الشؤم والخذلان . واستأنف فى الأخرى القوة والنشاط ، والظهور والانبساط ، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد ، ويضعف ذاك وينقص ، إلى أن يضمحل الأول المتقدم ، ويتمكن الحادث المتأخر ...

---

(١) الرسائل جـ ٤ ص ١١٢

فهكذا حكم أهل الزمان ، فى دولة الخير ، ودولة الشر : فتارة تكون القوة والدولة ، وظهور الأفعال فى العالم لأهل الخير ، وتارة تكون القوة والدولة ، وظهور الأفعال لأهل الشر .

وقد ترون أيها الإخوان أيدكم الله وإيانا بروح منه أنه قد تناهت قوة أهل الشر ، وكثرت أفعالهم فى العالم فى هذا الزمان ، وليس بعد التناهى فى الزيادة إلا الانحطاط والنقصان .

واعلم أن الملك والدولة ينتقلان فى كل دهر وزمان ، ودور وقران من أمة إلى أمة ، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ، ومن أهل بلد إلى أهل بلد .

واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء ، يجتمعون فى بلد ، ويتفقون على رأى واحد ودين واحد ، ومذهب واحد ، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضا ، ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، وكنفس واحدة فى جميع تدابيرهم[1] »

فواضح من هذه الخطبة أن الغاية التى يسعى إليها إخوان الصفا هى إسقاط دولة قائمة قد دب فى جسمها الوهن والانحلال ، يعتقدون أنها دولة الشر ، وإقامة دولة أخرى فتية يعتقدون أنها دولة الخير ، يريدون نقل السلطان والقوة من أهل بيت إلى أهل بيت آخر ، ومن بلد إلى بلد آخر .

---

(١) ج ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، جـ ١ ص ١٣٠ ، ١٣١

وظاهر كذلك ، أن الذى يتولى هذه الدعوة ، ويعمل لها جاهداً ، هم الإخوان الأخيار الفضلاء ، الذين يبدءون أمرهم بالتفكير والاتفاق على الغاية ، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقا ، ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم . « والمطلوب من المدعوين إلى هذا الأمر أربعة أحوال : أولها الإقرار باللسان . والثانى التصور لهذا الأمر بضروب الأمثال للوضوح والبيان ، والثالث التصديق له بالضمير والاعتقاد ، والرابع التحقيق له بالاجتهاد فى الأعمال المشاكلة لهذا الأمر [1] » ، فغرضهم سياسى وهو إسقاط الدولة العباسية ، واتخذوا من الفلسفة والعلوم وسيلة لغزو القلوب ، والتمكن منها ، وسترا يخفون وراءه أغراضهم الحقيقية . وسترى فيما بعد هذا واضحاً .

— ٤ —

**فروع الجماعة وأتباعها** : وقد كان للجماعة دعاة ومبشرون يجتهدون فى اختيار أعضاء جدد يضمونهم إلى صفوف الإخوان ، وكان هؤلاء الدعاة يدربون تدريباً خاصاً على الدعاية : « واعلم أيها الأخ أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن لنا إخوانا وأصدقاء من كرام الناس ، وفضلائهم ، متفرقين فى البلاد ؛ فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال ، ومنهم طائفة من أولاد

---

(١) رسائل ج ٤ ص ٢٢٤ .

الأشراف والدهاقين والتناء [١] والتجار ، ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين ، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس ، وقد ندبنا لكل طائفة منهم أخا من إخواننا ممن ارتضينا فى بصيرته ومعارفه لينوب عنا فى خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم .

وقد اخترناك أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه لمعاونتهم ، وارتضيناك لمشاركتهم ، فامض على بركات الله وحسن توفيقه إلى أخ من إخواننا وتوصل إليه بالرفق على خلوة ، وفراغ من مجلسه ، وطيبة من نفسه ، فاقرأ عليه منا التحية والسلام ، وبشره بما يسره من نصيحة الإخوان ، وعرفه شدة شوقنا إلى إخائه ومودته ، .. ثم اقرأ عليه هذه الخطبة وعرفه معانيها ، وفهمه مغزاها ومقصدها ، ثم عرفنا ما يكون منه من الجواب [٢] » .

وقد رسموا للداعية كذلك طرقاً توصله للنجاح فى دعوته معظمها مبنى على دراسة نفسية الجماهير فمن ذلك :

١ ــ أن يتعرف خبر كل واحد من أهل دعوته صغيراً أو كبيراً ، ما اسمه ونسبه وصناعته وعمله ، وما هو بسبيله فى أمر معاشه ، وعاداته السيئة والجيدة ، حتى يستعين بكل واحد منهم فيما يلائمه ، وألا يمكنهم من معرفته تمام المعرفة حتى لا يؤتى من قبلهم .

---

(١) الدهاقين جمع دهقان بكسر الدال وضمها ، وهو حاكم الإقليم المتصرف وحده ، فارسية معربة ، والتناء بالكسر جمع تانى من تناء بالمكان أقام به ، ومعناه المرابط

(٢) رسائل ج ٤ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

٢ ـ أن يؤكد الصلات والمودة بين أتباعه ، ويؤلف قلوبهم ، ويوحد كلمتهم ، حتى يصيروا كرجل واحد ونفس واحدة ، ويكون هو منهم بمثابة الرأس من سائر الأعضاء ، يتصرف فيهم كتصرف العقل فى الجسد .

٣ ـ أن يعود نفسه ، ثم يعود أتباعه ، الاستهانة بالمال والنفس فى سبيل الدعوة .

٤ ـ أن يكون قدوة حسنة لأتباعة فى كل شىء .

٥ ـ أن يقسمهم جماعات ، على كل جماعة رئيس يتلقى تعاليمه ، ويشرف عليهم من قرب [1] .

هذا إذا كان المراد ضمه إلى صفوف الإخوان رجلا من أوساط الناس ، لا ملكا لهم ولا سلطانا ، فإن كان من الحكام أو الملوك فعلى الداعى أن يتلطف فى الحصول إليه فى رفق ومداراة حتى يلقاه على خلوة من مجلسه ، وفراغ من قلبه ، وطيبة من نفسه ، ويحييه ، ثم يبلغه أنه رسول جماعة إخوان الصفاء إليه ، ويعرفه بهم ، ثم يبشره بما ألقوه إليه من الأسرار ، ويعرض عليه هذه التذكرة « ولعلها الخطبة التى أوردناها آنفا أو مغزاها » ليتأملها ، ويتفكر فيها ، ويعرفه أن لإخوان الصفاء مجلسا يجتمعون فيه فى الخلوات فيتذاكرون العلوم ، ويتحاورون فى الأسرار ، ويبحثون عن خفيات الأمور ، وأنهم تذاكروا يوما فيما بينهم حوادث الأيام ، وتغيرات الزمان ، والخطوب والحدثان ،

---

(١) راجع الرسائل ج ٤ ص ١٨٤ ـ ١٩٠ ، ص ٢٩٩ .

وما تدل عليه دلائل القران ، من تغييرات شرائع الدين والملل ، وتنقل الملك والدول ، من أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد ، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ، فاجتمع رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنه لابد من كائن فى العالم قريب ، وحادث عجيب ، فيه صلاح الدين والدنيا ، وهو تجديد ملك فى المملكة ، وانتقال الدولة من أمة إلى أمة ، وأن لذلك دلائل بينة وعلامات واضحة ، وأنهم قالوا : « قد عرفنا ـ هذه الدلائل ـ بفراغ عقولنا ، وتجارب الأمور ، واعتبار تصاريف الزمان فيما مضى من الحدثان ، وما يعرف منها بالزجر والفال ، والكهانة والفراسة ، وبدلائل المتحركات من النجوم ، والمنامات مما تدل عليه من الكائنات قبل أن تكون .

وقد اعتبرنا بهذه الوجوه التى ذكرناها ، وأشرنا إليها ، حتى عرفنا صاحب الأمر بصفاته ، والسنة والشهر الذى يكون فيه الحادث فى شأنه » . . .

فإن وقعت هذه التذكرة فى نفس المدعو أميرا كان أو غيره مكانها ، وسمت نفسه إلى ما أشاروا إليه فذلك ماأرادوا ، وإن توقف وقال : ماعلامة مايقولون ، وما تصديق مايزعمون من الرأى والحديث ؟ قالوا : عندنا دلائل واضحة ، وبراهين بينة ، وعلامات وشواهد ، يعلمها من كان ينظر فى العلوم كنظرنا ، ويعتبر الأمور كاعتبارنا ، وكان فى المعارف بصيرا مثلنا .

فإن أراد أخونا الفاضل الكريم ، فليبعث إلينا ثقة من ثقاته ، وأمينا من أمنائه ، ومن أبناء جنسنا ، ومن يشاكلنا فى العلوم والمعارف ، ومن يحاجنا

على مانقول ، ويناظرنا على مانشير إليه ؛ ليتضح له حقيقة ماقلنا [١] » .

ويظهر أن هؤلاء الذين توجه إليهم الدعوة ، والمنتشرين فى أنحاء الأرض كانت ميولهم وأغراضهم السياسية تشبه ميول إخوان الصفاء ، وأغراضهم ، ولم يكونوا قد انضموا إليهم بعد أو لم يعلموا بوجودهم ، وفى ذلك تقول الرسائل : « واعلم أن من إخواننا وأهل شيعتنا طائفة أخرى بوجودنا شاكّون ، وفى بقائنا متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا ، وطائفة أخرى موقنون ببقائنا لكنهم غافلون عن أمرنا ؛ غير عارفين بأسرارنا ، وكلهم منتظرون لظهور أمرنا ، مستعجلون لمجىء أيامنا ، مشتهون نصرة أمرنا [٢] » .

---

(١) رسائل ج ٤ ص ٢٣٧، ٢٣٨.
(٢) ج ٤ ص ١٩٨ .

# الفصل السادس

## هل هم شيعة باطنية ؟

### — ١ —

**اعترافهم بالتشيع** : لقد أقر إخوان الصفاء على أنفسهم بالتشيع فى غير ما موضع من الرسائل : فمن ذلك قولهم بعد كلامهم على الرسائل وعددها ، والسبب الذى دعاهم لكتابتها : « لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا ، وفهموا بعض معانيها ، وعرفوا حقيقة ماهم مقرون به ، من تفضيل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم خزان علم الله ، ووارثوا علم النبوات ، تبين لهم تصديق مايعتقدون فيهم من العلم ، والمعرفة ، والفهم ، والتميز ، والبصيرة فى الآفاق (١) » .

ومنها : « واعلم ياأخى بأن لكل نفس من المؤمنين أبوين فى عالم الأرواح كما أن لأجسادهم أبوين فى عالم الأجساد ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه ، أنا وأنت ياعلى أبوا هذه الأمة ، وهذه الأبوة روحانية لاجسدية (٢) » .

هذا وقد عقدوا فصلا خاصا بينوا فيه الطوائف التى تنتسب إلى الشيعة ، وقد انتقدوا بعضها ، وأظهروا الرضا عن بعضها ، وأخذ يتبرءون ممن يدعى التشيع وهو يرتكب المنكرات ، ويقترف الموبقات ، ويحملون على من يقول

---

(١) ج ٤ ص ٢٣٤ .

(٢) رسائل ج ١ ص ١٥٧ .

بأن المهدى المنتظر مستقر من خوف المخالفين . كما أنهم حملوا على الشيعة الذين يبكون على الأموات من أهل البيت حملة شعواء ، وقد قالوا فى كل هذا : « إن قوما من أشرار الناس جعلوا التشيع سترا لهم ، عما يحذرون من الآمرين عليهم بالمعروف ، والناهين لهم عن المنكر فيما يفعلون . وذلك أنهم يركبون كل محظور ويتركون كل مأمور به ، وإذا نهوا عن منكر فعلوه بادروا بإظهار التشيع واستعاذوا بالعلوية على من ينكر عليهم أو ينهاهم عن منكر فعلوه ، ولبئس ما كانوا يعملون .

ومن النــاس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم ، وهم براء بنفوسهم منا ، ويسمون أنفسهم العلوية وما هم من العلويين ، ولـكنهم من أسفل السافلين ، لايعرفون من أمرنا إلا نسبة الأجساد ... ... فهم أبعد الناس من أهل ملتنا وأعدى الناس لشيعتنا ، وأجهل الخلق بعلومنا ، وأغفل الناس عن حقيقة أمرنا وأسرار حكمتنا .

ومن الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسبا لهم ، مثل النائحة والقصاص، لايعرفون من التشيع إلا التبرى والشتم والطعن ، واللعنة والبكاء مع النائحة ، وحب المتدينين بالتشيع، وترك طلب العلم ، وتعلم القرآن ؛ وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد ، وزيارة القبور كالنساء الثواكل ، يبكون على فقدان أجسادنا [١] وهم بالبكاء على نفوسهم أولى .

ومن الشيعة من يقول : إن الأئمة يسمعون النداء ، ويجيبون الدعاء ، ولا يدعون حقيقة مايقرون به ، وصحة ما يعتقدون .

---

(١) يحتج بهذا النص من يقول إن الرسائل أملاها بعض الأئمة من آل البيت .

ومنهم من يقول : إن الإمام المنتظر مختف من خوف المخالفين ، كلا بل هو ظاهر بين ظهرانيهم يعرفهم وهم له منكرون[١] ».

ومما تقدم نرى أنهم لا ينكرون التشيع ، بل يقرون به . ويريدونه على وجه خاص ، ويتبرءون من هؤلاء الذين لوثوا اسمهم ، وارتكبوا المنكرات والموبقات ، وادعوا أنهم علويون .

لقد قالوا بالمهدى المنتظر ، وصرحوا بأنه كان موجوداً ، إبان تأليف هذه الرسائل ، ولعلهم كانوا يشيرون إلى واحد منهم . وكانوا يؤمنون بفكرة الوصى وأن علياً هو وصى النبى عليه السلام ، وليس فى ذلك أصرح من قولهم فى باب مخاطبة المتشيعين : « ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل نبيه الطاهرين ، وولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين[٢] .

— ٢ —

**آراء العلماء فى تشيعهم** : أما عن انتسابهم للشيعة الباطنية ، وصلتهم بالفاطميين ، وبالإسماعيلية ، فلا أستطيع على وجه التحقيق الجزم بهذا ، وكل ما بين يدى من أدلة لا يوصلنى إلى مرتبة اليقين ؛ وذلك لأنهم قد بالغوا فى كتمان أمرهم مبالغة شديدة ، والشاعر العربى يقول :

الستر دون الفاحشات ولا  يلقاك دون الخير من ستر

فهذا التكتم الشديد ، وهذه الحيطة العظيمة ، التى جعلوها شعاراً لهم ،

---

(١) جـ ٤ ص ١٩٩ .  (٢) رسائل جـ ٤ ص ٢٤٢ .

حتى فى تداول رسائلهم التى وصلت إلينا ، مايدعو إلى التشكك فى أمرهم ؛ استمع إليهم كيف يوصون بتداول هذه الرسائل : « فهكذا ينبغى لمن حصلت عنده هذه الرسائل ، والرسالة « لعلها الجامعة » ألا يضيعها بوضعها فى غير أهلها . . وليتحرز فى حفظها وإسرارها وإعلانهـا ، وإظهارها كل التحرز ، ويحرسها غاية الحراسة[1] » .

ويقولون فى موضع آخر : « كذلك الواجب على من حصلت عنده هذه الرسائل ، وهذه الرسالة ، أن يتقى الله تعالى فيها بأن يهتم ويعتنى بها غاية العناية ولايبخل بهذه الوصاية ، ويتلطف فى اسـتعمالها وإيصالها تلطف الأخ الشقيق والواد الصديق ، والطبيب الرفيق ، بعد بذل وسعه واستفراغ جهده فى توخى العقد ، وتحرى الصواب[2] » .

وقد رأينا فى الفصل السابق كيف يختارون أعضاء هذه الجماعة ، وأى حذر بالغ ، وحيطة شديدة ، وامتحان عنيف ، يكتنف العضو الذى يريدون ضمه إلى صفوفهم .

وقد رأينا كذلك فى الفصل السابق أنهم يبشرون بقيـام دولة جديدة ، تتولاها أسرة جديدة ، وأنهم يدعون لذلك ، ويعملون له جهدهم . ولاشك أن هذا الغرض السياسى ، الذى يراد به ثل عرش من العروش ، وتوليـة أسرة أخرى « شئون المسلمين » دعاهم إلى كتمان أمرهم ، حتى تهيأ لهم فرصة النجاح

---

(١) رسائل جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) جـ ١ ص ٢١

فيظهرون للناس ، وقد مر بنا فى الفصل الأول ماقام به عبد الله بن ميمون ومن أتى بعده ، وكيف تطورت دعوتهم إلى قيام الدولة الفاطمية ، وكيف كانت التقية والكتمان شعار هذه الطائفة حتى تم لها الانتصار ، وسنذكر فيما بعد وجوه شبه أخرى بين إخوان الصفاء والإسماعيلية والفاطميين .

كل هذا دعا كثيراً من العلماء إلى أن ينسبوا إخوان الصفاء إلى طوائف الشيعة الباطنية .

فقد جاء فى كتاب اجلاء العينين فى محاكمة الأحمدين لنعمان خير الدين الألوسى البغدادى المطبوع ببولاق سنة ١٢٩٨ هـ . كلام على هذه الرسائل منقولا من كشف الظنون ، ومن شرح عقيدة السفارينى : « وهى أصل مذهب القرامطة ، وربما نسبوها إلى جعفر الصادق ترويجا ، وقد صنفت بعد المائة الثالثة فى دولة بنى بويه[١] » .

وقد ذكر الإمام ابن تيمية فى فتاويه عند الكلام على الباطنية الإسماعيلية «إنهم يبنون قولهم على مذاهب المتفلسفة كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفاء»

وفى مقالة لكازانوفا فى عدد يناير وفبراير ١٨٩٨ من المجلة الأسيوية ص ١٥١ ـ ١٥٩[٢] « كم يندر أن يحصل امرؤ على مخطوطات أصيلة حقيقية حول الإسماعيلية ، وفرعهم الشهير بالحشاشين ، وقد عثرت بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٣٠٩ على رسالة من تأليف أحد الحشاشين .

---

(١) مقدمة الرسائل ص ٣١ .

(٢) عنوان المقال: Notice sur un Manuscrit de la Secte des Assassins

ويظهر أنها جزء من رسـالة كبيرة لأنها لاتحمل عنواناً ، ولا إشارة ما ، ويبتدىء من الصفحة السادسة بهذه الـكلمات :

« فصل من رسائل إخوان الصفاء »

وقد أشار Stansilas Guyard «استانسيلاس جيارد» إلى العلاقة بين نظريات إخوان الصفا الفلسفية ، ونظريات الإسماعيلية فى نشرة بعنوان « فصول متعلقة بنظريات الإسماعيلية[١] » .

وفى المخطوطة التى أشير إليها كثير من الفصول الموجودة برسائل إخوان الصفا ، ولـكنها تحتوى كذلك على الرسالة الجامعة ، التى لا توجد فى أى مجموعة أخرى ابتداء من الصفحة ١٢٣[٢] .

وفى صفحة ١٢٥ يذكر المؤلف تواريخ ملوك الإسلام ، ويذكر أنه قدمر « بمصيف » أحد الأمراء فى ٩ من جمادي الأولى سنة ٧١١ هـ ، وأنه رحل عنها فى ١٦ من الشهر نفسه ، وهذا يدل على أن المؤلف كان يسكن « مصيف » وهى مقر الحشاشين كما هو معروف؛ وفى صفحة ١٢٥ كذلك: «تاريخ فتح الحصون فى ابتداء الدعوة الهادية » ، ويشير بهذا إلى الحصون التى فتحها الحشاشون ، فكلمة الدعوة « الهادية » من خصائص الحشاشين فى الشام[٣] .

---

(١) لم استطع الحصول على هذه النشرة ، إذ لم أعثر عليها على الرغم من الجهد الـكثير

(٢) وقد ذكرنا آنفا قول العلامة Basset فى تعليقه على الدعوى كازانوفا العثور على الرسالة الجامعة .

(٣) فان برشام Van Bercham فى المجلة الأسيوية ١٨٩٧ ص ٤٦١ .

وفى ص ١٢٧ رسالة من صلاح الدين إلى رشيد الدين رئيس فرقة الحشاشين، وتتقدم اسم رشيد الدين كلمة الصاحب « الصاحب رشيد الدين » ، وهذه الكلمة من خصائص الحشاشين فى سوريا ، وألقاب رؤسائهم ، ويضيف المؤلف بعد اسم رشيد الدين « قدس الله سره » مرة ، ومرة « قدس الله روحه » .

وبعد أن ذكر كازانوفا معنى كلمة الجامعة ، مشيراً إلى قول إخوان الصفا أنهم سيختمون بها رسائلهم ، لأنها تحتوى على مفتاح ماتقدم من الأسرار ، ومشتملة على حقائق الرسائل بأسرها ... ... الخ كما ذكرنا سابقا .

قال : « وفى الرسالة الجامعة فى هذه المخطوطة التى نتكلم عنها تظهر سيطرة الأعداد على الكون فكل شىء يسير وفق قانون العدد ، حيث يحتل العددان ٧ ، ١٢ المكان الأول .

والشيعة تشير إلى أن هناك سبعة أئمة ، وكل منهم له اثنا عشر حواريا ، والإنسان له سبع مواهب أو حواس :

السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، واللمس ، والذكاء ، والكلام . والكلام انعكاس الذكاء ، كما أن القمر انعكاس الشمس ، والحواس الخمس الأخرى مثل الكواكب السيارة الأخرى . ونحن نعلم أن موازنة كهذه قام بها الاسماعيلية وسأكتفى بعقد موازنة مع أحد الفصول التى نشرها «جيارد» الفصل (١٤) . ومن المستحسن أن نتذكر أن لدى العلويين كتابين : الجفر

والجامعة ، فإن الإمام موسى الرضا[١] الذى ولاه المأمون ولاية عهده قد قال : « إنى قد أجبتك ، وإن كان الجفر والجامعة يدلان على ضد ذلك[٢] » ويذكر « حاجى خليفة » تحت كلمة « جفر » و « جامعة » كلاما طويلا لم يفطن إليه المستشرقون أمثال « سلفستردى ساس » ، و « جيارد » و « جولد تسهير » ويذكر لنا « جولد تسهير » فى مقابل هذا فقرة من كلام المؤلف« نور الله » وهى أن الجفر : كتاب من سبعين ذراعا طولا أملاه الرسول عليه السلام على علىّ فيه والله جميع ما يحتاج الناس إليه إلى قيام الساعة[٣] » .

«والجفر معروف وفى كل المكاتب نسخ منه، وهو يحتوى على حساب الجمل وعلى أرقام تدل على تنبؤات بالحوادث ، أما الجامعة فلا أعرف لها مقراً . »

« ولانستطيع أن نجزم أن الجامعة التى أشار إليها على الرضا ، واستشارها

---

(١) هو الامام على الرضا بن موسى بن جعفر الصادق (ذكر كازا نوفا اسمه محرفا ) وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية ، وسماه المأمون : ( الرضا من آل محمد ) وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين، ولبس ثياب الخضرة الذى اختاره شعاراً للدولة الجديدة ، وقد مات على الرضا مسموما فى سنة ٢٠٢ هـ . ويظهر أن بعض بطانة المأمون ممن لم يرض عن انتقال الخلافة إلى العلويين دس له السم فمات .

(٢) راجع حاجى خليفة فى كشف الظنون « النسخة التى نشرها فلوجل ص ٦٠٤ جـ ١١ أو راجع الفخرى تحرير آل ورد ص ٢٦٠ .

(٣) راجع تاريخ الأدب الشيعى Litteratur=Geschichte de Sia p,55

يقول جولد تسهير فى كتابه ( العقيدة والشريعة فى الاسلام ) : يدعى الشيعة أن لديهم مؤلفات خفية ينسبونها إلى على ، ويقولون عنها تارة : إنها خلاصة العلوم الدينية التى كانت

فى الساعة الفاصلة فى حياته هى نفس الجامعه التى يشير إليها إخوان الصفاء » وأستطيع أن أؤيد كلام كازا نوفا فى هذا الرأى بما ورد على لسان إخوان الصفاء .

فإننا نجد فى الرسائل كلاما كثيرا عن اختصاص آل البيت بالعلوم الخفية

---

لكافة الأنبياء ، وطوراً يزعمون أنها كتابات نبوية رمزية تكشف طلاسمها عن حوادث المستقبل، وقد أودعها النبي عليه السلام عليا ، وانتقلت بعده من جيل إلى جيل فى أعقاب الأئمة الشرعيين ، وكل إمام منهم كان حائزا فى وقته كل علوم العلويين الباطنية ، وأكثر مايستشهدون به كتاب الجفر والجامعة ، وقد قال بشر بن المعتمر أحد قدماء المعتزلة عن الشيعة : إنهم قوم قد غرهم الجفر « لست أباضيا غبيا ولا كرافضى غره الجفر » ( الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٩٤ ) ، بل إن كتب الشيعة قد أتت على الوصف الظاهرى لهذه الكتب السرية المزعومة ، فكتاب الجامعة وصفته بأنه لفافة طويلة طولها سبعون ذراعا قياسا على ذراع النبي ) هذا ماذكره جولد تسهير ، وفى كتاب الكافى لمحمد بن يعقوب الكلينى ، وهو من أفاضل الشيعة ورؤسائهم ، وكتابه هذا يشبه البخارى عند أهل السنة وهو ثلاثة أجزاء: الأول فى الأصول ، والثانى والثالث فى الفروع ومات ببغدادسنة٣٢٨هـ، ويلاحظ أنه معاصر لإخوان الصفا — فى كتابه هذا ذكر لهذه الكتب التى يدعى العلويون أنهم اختصوا بها فقال : وعند الأئمة اسم الله الأعظم [ أصول الكافى ص ١١٠ — ١١٢ ] وعندهم الجفر وهو وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين ، وعلم العلماء الذين مضوا من بنى اسرائيل ، وعندهم مصحف فاطمة وفيه مثل قرآننا ثلاث مرات ، وليس فيه من قرآننا حرف واحد [ ص١١٥ ] . وقد كذب من ادعى من الناس أنه جمع القرآن كله ، فما جمعه وحفظه كما نزل الله إلا على بن أبى طالب والأئمة من بعده [ص ١١٠]

وكان كل إمام يعهد إلى الذى يليه ويترك له كتابا ملفوفا ووصية ظاهرة [ ص ١٤٩]

«وهذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة عليهم السلام لايحتاجون فيها إلى مدبرين غيرهم ، وإلى علماء سواهم ، ولايطلع الناس على أسرارهم ، ولا يعرفون أخبارهم ، ولايطلعون على مواليدهم ، ولايعرفون سنيهم فى موتاهم ؛ ولهم علوم يتميزون بها وينفصلون عن العالم بمعرفتها ، وأعمال يعملونها لايشركون فيها غيرهم[١] »، ويقولون كذلك : « واعلم يا أخى أن البيت الذى فيه سر الخلافة وعلم النبوة هو البيت الذى وسموا أهله بالسحر العظيم فى الجاهلية والإسلام ، لما يظهرمنهم من الآيات ويعلمونه من المعجزات . فلم يجد أعداؤهم حالا يضعون بها من منازلهم ــ لما عجزوا عن العمل بمثل مايعملونه ، وجهلوا العلم الذى يعلمونه ــ إلا أن قالوا إنهم سحرة ، وإن لهم أعوانا من الجن يمدونهم بذلك .

« وهيهات ، حيل بينهم وبين مايشتهون . وإن هو إلا علم إلهى ، وتأييد ربانى تنزل به ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يلقونه بأمر الله عز اسمه على من اصطفاه من خلقه وارتضاه بخلافته فى أرضه[٢] » .

وأوردوا حديثا يؤيدون به فكرتهم هذه فى آل البيت : « قيل يارسول الله : من قال لاإله إلا الله دخل الجنة ، فقال : نعم ! من قالها مخلصاً دخل الجنة ، قيل له : وماإخلاصها ؟ قال: معرفة حدودها وأداء حقوقها ، فقيل يارسول الله: مامعرفة حدودها وأداء حقوقها ؟ فقال : نعم ! أنا مدينة العلم وعلى بابها ! فمن أراد مافى المدينة فليأت الباب ، فأرشدهم إلى من يشرح لهم ذلك[٣] » .

---

(١) ج ٤ ص ٤٠٣ . (٢) رسائل ج ٤ ص ٤٠٥ . (٣) ج ٤ ص ٤٨٦ .

ونعود إلى « كازانوڤا » حيث قال: «وأؤكد أن آراء الإسماعيلية الفلسفية توجد كلها فى رسائل إخوان الصفاء ، وكلاهما يتفق فى القول بالإمام المستور والمهدى المنتظر . ويعقد « كازانوڤا » موازنة بين إخوان الصفاء والإسماعيلية من جهة، وبين المحافل الماسونية من جهة أخرى ، وأهم نقطة فى الموازنة ، هى خلط الآراء السرية بالنظريات السياسية .

وإنى أقول مع الأستاذ Basset «باست[٢]» من أنه يجب الموازنة بين هذه المخطوطة التى عثر عليها كازانوڤا ، وبين المجموعة التى ذكرها ، والتى تنسب إلى المجريطى .

وإنى أستنتج من مقالة كازانوڤا هذه : ـ

أن ماعثر عليه كتاب ينسب إلى أحد الحشاشين ، وهم فرع من الإسماعلية وليس بمستغرب أن يخلط هذا الكتاب برسائل إخوان الصفا ، أو يقتبس منها فالإسماعيلية يعدون الرسائل دستورهم ، ومستودع علومهم الباطنية ، وقد ذكر M. C. Defremory دفريموري فى عدد يناير ١٨٥٥ من المجلة الأسيوية فى مقال بعنوان ( بحث جديد على الإسماعيلية الباطنية بالشام المعروفين بالحشاشين فى علاقاتهم على الخصوص مع ممالك الإفرنج ) : « أن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين ، وهو من أجلّ وأفخم رؤساء الإسماعيلية ، قد خدم فى «ألموت» المقدمين الذين كانوا قبله ، وزاول علوم الفلسفة ، وأطال نظره فى كتب الجدل

(١) Revue de la Histoire de Relegions عدد ١٨٩٩ ص ٣٥٦ـ٣٥٧ وراجع ص ٦٠ من هذا الكتاب .

والخلاف ، وأكب على مطالعة رسائل إخوان الصفا » .

فذكر انكبابه على رسائل إخوان الصفا يدل على مالهذه الرسائل فى نفوس هذه الطائفة من الإسماعيلية من منزلة .

ويقول الأستاذ ماكدونالد : « لقد تلقى الإسماعيلية تعاليم إخوان الصفا ، وزادوا فيها فى حصونهم الجبلية ومقر قواهم ، تلك الحصون المنتشرة من بلاد الفرس إلى سوريا . وهؤلاء يعرفون بالحشاشين ، ويقال لهم أحيانا الباطنية ــ وإن دلت هذه الكلمة فى معناها الواسع على من يجد فى القرآن معنى خفياً باطنا غير معناه الظاهر .

« وحسبنا الآن أن نلاحظ كيف أن هذه الفلسفة السلمية الهادئة التى وضعها إخوان الصفا ، حوّلها الطموح والتعصب إلى سياسة حربية على أيدى هؤلاء الحشاشين وخناجرهم[١] » .

ويقول فى مكان آخر[٢] : « يجب أن نكون على ذكر من أن الحشاشين لم يكونوا عصابات من اللصوص تنشر الرعب بأساليبها الشنيعة ، ولكن كلا الفرعين الشرقى والغربى قد عكف على العلم ، وربما وُجد فى حصونهم الجبلية أشد أنواع الفناء فى طلب العلم الصحيح ؛ وحينما استولى المغول على قلعة[٣] ألموت وجدوها غنية برسائل إخوان الصفا وبآلات هندسية ورياضية

---

(١) Muslim Theology p. 197

(٢) نفس المصدر ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٣) وقلعه ألموت كانت وكر هؤلاء الحشاشين ، استولى عليها الحسن بن الصباح أميرهم

وفلكية من كل نوع . إذاً من المحتمل أن تكون تعاليم إخوان الصفا وماتخفيه في طياتها هي الآراء الخفية للفاطميين ، والحشاشين ، والقرامطة والدروز » .

ونستنتج كذلك من مقالة كازانوفا : أن إخوان الصفا يقولون مع الشيعة بوجود كتاب أو رسالة تسمى الجامعة ، وهو مستودع لأسرارهم ومفتاح

---

في سنة ٤٨٣ هـ وهو من نسل الإمام علي ، وقد اشتهروا أيام الحروب الصليبية حيث كان زعيمهم رشيد الدين بن سنان الملقب بشيخ الجبل يهادي ملوكهم ، وقد تلقى تعاليمه في المدرسة الفاطمية بمصر ، وقد ظل الحسن مالكا للقلعة مايقرب من ثلاثين عاماً، وذهبت كل محاولات الخلافة للقضاء عليه أدراج الرياح ، وقد كثرت غزواته لمن جاوره من الأمراء وقد سقطت القلعة في سنة ٥٢٤ هـ على يد المغول . وكان ابن الصباح وخلفاؤه يقسمون أشياعهم إلى سبع طبقات : طبقة شيخ الجبل وطبقة الداعي الأكبر ، وطبقة الدعاة ، وطبقة الرفقاء ، وطبقة الفدائيين ، وطبقة اللصقاء ، وطبقة الدهماء . وكان الفدائيون أداة بطش وإرهاب في أيدي أمراء الحشاشين ، وعلى يديهم قتل الخليفة المسترشد بالله على باب مدينة مراغة ، ومثل به شر تمثيل ، ثم قتل الخليفة الراشد بنواحي أصبهان ؛ كما قتل اثنان من كبار الأمراء الصليبيين مع أنهم كانوا يحالفون الدول الصليبية ، وهما ريموند صاحب طرابلس وكونراد صاحب مونتفرات .

وقد اتخذوا من ( الحشيش ) وسيلة يمكنون بها طاعتهم ويثبتون عقائدهم في قلوب هؤلاء الفدائيين ، يخدرون به الفتيان الذين ترقوا من طبقة الدهماء إلى طبقة اللصقاء ، إلى طبقة الفدائيين ، ثم تتاح لهم فرصة التمتع بمجالس اللهو حيث القيان الحسان والغناء الشجي والرقص والموسيقى، ويوهمون أن ( الرب ) قد نقلهم إلى الفردوس ، وأنه متى شاء نقلهم إليه بعد الممات ، أو نقلهم إليه وهم على قيد الحياة . فيستميتون في طاعة هذا ( الرب ) ويتسللون إلى قصور الملوك والأمراء ليغرسوا خناجرهم في وسائدهم على سبيل الإنذار أو في صدورهم على سبيل الانتقام . ومن هنا أخذ الصليبيون كلمة الحشاشين وأطلقوها على القتلة السياسيين ولا تزال كلمة Assassin باللغات الافرنجية تدل على ( المغتال ) وقد حاول هؤلاء الحشاشون أن يغتالوا «صلاح الدين الأيوبي» غير مرة فأخفقوا في جميع المحاولات =

لرسائلهم . ومصداقا لـكلامه نقول : ان الشيعة يدعون أن «الجامعة» موروثة عن على بن أبى طالب ، وأن الأئمة يورثونها لأعقابهم على مدى الأجيال .

وقد عظم إخوان الصفا من أمر هذه الرسالة الجامعة ، وشوقوا القراء إلى الاطلاع عليها ، ثم لانرى لها أثراً فى أى مجموعة من المجموعات المخطوطة أو المطبوعة مما يدل على أنهم أخفوها وقد طبعت فى مصر رسالة الإنسان والحيوان خطأ تحت عنوان ( الجامعة ) وقد جاء فيها : « نحن لبسنا السواد ، وطلبنا بثأر الحسين بن على عليهما السلام ، وطردنا البغاة «بنى مروان» ونحن نرجو أن يظهر من بلادنا الإمام المنتظر[1] » .

فهذه الجامعة التى يشيد إخوان الصفا بذكرها ، وأنها مفتاح رسائلهم ، ومجمع أسرارهم ، ثم عدم العثور عليها يؤيد صلتهم بالشيعة الباطنية .

أما الجفر وحساب الجمل ، والتنبؤ بالمستقبل ، وتأثير الأعداد فى الـكون ، فقد عنوا بها عناية خاصة فى رسائلهم ، وحسبك أن تقرأ الجزء الأول من رسائل إخوان الصفا وتطلع على القسم الرياضى معه ، ثم باب الطلسمات والعزائم فى آخر الرسائل ، لتعرف مدى اهتمامهم بهذا النوع من العلم ، وهاك مثلا مما قالوه

= إلا أنهم نشروا الرعب فى قلوب أمراء المشرق من تخوم الهند إلى الديار المصرية ، وقد بلغ من سطوتهم أن هابهم هولاكو وخاف أن يبطشوا به لجسارتهم ، وأيقن أن لا راحة له إلا بالتخلص منهم فقتل من اتباعهم مايزيد عن اثنى عشر ألفاً بين فارس والعراق ، ثم جاء « بيبرس » فقضى على ألوف منهم بجبال العلويين . ومن نسل حسن بن الصباح الذى ابتدع هذه الطرق الشنيعة فى القتل السياسى أغا خان زعيم الاسماعيلية بالهند فى العصر الحاضر ، وإليه يجبى الاسماعيلية أموالا طائلة ، ويزنونه ويقدمون له مقدار وزنه ذهباً أو ماسا ، وينظرون إليه نظرة تقديس .

(١) الرسالة الجامعة ص ٨٢ .

فى ذلك : « واعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه أن ماهية السحر وحقيقته هو كل ماسحرت به العقول ، وانقادت إليه النفوس من جميع الأقوال والأعمال بمعنى التعجب والانقياد والإصغاء والاستماع والاستحسان والطاعة والقبول (١) »

فهم هنا يبينون أن السحر يستخدم فى الإقناع وانقياد النفوس لهم وقبول مذهبهم ومايدعون إليه ، ويحثون إخوانهم ودعاتهم على تعلم السحر والتنجيم والرقى ، وكل مايمكن أن يؤثر على الناس ؛ حتى تعظم مكانتهم لديهم ويتعرفوا بهم ، وهذا ما كان يعمله الاسماعيلية فى الهند حين دخلوها أول مرة : « واعلم يا أخى أنه بهذه الصناعة يكون لك معرفة الملوك والرؤساء والسلاطين والمديرين وأتباعهم ، ومايكون من أمورهم وحال من يعاديهم ، ويخرج عليهم فى زمانهم ويضايقهم فى مكانهم . وإذا عرفت ذلك واطلعت عليه طابت نفسك بذلك وسكنت إلى ماعلمته ، وملت نحو الخليفة الذى عنده الحق واليقين ، واستخلفته على نفسك الزكية وروحك المضيئة ، وإن قدرت عليه ووصلت إليه فقد نجوت ووقفت على الطريق الواضحة والحجة اللائحة (٢) » .

ففى العبارات السابقة يبينون له ما لمعرفته بالسحر والعزائم والتنجيم من فائدة ، وأنه سيتصل بالملوك والرؤساء وغيرهم ، ومتى احتل فى المكان الذى اختاره لدعوته هذه المنزلة فقد سهلت مهمته . ثم إنهم يغرونه بأن هذا العلم سيوصله إلى معرفة الخليفة الحق ( ويقصدون الخليفة المستور ) وأنه متى وصل إليه فقد نجا ، ولعل اتقانه للدعوة ، والافتنان فى الإقناع ، وإجادة ضروب

---

(١) ج ٤ ص ٣٤٨ .   (٢) ج ٤ ص ٤٠٧ .

السحر وجذب العقول إليه تحله مكانة سامية فى دائرة الإخوان ، وتقربه من مركز الدائرة وهو الخليفة الذى يدعون إليه ، ثم ينكشف له الستر فيعرفه . وهو ماتصبو إليه نفس كل داعية أو أخ ، وهم يصرحون بغرضهم من الإفاضة فى هذه الأمور فى رسائلهم فيقولون : « ولعل كثيراً ممن يقف على رسائلناهذه يظن أن مرادنا فى وضعها هو تعليم علم النجوم ، ولعمرى أن ذلك من أحـد أغراضنا فيها ، لأننا نحب لإخواننا أيدهم الله أن يقفوا على جميع العلوم ويتعلموها ولايجهلوها إذا كان مذهبهم هو النظر فى جميع العلوم واستقراؤها كلها والإحاطة بمعرفة ظواهرها وبواطنها[1] »

ومن ذلك قولهم : « وأما منافعها ، والفائدة منها ، فقد ذكرنا فى رسالة الطلسمات والعزائم طرفا منها ، ولـكن نذكر منها فى هذا الفصل مثالا واحداً ليكون دلالة على صدق ماقلنا ، فنقول : إن من خاصية هذا الشكل المتسع (وهو مرسوم بالجزء الأول ص ٧١ ) ومنفعته تسهيل الولادة إذا كتب على خزفتين لم يصبهما الماء وعلقتهما على المرأة التى ضربها الطلق ، وإن اتفق أن يكون القمر فى التاسع ، ومتصلا برب التاسع سهل الولادة ، أو برب بيتة من التاسع ، وما شاكل ذلك من المتسعات » .

« وذلك أنه ما من شىء من الموجودات الرياضية والطبعية والإلـٰهية إلا وله خاصية ليست لشىء آخر ، ولمجموعتها خواص ليست لمفرداتها من الأعداد والأشكال ، والصور ، والمـكان والزمان ،والعقاقيروالطعوم،والألوان والروائح ، والأصوات والـكلمات ، والأفعال والحروف والحركات ، فإذا جمعت بينها على

(١) جـ ٤ ص ٤١٣ .

النسب التأليفية ظهرت خواصها وأفعالها [١] » .

هذا وقد قال المحبي فى خلاصة الأثر : « وحاصل تلك الرسائل ليس إلا مذهب الباطنية الاسماعيلية ، وهم أنماط شتى ، ومعظم القول فى هذه الشيعة من شيعتهم تناسخ الأرواح ، وادعاء حلول البارى تعالى فى الأنبياء المشهورين من آدم إلى محمد عليه السلام ، وفى أئمة آل البيت ، وآخرهم المهدى، ويعظمونه على الجميع ، والاسماعيلية يوافقون الإمامية فى ذلك [٢] » .

ويقول دى بور فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الإسلام : « وقد أخفى إخوان الصفا آراءهم الانتقادية فى رسائلهم بعض الإخفاء ، وذلك لأسباب غنية عن البيان ، غير أن حملتهم على المجتمع ، وعلى الأديان الموروثة تتجلى من غير أدنى احتياط فى رسالة الحيوان والإنسان ، وفيها ألبسوا آراءهم ثوبا رمزيا ، فقالوا على ألسنة الحيوان مالو جاهر به أحدهم لثارت حوله الشكوك [٣] »

« ٣ »

**موازنة :** ومما يؤيد صلتهم بالاسماعيلية أن نشاط الإخوان فى بث تعاليمهم يشبه ما يقوم به دعاة الاسماعيلية من الجد والنشاط فى نشر مذهبهم ، وتشكلهم بما يلائم مصلحتهم ، ولبسهم لكل حال لبوسها ، ومخاطبتهم الناس على حسب أهوائهم وأمزجتهم ، واستعمالهم السحر والطلاسم والرقى والتعاويذ فى إقناع الناس بمقدرتهم ومبلغ علمهم ، وقد مر بنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب

---

(١) جـ ١ ص ٧١ . (٢) خلاصة الأثر جـ ٤ ص ٦ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٠٥ ، ترجمة أبى ريده ، وانظر ماقالوه على ألسنة الإنسان والحيوان فى الجزء الثانى من الرسائل فى الرسالة الثامنة .

عند الكلام على الباطنية ماروواه « السير توماس أرنولد » ، وما رواه «دوزى» عن نشاط الإسماعيلية ، وتنوع أساليبهم فى نشر دعوتهم[١] . وهكذا كان إخوان الصفاء ، أو هكذا ظهروا فى رسائلهم ، فقد عينوا خطباً خاصة لكل صنف من الناس ، وأوصوا باستعمال الرفق والتأنى فى إقناعهم مما أفضنا فى تبيانه فى الفصل السابق عند الكلام على نظام جماعتهم ، وقد اتخذوا دعاة من كل صنف من الناس ، من أولاد الملوك والأمراء ، والوزراء ، والكتاب ، والعلماء ، والعمال وأولاد الأشراف والدهاقين والتجار والصناع ؛ ليدعو كل منهم أبناء طائفته ويستميله إليه بشتى الوسائل ، « وأما نحن فقد بذلنا مجهودنا فى هداية الضالين ، وإرشاد التائهين وتنبيه الغافلين ، وخاطبنا كل قوم وصنف منهم بما هو أصلح أن نخاطبهم به[٢] ، وقد أبدوا من رحابة الصدر والتسامح الدينى ما يذكرنا بالإسماعيلية فى الهند وفارس ، فقد ثبت أنهم لأول دخولهم بلاد الهند[٣] كانوا يوافقون البوذيين على عقائدهم حتى يستميلوهم إليهم ، ثم يكملون النقص فى هذه العقائد بنظرية الإسماعيلية الأساسية ، وهى قداسة على وعودته

---

(١) راجع ص ٢٤ ، ٢٥ من هذا الكتاب .

(٢) ج ٤ ص ٢٨٢

(٣) أول من دخل الهند من الاسماعيلية هو عبد الله اليمنى الاسماعيلى جاءها حوالى ٤٥٩ هـ — ١٠٦٧ م وتبعه نور الدين الذى تسمى باسم نورستاجر وقد قدم من « ألموت » إلى جوجرات فى عهد الملك الهندى سدهاراج ( ١٠٩٤ — ١١٤٣ م ) .

ثم يجعلون برهما محمداً ، ووصنو علياً ، وآدم سِيفا[١] ، وقد رأينا في الفصل الأول كيف كانوا يعاملون المجوس واليهود والنصارى ويتقربون لكل طائفة من هؤلاء . وكذلك كان إخوان الصفا فلم يظهروا تعصباً إزاء الديانات الأخرى لأن ذلك ليس فى مصلحة دعوتهم . « وبالجملة ينبغى لإخواننا أيدهم الله تعالى ألا يعادوا علماً من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب وألا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم كلها[٢] » .

وهذه عبارة واضحة من أنهم يلبسون لكل حال لبوسها ، ويظهرون الموافقة لأصحاب الديانات الأخرى ، والمذاهب المتباينة ثم يستدرجونهم إلى عقيدتهم ومذهبهم .

ويقولون كذلك : « واعلم بأن غرض الأنبياء عليهم السلام ، وواضعى النواميس الإلهية أجمع غرض واحد وقصد واحد ، وإن اختلفت شرائعهم وأزمان عبادتهم وأماكن بيوتهم ، وقرابينهم وصلواتهم ، كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد ، فى حفظ الصحة الموجودة ، واسترجاع الصحة المفقودة ، وإن اختلفت علاجاتهم باختلاف الأمراض العارضة للأبدان[٣] » ، فالتوراة والإنجيل ، والقرآن ، وغيرها من الكتب الدينية عندهم سواء ، وكأنى بهم

---

(١) The Preaching of Islam فصل عن انتشار الإسلام بالهند .

(٢) الرسائل ج ٤ ص ١٠٥ .

(٣) ج ٢ ص ١٢٠ .

يريدون أن يستوعبوا الديانات كلها فى دين واحد ، ومذهب واحد، وليس هناك أوضح من قولهم : « والله أرسل روحه إلى كل الناس لافرق بين النصرانى والمسلم ، وبين الأسود والأبيض » . ويعتقدون أن أهل الديانات يقتتلون طلباً للملك والرئاسة ، وأما الديانات ذاتها فكلها طرق ومسالك توصل إلى الله ، من أى الجهات توجهنا فثم وجه الله ، والديانات كلها قصدها واحد وهو التوجه إلى الله(١) .

لأن الإسماعيلية تسعى أولا فى زلزلة العقيدة فى قلب المدعو وتشكيكه فى دينه ، وإماتة التعصب فيه ، فإذا ماتيقنوا من أنه صار لايهتم بأمور دينه كما كان أولا ، وأنه لم يعد ذلك المتعصب الذى يستشهد فى سبيل مبدئه وعقيدته ، لقنوه مذهبهم تدريجياً ؛ ولا شك أن الدعوة إلى التسامح كما وضعها إخوان الصفا ، وأن مذهبهم يستوعب جميع الديانات والمذاهب ، مما يؤدى إلى هذا التشكك ، وعدم الاكتراث بأمور الدين .

ومما يؤيد فكرة انتساب إخوان الصفاء لطائفة الإسماعيلية أو الشيعة الباطنية عقد موازنة بين بعض النصوص التى وردت فى آثار هؤلاء وهؤلاء ، وسنجد توافقا عجيباً فى الفكرة ، والعبارة والمرمى .

فقد ورد فى الوثيقة التى تكتب لداعى الدعاة الفاطمى عند توليته ماحدد مهمته ، وقد جاء فيها : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه

---

(١) جـ٢ ص ٣٠٨ .

وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه » .

« ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين مايعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول » .

« وألن لهم جانبك ، واحن عليهم والطف وابسط لهم وجهك ، وأقبل إليهم واعطف ، وإذا ألبس عليك أمر وأشكل ، وصعب لديك مرام وأعضل ، انهه إلى حضرة الإمام [١] » .

فإذا وازنا بين هذا وبين ماورد فى الرسائل خاصا بالدعوة وقبول عضو جديد فى زمرة الإخوان ، رأينا مشابهة تامة فى الفكرة والعبارة ، وقد مر بنا عند الكلام على نظام جماعتهم شىء من هذا ، ولا بأس من إيراد بعض العبارات حتى تسهل الموازنة ، فمن ذلك قولهم : « وينبغى لإخواننا حيث كانوا فى البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقا مجددا أو أخا مستأنفا أن يعتبر أحواله ، ويتعرف أخباره ، ويجرب أخلاقه ، ويسأله عن مذهبه واعتقاده ، ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا [١] » .

« وينبغى لك إذا أردت أن تتخذ صديقاً أو أخا أن تنتقده كما تنتقد الدراهم

---

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها .

(٢) رسائل ج ٤ ص ١٠٧ .

والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس ، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمراً لتزويج وشرى المماليك ، والأمتعة التي يشترونها [(١)] » .

وبعد أن يذكروا صفة هؤلاء الأصدقاء والإخوة يقولون : « فإذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفته فابذل له من نفسك ومالك ، وق عرضه بعرضك ، وافرش له جناحك ، وأودعه سرك ، وشاوره في أمرك [(٢)] » .

ويقولون كذلك: « وهكذا ينبغي لمن حصلت عنده هذه الرسائل ألا يضيعها بوضعها في غير أهلها ، أو بذلها لمن لم يرغب فيها ، ولا يظلمها بمنعها عن مستحقها ، وصرفها عن مستوجبها ، ولا يعرفها إلا لكل حر خيرٍ سديد مبصر للقصد . . . وليحرز في حفظها وإسرارها وإعلانها وإظهارها كل التحرز ، ويحرسها غاية الحراسة ، ويصنها أحسن الصيانة [(٣)] » .

« إنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوى السلطنة الأرضية ، ولا حذرا من شغب جمهور العوام ، ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا ، كما أوصى المسيح عليه السلام فقال : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم [(٤)] » .

واستمع إلى هذه الرسالة التي أرسلها المعز لدين الله الفاطمي إلى الحسن ابن احمد القرمطي الملقب بالأعصم ، حينما زحف بقوته على مصر : « فما من جزيرة

---

(١) رسائل ج ٤ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) ج ٤ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) ج ١ ص ٢٠ . (٤) جـ ٤ ص ٢١٥.

فى الأرض ، ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا ، ويأخذون بذمتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن ، وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم [١] » .

وهاك ماقاله إخوان الصفاء مشابها لهذه الكلمات : واعلم أيها الأخ البار الرحيم أن لنا إخوانا وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين فى البلاد ، فمنهم طائفة من أولاد الملوك والتجار والتناء ، ومنهم طائفة من أولاد العلماء ، والأدباء والفقهاء وحملة الدين ، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس ، وقد ندبنا لكل طائفة منهم أحدا من إخواننا ممن ارتضيناه فى بصيرته ومعارفه لينوب عنا فى خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم [٢] » .

هذا وقد اشترك إخوان الصفاء مع الباطنية فى الاهتمام بالفلسفة ، وعولوا على طلاب الفلسفة فى تفهم دعوتهم ؛ لأنهم قد تحرروا على الأقل من محبة الشريعة ، والتعصب لها ، وصار عندهم بعض الاستعداد للتنكر لها فبعض الآراء الفلسفية التى اعتقدوها لم تكن توافق العقيدة . ويدل على اهتمام الباطنية بالفلسفة تلك الرسالة التى أرسلها عبيدالله بن الحسن القيروانى الداعية الشهير إلى

---

(١) اتعاظ الحنفاء ص ١٣٩ .

(٢) رسائل جـ ٤ ص ٢١٤ .

سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابى زعيم القرامطة حيث قال له : « ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منه رشدا ، فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا [١] » .

وذكر الشهرستانى : « إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج [٢] » ، وسنعرف فيما بعد مدى اشتراكهم وإخوان الصفاء فى بعض الآراء الفلسفية .

ويقول دوزي : « لم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ، ولـكن بين الثنوية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانيـة ، ولم يكن يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة ، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضى بسره ، وخفى عقيدته [٣] » .

وأما إخوان الصفاء فقد عظموا من أمر الفلسفة كثيراً ، وعرفوها « بأنها التشبه بالإله بحسب طاقة الإنسان [٤] » وقالوا : « واعلم أيها الأخ أنا جماعة إخوان الصفاء أحق الناس بالعبادة الشرعية ، ومراعاة أوقاتها ، وأداء فروضها

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ .

(٢) الشهرستانى فى الملل والنحل ( على هامش الفصل فى الملل والأهواء والنحل — لابن حزم ) ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) دوزى ٢٦٠ — ٢٦٢ . Eassai sur l'Histoire de l'Islamism

(٤) رسائل ج ١ ص ٢٢١ .

ومعرفة تحليلها وتحريمها ؛ لأنا أخص الناس بها ، وأولاهم بحملها ، وأقرب الناس إلى من جاءت على يديه وأولاهم به ، وأحق الناس أيضاً بالعبادة الفلسفية الإلهية والقيام بها ، والأخذ لها ، والتجديد لما دثر منها [١] » .

ونرى فى هذه العبارة أنهم يعترفون بالتشيع ، بل يدعون أنهم أخص الناس بالدعوة المحمدية ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) ، وأنهم أقرب الناس إلى من جاءت على يديه ، أى أنهم أهله وعشيرته ، ثم يقولون بأنهم أحق النـاس بالعبادة الفلسفية الإلهية ، ولم يعللوا هذه الأحقية .

وقالوا : « إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنهـا حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية » ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الـكمال [٢] .

كل هذا يدلنا على أن إخوان الصفا ، والباطنية ، قد اتخذوا من الفلسفة أداة لدعوتهم يشككون بها الناس فى عقائدهم ، ويجذبونهم نحو فـكرتهم ، واتخذوا من طلاب الفلسفة أنصارا لهم ؛ لأنهم أجرأ الناس على الشريعة التى يريد الباطنية هدمها ، وإن تظاهروا بخلاف ذلك .

وإذا وازنا بين بعض آراء إخوان الصفاء الفلسفية ، وبين بعض آراء الباطنية وجدنا الشبه تاما .

---

(١) رسائل ج ٤ ص ٣٠٦ .

(٢) ج ١ ص ٢٤ .

ذكر الشهرستانى أن الباطنية القديمة قالوا : « إن الله أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الثانى الذى هو غير تام .. وقالوا لما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال ، واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة ، فحدثت الأفلاك السماوية ، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها [١] » .

وقال إخوان الصفاء : « إن الله تعالى لما كان تام الوجود كامل الفضائل عالما بالكائنات قبل كونها ، قادراً على إيجادها متى شاء ، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل فى ذاته فلا يجود بها ، ولا يفيضها . فإذاً بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض من عين الشمس النور والضياء ودام ذلك الفيض منه متصلا متواتراً غير منقطع ، فيسمى أول ذلك الفيض العقل الفعال ، وهو جوهر بسيط روحانى محض فى غاية التمام والكمال والفضائل وفيه صور جميع الأشياء ، كما تكون فى فكر العالم صور المعلومات ، وفاض من العقل الفعال فيض آخر دونه فى رتبته يسمى العقل المنفعل وهى النفس الكلية ، وهى جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال على الترتيب والنظام ، كما يقبل التلميذ من الأستاذ التعليم .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل هامش الفصل بين الملل والنحل لابن حزم ج٢ ص٣٠ .

وفاض من النفس أيضا فيض آخر دونها فى الرتبة يسمى الهيولى الأولى ، وهى جوهرة بسيطة روحانية قابلة من النفس من الصور والأشكال بالزمان شيئاً بعد شيء .

فأول صورة قبلت الهيولى الطول والعرض والعمق ، فكانت بذلك جسما مطلقا وهو الهيولى الثانية ، ووقف الفيض عند وجود الجسم ، ولم يفض منه جوهر آخر لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية ، وغلظ جوهره وبعده من العلة الأولى . ولما دام الفيض من البارى تعالى على العقل ، ومن العقل على النفس ، عطفت النفس على الجسم ، فصورت فيه الأشكال والصور والأوضاع لتتمه بالفضائل والمحاسن ، بحسب ما يمكن من قبول الجسم وصفاء جوهره .

فأول صورة عملت النفس فى الجسم ، الشكل الكرى الذى هو أفضل الأشكال ، وحرّكته بالحركة الدورية التى هى أفضل الحركات ورتبت بعضها فى جوف بعض من لدن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض وهى إحدى عشرة كرة [1] » .

فما قاله اخوان الصفاء فى نشأة الوجود ، وما أثر عن الباطنية متشابه تمام التشابه ، وسترى فيما بعد أن هذا الرأى يناقض العقيدةالإسلامية .

---

(١) رسائل ج ٣ ص١٩٧، ١٩٨ .

— ٤ —

**آراؤهم فى الخلافة** : ولعل أقوالهم فى الخلافة ، وفى أحقية أهل البيت بها ، وفى الإمام المستور مما يؤيد نسبة إخوان الصفا إلى الطوائف الباطنية من الشيعة .

« وهكذا يجرى أمر المستخلفين من ذرية آدم فى الأرض ، من كان منهم مستخلفافيها بأمر الله تعالى الذى استخلف به آدم بعد التوبة ، وهوالأمر الثانى والوصية الثانية ، التى لم يتعدها ولم ينسها وجعلها كلمة باقية فى عقبه ، وخلافة النبوة ، ومملكة الرسالة والإمامة .

« فمن تعدى هذا الأمر وخالف هذه الوصية وطلب أن يكون خليفة الله تعالى ليدبر خلقه بسعيه وحرصه فإنه لايتم له ، وإن تم وقدرعليه فإنما هو خليفة إبليس ؛ لأنها حيلة ومكيدة وخديعة وتعد وغصب وظلم وعدوان وخذلان وطغيان وعصيان[1] » ، وهذه كلمة صريحة كشفت عن رأيهم فى الخلافة القائمة لزمانهم ، وعما يعتقدونه فيها من أنها اغتصبت حق آل البيت ، وأن العباسيين خلفاء إبليس ، وأنهم لجأوا إلى الحيلة والمكيدة والخديعة ، وأن انتزاعهم الخلافة من آل البيت مع أن الدعوة كانت لهم أول الأمر تعد وظلم وعدوان وخذلان وطغيان واغتصاب .

وهاك نصاً آخر أوضح وأوفى يبين رأيهم فى الخلافة ، وفى الإمام المستور :

« والذين هم الخلفاء بغير هذه الصفة مثل الأنبياء والأئمة والتابعين لهم

(١) رسائل جـ ٤ ص ٤٠٤

بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر هم خلفاء الله تعالى التابعون لأمره ، وبهم صلاح العالم ، وربما كانوا ظاهرين بالعيان موجودين فى المكان فى دور الكشف ، وبالضد من ذلك فى دور الستر ، غير أنهم فى دور الستر لايكونون مفقودى الوجه جملة من أعدائهم ». ويقولون : من يعتقد أن الإمام مختف من خوف المخالفين مثل من يعتقد أن الله قتله اليهود (١)

فأما أولياؤهم فيعرفون مواضعهم ، ومن أراد منهم قصدهم تمكن منه ، ولو كان غير ذلك ، كان منه خلو الزمان من الإمام الذى هو حجة الله على خلقه ، وهو تعالى لايرفع حجة ، ولا يقطع الحبل الممدود بينه وبين عباده ، فهم أوتاد الأرض وهم الخلفاء بالحقيقة فى الدورين جميعا ؛ فنى دور الكشف يظهر ملكهم فى الأجسام والأرواح ، وفى دور الستر يجرى أمرهم فى الأنفس والعقول وأصحاب المملكة الأرضية والخلافة الجسمانية»(٢). فنى هذا النص المتقدم يعتقدون أن الأئمة من آل البيت هم الخلفاء فى الحقيقة سواء كانوا معروفين للناس أو مستورين وهم فى دور الستر يعرفهم أولياؤهم ولايمكن أن يخلو الزمان من واحد منهم ؛ لأنهم حجة الله على عباده وهم أوتاد الأرض ، وهم فى دور الكشف لهم مملكة من الأحياء ، وفى دور الستر لهم مملكة من الأنفس والأرواح

وفى هذا ننقل بعض ماقاله الكلينى عن الإمام فى كتابه الكافى ـ وهو من أوثق كتبهم ، فالإمام عندهم له صلة روحية بالله من جنس التى للأنبياء

---

(١) جـ ٣ ص ٨٦ ، جـ ٤ ص ٥٧ ـ ٥٨

(٢) جـ ٤ ص ٤٠٦ ، ٤٠٧

والرسل . « كتب الحسن بن العباس المعروف بالرضا : جعلت فداك ! أخبرنى ما الفرق بين الرسول والإمام والنبي ؟ فكتب أو قال : الفرق بين الرسول والنبي والإمام : أن الرسول هو الذى ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحى ، وربما رأى فى منامه نحو رؤيا ابراهيم ، والنبى ربما سمع الكلام ، وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والإمام هو الذى يسمع الكلام ولا يرى الشخص[١] » .

فالإمام عند الشيعة يوحى إليه ، ولقد صرح إخوان الصفا بأن علم آل البيت « إن هو إلا علم إلهى ، وتأييد ربانى ينزل به كرام كاتبون وحفظة حاسبون يلقونه بأمر الله عز اسمه على من اصطفاه من خلقه ، وارتضاه بخلافته فى أرضه[٢] »

ويقول الكلينى : « والله أعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم ، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم ، وهو حجة على عباده ، ولا تبقى الأرض بغير إمام ، حجة لله على عباده ، ولو لم يبق فى الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجة وكان هو الإمام[٣] » .

« والأئمة هم أركان الأرض أن تميد بها ، وحجته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى[٤] » .

وكان الشيعة يحكمون بالكفر على من ادعى الإمامة وليس من أهلها وهذا ماقاله إخوان الصفا كما علمت .

---

(١) كتاب أصول الكافى طبع فارس ص٨٢

(٢) رسائل ج ٤ ص ٤٠٥

(٣) أصول الكافي للكلينى ص ٨٤

(٤) نفس المصدر ص ٩٣

ومما رواه الكليني : قال : « قال أبو عبد الله من ادعى الإمامة وليس من أهلها فهو كافر[١] » .

ويقول إخوان الصفا كذلك : « واعلم يا أخي أن أقوى ما يكون فعل إبليس في دور الستر ، وذلك لأن حجة الله عز اسمه في أرضه ، وخليفته في عباده يكون مختفياً مستوراً ، وإن كانت أنواره تضيء في نفوس العارفين به والراجعين إليه الذين لا يغيرهم ما يرونه من قوة ملوك الدنيا وخلفاء الشياطين ، فإنها أمور زائلة مضمحلة فانية لا بقاء لها ولا دوام ، ولا ينظر إمامهم إلى ملكه وسلطانه في دور ستره ، ولا يشككهم فيه دور الخفاء والاستتار ، بل يكون الإمام عندهم في حال ستره وخفائه ؛ لأن جميع ما يجوزونه على النبي المرسل فقد يجوزون مثله على الوصي وعلى الإمام ؛ إذ كان النبي أشرفهم وأعلاهم رتبة ، فهم يجوزون على النبي الموت والقتل والهرب من الأعداء ، إذا لم يجد أنصاراً ، والأكل والشرب ، والنكاح والفرح ، والغم ، وأن الأمور الفلكية تطرأ على أجسامهم كما تطرأ على أجسامنا غير أن نفوسهم الروحانية الشريفة النورانية هي من خارج الأفلاك ، فلا يحكم الفلك على أنفسهم بل على أجسادهم ، وأنهم بالأجساد مثلنا ، غير أن بالأنفس فرقا بيننا وبينهم مثل ما بين الحيوان غير الناطق وبيننا[٢] » .

وهذا لعمري كلام واضح لا يحتاج إلى شرح يؤيد تأييداً قوياً أنهم من الباطنية الذين يقولون بالإمام المستور ، ثم يدافعون عن تستره ،

---

(١) أصول الكافي للكليني ص ١٨٧ .

(٢) رسائل ج ٤ ص ٤٠٨ .

ويعقدون موازنة بينه وبين النبى ، ثم يرفعونه إلى أعلى من مستوى البشر ، وأن الفرق بين نفسه ونفس بقية الناس ، كالفرق بين الإنسان والحيوان .

— ٥ —

التقية : هذا ومن المبادىء المشهورة عند الشيعة « التقية » وفى القرآن : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة » وفى قراءة « إلا أن تتقوا منهم تقية » ومعناها أن يحافظ المرء على عرضه أو نفسه أو ماله مخافة عدوه ، فيظهر غير مايضمر ، فهى مداراة وكتمان ، وتظاهر بغير الحقيقة .

والتقية عند الشيعة جزء من نظامهم السرى ، وتعاليمهم فى سبيل الوصول إلى الخلافة . فإذا أراد إمام الخروج والثورة على الخليفة وضع لذلك نظاما وتدابير وأعلم أصحابه بذلك فتكتموه ، وأظهروا الطاعة ، حتى يتم لهم المراد ، فعملهم هذا تقية .

وإذا أحسوا ضرراً من كافر أو سنى داروه ، وجاروه وأظهروا له الموافقة وكان هذا من التقية ـ إلى غير ذلك .

وقد روى الكلينى فى التقية أخباراً كثيرة ـ فروى عن أبى عبد الله أنه قال : « تسعة أعشار الدين فى التقية ، ولادين لمن لاتقية له » والتقية فى كل شىء إلا فى النبيذ ، والمسح على الخفين . وقال فى قوله تعالى :

« أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » أى بما صبروا على التقية[1] .

---

(١) أنظر الكلينى فى الكافى ص ٤٠٠

وقد قال إخوان الصفاء بالتقية مثل ماقال الشيعة: « فأعيادنا أيها الأخ هي أشخاص ناطقة ، وأنفس فعالة ، تفعل بإذن باريها مايوحيه إليها ، ويلهمها من الأفعال والأعمال : فاليوم الأول من أيامنا ، والعيد الفاضل من أعيادنا هو يوم خروج أول القائمين منا ، ويكون اليومَ الموافق لنزول الشمس برج الحمل ؛ لمجيء الربيع والخصب ، والنعمة ونزول الرحمة ، والظهور والانتشار ، وهو يوم فرح وسرور لنا ولجميع إخواننا . واليوم الثانى هو يوم قيام الثانى ، الموافق يوم قيامه يومَ نزول الشمس أول السرطان فى تناهى طول الليل وقصر النهار ؛ إذ كان تصرم دولة أهل الجور ، وانقضاؤها . وهو فرح وسرور وانتشار . .

واليوم الثالث هو يوم قيامة ثالثنا الموافق لنزول الشمس أول الميزان ، واستواء الليل والنهار ، ودخول الخريف ، وهى مقاومة الباطل الحق ، وكون الأمر على خلاف ما كان عليه .

ثم اليوم الرابع يوم الحزن والكآبة ، يوم رجوعنا إلى كهفنا وكهف التقية والاستتار ، فيكون الأمر على مثل مانحن عليه فى وقتنا إلى وقت البروز والخروج والرجوع بعد الذهاب ، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل .

« واعلم يا أخى أن فى هذه المدة يميز الله الخبيث من الطيب ، ويرفع أهل العلم درجات لم يكونوا لينالوها إلا بصبرهم واحتسابهم فى جنب مايصيبهم ، فلا تنكر أيها الأخ ماذكرنا ، من أن الزمان لايدوم بصفائه . إن الصفاء إنما يعرف بالكدورة ، والعدل بالجور ، والصحة بالسقم ، وانما صفاء إخوان الصفاء لما أخلصوا الصبر على البلوى فى السراء والضراء ، واستسلموا لربهم

وانقادوا إليه بنفوس ساكنة مطمئنة[1] » .

— ٦ —

**الإسماعيلية المعاصرون:** وقد مر بنا أن الشيعة الإسماعيلية المعاصرين ، يعتقدون أن مؤلف رسائل إخوان الصفا أحد الأئمة من آل البيت ، وأن هذا الإمام هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق .

وقد ذكر هذا أغاخان زعيم الإسماعيلية فى كتابه «نور مبين حبل الله المتين» الذى تكلمنا عما جاء به خاصاً بإخوان الصفاء آنفاً .

واعتقادهم هذا يدل على ما لرسائل إخوان الصفاء عندهم من منزلة رفيعة وأنها تحوى تعاليم الطائفة ؛ وربما وجد فى الرسائل ذاتها مايفيد أن بعض المؤلفين من آل البيت ، فقد ورد بعد ذكر الرسائل وعددها ، وأنها أشبه بالمقدمات للعلوم: « لكنها إذا نظر فيها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها ، وعرفوا حقيقة ماهم مقرون به من تفضيل أهل بيت النبى عليه السلام ؛ لأنهم خزان علم الله ووارثو علم النبوات ، تبين لهم تصديق مايعتقدون فيهم من العلم والمعرفة والفهم والتمييز والبصيرة فى الآفاق » .

فكأن الرسائل دليل يقوم على غزارة علم أهل البيت ، وأنهم وارثوا علم النبوات ، وأنهم أهل فهم وتمييز وبصيرة فى الآفاق ، وأنها تؤيد اعتقاد الشيعة فى آل البيت . وهذا كله إشارة بينة إلى أنهم من آل البيت . وقد يكون بعض

---

(١) رسائل جـ ٤ ص ٣٠٨

مؤلفى الرسائل من آل البيت حقاً ، ولكن الرسائل لم يؤلفها شخص واحد على كل حال كما ذكرنا آنفا .

وقد ذكر الدكتور حسين الهمْدانى وهو من شيعة الدعوة الإسماعيلية القديمة(١) : « إن الإسماعيلية يرون القرآن الكريم كتاب العامة ، ويرون رسائل إخوان الصفا كتاب الأئمة » .

فإذا استعرضنا كل ماذكر فى هذا الفصل من أقوال إخوان الصفا فى رسائلهم ، ومن أقوال العلماء وآرائهم فى إخوان الصفا ، ومن الموازنة بين ماجاء فى الرسائل ، وما أثر عن الباطنية ، ومن رأى إخوان الصفا فى الخلافة وفى الإمامة ، وقولهم بالتقية والمهدى المنتظر ، والإمام المستور ، تبين لنا أن إخوان الصفا ينتمون إلى الشيعة الباطنية ، وإن لم يصرحوا بهذا ، ولم يكن ينتظر منهم أن يصرحوا ، وتكتمهم هذا هو الذى جعلنا نطيل المقام فى الاستشهاد والاستنتاج حتى نصل إلى رأى قريب من الصواب .

---

(١) للاسماعيلية دعوتان : دعوة قديمة وأهلها اليوم اسماعيليو اليمن فى جبال « حراز » وعددهم ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف ؟ وكانوا أكثر من ذلك فأباد الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن فريقا كبيراً منهم . ودعوة جديدة وأهلها فى الهند والشام وإمامها أغاخان راجع ص ٦٣ ، ٦٤ من هذا الكتاب

# الفصل السابع

## رسائلهم وفلسفتهم

### – ١ –

**موضوع الرسائل** : رسائل إخوان الصفاء موسوعة ضمت بين دفتيها مبادىء العلوم ، التي كانت معروفة فى البلاد العربية ، حتى القرن الرابع الهجرى ولاسيما تلك التى ترجمت من اليونانية ، وقد اعترف إخوان الصفا بأنهم ألفوها كنماذج ومقدمات ، فلم يتوسعوا فى بسط قضاياها ، ويقولون فى ذلك :

« واعلم يا أخى أنا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة فى فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج[1] » وختموها بتلك الرسالة التى سموها الجامعة ، وهى فى رأيهم خارجة عن جملة الرسائل ، ولعل هذا هو السبب فى عدم وجودها لدينا: « اعلم أيها الأخ البار الرحيم ... أنا قد جعلنا فى كل رسالة من رسائلنا فصلا جعلناه من لبها وخالصها إذا وفق له من فهمه ، وعمل به نال السعادة فى الدنيا والآخرة ، وقد لخصنا ما أوردناه فى رسائلنا الإحدى والخمسين فى رسالة مفردة عن الرسائل سميناها « الجامعة »

---

(١) رسائل جـ ٤ ص ٢٣٣ .

وهى خارجة عن جملة الرسائل ، أوردنا فيها بيان ما أخذناه فى غيرها بأخص ما أمكننا منه ؛ فليس تكاد تجتمع رسائلنا كلها عند رجل واحد إلا من سهل الله تعالى له ذلك ، فعملنا تلك الرسالة لتنوب عن أخواتها . غير أن الأصوب والأجود عندنا ألا تقرأ الرسالة الجامعة إلا بعد قراءة رسائلنا الإحدى والخمسين ؛ فإنه إذا قرأها بعد قراءة هذه كثر نفعه ، وانفتح عليه ما انغلق من رسائلنا . وإن وجدها ، وفاتته الرسائل أو بعضها لم يخل من فوائدها[1] »

وقد وضع إخوان الصفا لرسائلهم مقدمة ، أشبه بالفهرس ، بينوا فيها بإيجاز عدد الرسائل والموضوعات التى تعرض لها كل رسالة :

« هذه فهرست رسائل إخوان الصفا ... وهى اثنتان وخمسون رسالة[2] فى فنون العلم وغرائب الحكم ، وطرائف الآداب ، وحقائق المعانى عن كلام خلصاء الصوفية — صان الله قدرهم ، وحرسهم حيث كانوا فى البلاد . وهى مقسومة على أربعة أقسام فمنها رياضية تعليمية ، ومنها جسمانية طبيعية ، ومنها نفسانية عقلية ومنها ناموسية إلهية[3] » .

ثم أخذوا يبينون رسائل كل قسم ، ويشرحون باختصار الغرض من كل رسالة ؛ فالقسم الرياضى عندهم أربع عشرة رسالة : العدد ، والهندسة ،

---

(١) رسائل ج ٤ صفحة ٢٩٠ .

(٢) اختلف فى عدد الرسائل والأرجح أنها أحدى وخمسون رسالة ، ثم تضاف إليها الرسالة الجامعة فيكون المجموع اثنتين وخمسين ، وهذه الرسالة الجامعة لاتوجد فى المجموعات التى بين أيدينا .

(٣) رسائل ج ١ ص ٣ .

والموسيقى والفلك ، والجغرافيا ، والنسب العددية ، والصنائع العلمية والنظرية ، والصنائع العملية والمهنية ، ثم المنطق بمقولاته ، وعبارته ، وبراهينه ، وعدتها سبع عشرة رسالة .

ويتكلمون فى الطبيعيات عن الهيولى ، والصورة ، والسماء والعالم ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، وتكوين المعادن وماهية الطبيعة وأجناس النبات ، وأصناف الحيوان ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، والإنسان عالم صغير ، واللذات والآلام ، واختلاف اللغات ، وكيف ابتدأت المذاهب والديانات ونمت .

والرسائل النفسانية العقلية تشتمل على عشر رسائل : فى المبادىء العقلية على رأى الفيثاغوريين ، والمبادىء العقلية على رأى إخوان الصفا ، وفى البحث عن علة الأشياء ، وأسباب الكائنات ، وفى العالم إنسان كبير ، وفى العقل والمعقول ، وماهية العشق ، والبعث والحساب والقيامة ، وفى أنواع الحركات ، وفى العلل والمعلولات ، وفى الحدود ، والرسوم .

وأما الناموسية الإلهية فعدتها إحدى عشرة رسالة تبحث فى الآراء والمذاهب وبيان اعتقاد إخوان الصفا ، وكيفية عشرتهم ، وماهية الأيمان ، والوحى ، وأعمال الجن والملائكة والشياطين ، وأنواع السياسات ، وماهية السحر وما يتصل بها .

ويقولون : إنهم اختتموا الرسائل بالرسالة الجامعة ، وفيها الأدلة البرهانية على ماتقدم من القضايا . أما الرسائل ذاتها فلم تحو إلا أدلة إقناعية لا برهانية[1] .

(١) جـ ١ ص ١٥ .

أما هذه الجامعة ففيها معانى الرسائل « ملخصة مستوفاة ، مهذبة مستقصاة ، ببراهين هندسية يقينية ، ودلائل فلسفية حقيقية ، وبينات علميـة ، وحجج عقلية ، أو قضايا منطقية ، وشواهد قياسية ، وطرق إقنـاعية ، لا يقف على كنهها ، ولا يحيط بحقائقها ، ولا يحصلها ولا شيئا منها إلا من ارتاض بما قدمنا وحذق وعرف وتدرب فيها ؛ إذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها ، والمدخل إليها والأدلة عليها ، والأنموذج منها [١] » .

ومن سوء حظنا أننا لم نعثر على هذه « الجامعة » ، لنعرف إلى أى مـدى حقق إخوان الصفا ماذكروه عنها . وقد بينا فى فصل سابق أنه قد كثرت دعاوى من ظن أنه عثر على هذه الرسالة ؛ وقد ناقشنا هـذه الدعاوى بما فيه الكفايه ثمة ، وقد شبهوا رسائلهم بالنسبة للجامعة ببستانى له حديقة ، لم تر العين مثلها حسنا وإبداعا ، وأراد لكرمه أن يدعو الناس إليها ، والتمتع بما فيها ، فأخذ نماذج من أزهارها ورياضها وفاكهتها ، ووقف أمام بابها يعرضها على الناس ، حتى إذا تذوقوها وعرفوا مزاياها ، واشتاقت نفوسهم لدخول البستان أفسح لهم الطريق ، كى يتمتعوا ماشاءوا ويتلذذوا ويطربوا .

ولم يقتصر إخوان الصفاء فى رسائلهم على الفلسفة أو العلم ، بل خلطوهما بكثير من الخرافات والأساطير ، وحاولوا أن يمزجوا الدين بالفلسفة ، جاهدين أنفسهم فى الاشتشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، على نظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم ، وخير ماقيل فى وصفها هو

---

(١) جـ ١ ص ١٩ .

قول أبي حيان التوحيدي : « هي من كل فن بلا إشباع ولا كفاية وهي خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات »[١] .

وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دُنِّسَتْ بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها ، وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية ، والشريعة العربية فقد حصل الكمال . . ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق المهملة[٢] .

— ٢ —

**طريقة استدلالهم:** والواقع يثبت رأى أبي حيان ، فالرسائل لاتعمق فيها ، ولا نظام يربط بين فصولها ، وفيها تكرار وحشو ، واستطراد كثير .

وعندى أن الرسائل كانت أشبه بموسوعة تبسط فيها المسائل الفلسفية الأوليـة بأسلوب يوافق عقلية العامة ؛ وحتى لاينفروا من الفلسفة ، ومن رسائلهم أخذ مؤلفوها يستشهدون بالأحاديث والآيات الكريمة ، وبأقوال من التوراة والإنجيل ، وينسبون أشياء إلى نوح وابراهيم وعيسى ، ويروون قصصا وأساطير يستدلون بها على مايريدون ، ويخلطون كل ذلك بالفلسفة خلطا عجيبا . خذ مثلا محاولتهم البرهنة على خلود النفس ، فإنك لاترى سوى أساطير

(١) وهذا لايمنع أن فيها آراء صائبة ، ونظريات علمية محققة .

(٢) الرسائل مقدمة زكى باشا .

تحكى عن الأنبياء ، وعن آل البيت ، وسقراط ، وأرسطو ، وابراهيم ، ونوح وأفلاطون ، وفيثاغورس وماقاله كل وماعمله كل :

« ومما يدل على أن ابراهيم خليل الرحمن كان يرى هذا الرأى قوله : ربى « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدّين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ».

وهكذا قول يوسف الصديق : « رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

أترى أنهما أرادا اللحوق بالصالحين بجسديهما أو نفسيهما ؟ وهل ألحق جسداهما إلا بتراب الأرض التى منها خلقا ، وإنما أراد نفسيهما الزكيتين الشريفتين » .

« ومما يدل على أن أهل بيت نبينا عليهم السلام كانوا يرون هذا الرأى تسليمهم أجسادهم إلى القتل يوم كربلاء ، ولم يرضوا أن يتولوا على حكم يزيد وزياد ، وصبروا على العطش ، والطعن والضرب ، حتى فارقت نفوسهم أجسادهم ولو لم يكن القوم مستيقنين ببقاء نفوسهم بعد مفارقة أجسادهم لما تعجلوا إهلاك أجسادهم » .

« ومما يدل على أن الفلاسفة الحكماء المتألهين كانوا يرون هذا الرأى

ويعتقدونه تسليم سقراط جسده للتلف ، وتناوله شربة السم ، اختياراً منه . . . الخ[١] » ، وقال أرسطو فى كتاب الثالوجيا شبه الرمزانى : «ربما خلوت بنفسى وخلعت بدنى ، وصرت كأنى جوهر مجرد بلا بدن، فأكون داخلا فى ذاتى ، خارجا عن جميع الأشياء ، فأرى فى ذاتى من الحسن والبهاء ، ما أبقى له متعجباً فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف[٢] »

« ويحكى أن هرمس المثلث الحكمة وهو إدريس عليه السلام صعد إلى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة ، حتى شاهد جميع أحوال الفلك ، ثم نزل إلى الأرض، فخبر الناس بعلم النجوم؛ قال تعالى « ورفعناه مكاناً عليا[٣] »

« وإنما استشهدنا على هذا الرأى بأقاويل الفلاسفة ووصاياهم ، وأفعال الأنبياء وسنن شرائعهم ، لأن فى الناموس أقواما متفلسفين لايعرفون من الفلسفة إلا اسمها ، وأقواما من الشرعيين لايعرفون من أسرار الشريعة إلا رسومها يتصدرون ويتكلمون فيها بما لايحسنون ، ويتناظرون فيما لايريدون، فيناقضون تارة الفلسفة بالشريعة ، وتارة الشريعة بالفلسفة ، فيقعون فى الحيرة والشكوك فَيضلون ويُضلون[٤]»

فكلامهم هذا واستدلالاتهم لاتنهض أمام المقاييس العلميـة ، وترينا أن

---

(١) رسائل ج ٤ ص ٩٨ ــ ١٠١

(٢) ج ١ ص ٩٢ ــ ويلاحظ أن هذا الكلام ليس لأرسطو وإنما لأفلوطين فى كتاب الربوبية المنسوب خطأ لأرسطو

(٣) ج ١ ص ٩٢ (٤) رسائل ج ٤ ص٩٨ ــ ١٠١

تفكيرهم وأسلوبهم بعيدان كل البعد عن التفكير الفلسفى والأسلوب العلمى .

وهاك ماهو أدهى وأمر مما عززوابه رأيهم فى خلود النفس : «ومما يدل على بقاء النفوس بعد مفارقتها أجسادها : أن كل عاقل يتفكر فى بكاء الناس وأحزانهم على موتاهم وقت مفارقة نفوسهم أجسادها ، فلو كان بكاؤهم على أجسامهم ، فمالهم والبكاء . ؟ والأجساد بحضرتهم برمتها ، وهم يشاهدونها لم ينقص منها شىء ..

ومما يدل على بقاء النفس وصلاح حالها بعد مفارقتها أجسادها ذهاب الناس إلى قبور الصالحين والأولياء والأخيار؛ لطلب الغفران واستجابة الدعاء والتوسل بهم إلى الله عز وجل ، ومايرجون من شفاعتهم عند ربهم ، وما يطلبون أيضا من قضاء حوائجهم من أمور الدنيا بالدعاء عندقبورهم ، أفترى أن أهل الديانات كلهاتفقواعلى شىء لاحقيقة له ؟ كلا ![1].»

فهذه براهين تصلح للعامة وتناسب عقولهم وليست من الفلسفة فى شىء، وهكذا تخرج من هذا الموضوع إذا بحثته عند إخوان الصفا بحثاً علمياً صحيحاً كما ابتدأت فيه دون أن تقتنع ، وعلى هذا النمط من الاستدلال سار إخوان الصفا فى رسائلهم كلها .

— ٣ —

**آراؤهم الخيالية** : لا أريد أن أحصى هنا كل آراء إخوان الصفا الخيالية

---

(١) رسائل جـ ٤ ص ١٠١ — ١٠٢ .

وما خاضوا فيه من خرافات ، وإنما نريد أن نضرب أمثلة على إغراقهم في الخيال أحيانا ، فأنت تراهم مثلا فى رسالة العدد ، وفى القسم الرياضى كله يتبعون الفيثاغوريين ، فلا يهتمون فى البحث فى علم الحساب ، مثل اهتمامهم بخواص الأعداد ، وبتأثير الموسيق فى النفوس ، وبالكلام عن موسيقى الأفلاك :

**أسرار الأعداد** : « واعلم بأن كون العدد على أربع مراتب، التى هى الآحاد والعشرات ، والمئات والألوف ، ليس أمرا ضروريا لازما لطبيعة العدد ، مثل كونه أزواجا وأفرادا ، صحيحاً وكسوراً ، بعضها تحت بعض ، لكنه أمر وضعى رتبته الحكماء باختيار منهم ، وإنما فعلوا ذلك ؛ لتكون الأمور العددية مطابقة لمراتب الأمور الطبيعية . وأكثرها جعلها البارىء جل ثناؤه مربعات مثل الطبائع الأربع ، التى هى : الحرارة والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ؛ ومثل الأركان الأربعة التى هى النار ، والهواء ، والماء ، والأرض ؛ ومثل الأخلاط الأربعة التى هى الدم ، والبلغم ، والمرتان : المرة الصفراء ، والمرة السوداء ؛ ومثل الأزمان الأربعة التى هى الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء ؛ ومثل الجهات الأربع والرياح الأربع .. الخ .

واعلم أن هذه الأمور الطبيعية إنما صارت أكثرها مربعات بعناية البارى جل ثناؤه واقتضاء حكمته ؛ لتكون مراتب الأمور الطبيعية مطابقة للأمور الروحانية، التى هى فوق الأمور الطبيعية وهى ليست بأجسام ؛ وذلك أن الأشياء التى فوق الطبيعة على أربع مراتب : أولها البارى جل جلاله ، ثم دونه

العقل الكلى ، ثم دونه النفس الكلية، ثم دونه الهيولى الأولى، وكل هذه ليست بأجسام [١] »

والواحد من الأعداد هو أصل كل الأعداد ، وعنه تصدر بالتكرار ؛ ويذهبون مذهب الفيثاغوريين فى ذلك، وهو أن الواحد أصل الوجود :

«واعلم أن البارى ـ جل ثناؤه ـ أول شىء اخترعه وأبدعه من نور وحدانيته جوهر بسيط يقال له العقل الفعال ، كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار ، ثم أنشأ النفس الكلية الفلكية من نور العقل، كما أنشأ الثلاثة بزيادة الواحد على الاثنين ، ثم أنشأ الهيولى الأولى من حركة النفس ، كما أنشأ الأربعة بزيادة الواحد على الثلاثة ، ثم أنشأ سائر الخلائق من الهيولى ، ورتبها بتوسط العقل والنفس ، كما أنشأ سائر العدد من الأربعة بإضافة ما قبلها إليها كما مثلنا قبل [٢] »

### التنجيم والفأل والزجر :

وكانوا يعتقدون فى التنجيم والفأل والزجر وغير ذلك، مما يؤدى إلى العلم بالمستقبل على زعمهم: « واعلم أن معلومات الإنسان ثلاثة أنواع ، فمنها ما قد كان مضى وانقضى ، ومنها ماهو كائن موجود فى الوقت الحاضر ، ومنها ماسيكون فى الزمان المستقبل ؛ وله إلى هذه الأنواع الثلاثة من المعلومات ثلاثة طرق : أحدها السماع والأخبار لما كان ومضى ، والآخر هو الإحساس لما هو حاضر موجود، والثالث الاستدلال على ماهو كائن فى المستقبل ؛ وهذا الطريق

(١) رسائل ج ١ ص ٢٧ ـ ٢٨ (٢) رسائل ج ١ ص ٢٩

الثالث ألطف الطرقات وأدقها ، وهو ينقسم إلى عدة أنواع ، فمنها بالنجوم ، ومنها بالزجر والفأل والكهانة ، ومنها بالفكر والروية والاعتبار ، ومنها بتأويل المنامات ، ومنها بالخواطر والوحى والإلهام ، وهذا أجلها وأشرفها ، وليس ذلك باكتساب ، ولكن موهبة من الله عز اسمه لمن شاء أن يجتبيه من عباده [١] » .

**السحر والعزائم** : وقد خصصوا فى الجزء الرابع من رسائلهم رسالة كاملة تزيد عن المائة والخمسين صفحة للسحر والعزائم والعين ، ودافعوا عن خوضهم فى هذا الموضوع بادعائهم أنه من الحكمة : « واعلم أننا رأينا اليوم أكثر الناس المتغافلين إذا سمعوا بذكر السحر يستحيل أن يصدق واحد منهم به ، ويتكافرون بمن يجعله من جملة العلوم التى يجب أن ينظر فيها ، أو يتأدب بمعرفتها وهؤلاء هم المتعالمون ، والأحداث من حكماء دهرنا المتخلفين ، والمدعين بأنهم من خواص الناس المتميزين ؛ وذلك لأنهم لما رأوا بعض المتعاملين بهذا العلم ، والخائضين فى طلبه من غير معرفة له ، إما أبله قليل العقل ، أو امرأة رعناء ، رفعوا أنفسهم عن مشاركة من هذه حاله ، إذا سمعوا بذكر السحر والطلسمات؛ أنفة منهم لئلا ينسبوا إلى الجهل ، وإلى التصديق بالكذب والخرافات ؛ إذ كان أولئك السخفاء الطالبون لهذا العلم يطلبونه لأغراض لهم سخيفة دنيئة ، من غير معرفة توجب الطلبة ، ولا المقصود منه والغرض ، ولم يعلموا أن هذا هو

---

(١) رسائل ج ١ ص ١٠٦

جزء من الحكمة ، بل هو جزء وآخر علوم الحكمة ؛ لأنه يحتاج قبله إلى تعلم علوم تتقدمه [١] »

وحسبك أن تستعرض فهرست هذه الرسالة لتقف على المسائل التى خاضوا فيها :

كالإخبار عن الأشياء الغائبة ، وفى معرفة المسائل وأجوبتها،وفى استخراج الضمير ، وفى معرفة الحمل ونوعه ، وفى موت الجنين فى بطن أمه ، وفى قدوم الرسول ، وفى معرفة الكتاب قبل أن يفض ختمه ، وفى معرفة السارق وسنه، ومعرفة جنس المسروق ... الخ ، ويطول بنا المقام لو ضربنا أمثلة مما قدموه فى باب السحر والعزائم ، وحسبك المثال الآتى :

« كان لنا صديق من فضلاء الناس وخيارهم من إخواننا ، وكان يستعين فى معيشته بصناعة النجوم ، فحضرته يوماً، وقد جاءه رجل فجلس عنده ، وقال له : قد جئتك لتخبرنى عما فى نفسى ، فأخذ الطالع وقوّمه ، وجوّد الحساب وأحسن العمل ، وصدّق العلم ، وأصاب الحكم ؛ فقال له : تسأل عن شىء سُرق ؟ قال : نعم ! ما هو ؟ فأخبره عن جنسه . فقال : كم هو ؟ فأخبره عن كميته ، قال : فمن أخذه ؟ وهل الآخذ له ذكر أم أنثى ، حر أم عبد ؟ فذكره ، فقال: كم سنه؟ فذكره ، فقال : أين ذهب؟ فأخبره ، فقال: كيف هو؟ فأعلمه؛ فمضى فى طلبه ، ثم عاد ، وقد أصاب ، فدفع إليه شيئاً صالحاً . فاستحسنت هذا منه ورأيته سحراً مليحاً ، ورأيت منفعته عاجلة والظفر به مليحاً ، فسألته

---

(١) رسائل جـ ٤ ص ٣٢٠ .

أن يفيدنى بذلك ففعل ، فكان بهذا محرضاً على طلب هـذا العلم ، والحرص فى بلوغ غايته ، والوصول إلى نهايته »[١] .

وكانوا يعتقدون بتسخير القوى الروحية من جن وملائكة وشياطين، وقد عقدوا لذلك فصلا طويلا يبينون فيه كيف يتمكنون من ذلك ، ورددوا قصصاً شتى ، بل زادوا أن سخروا أرواح الأفلاك فى قضاء الحاجات ، وقصوا حكاية عن شيخ منهم جاءه جماعة يستغيثون به ، كى يطلق صاحباً لهم من حبس الأمير بعد أن أعيتهم الحيل ، فذكر لهم أنه سيطلق سراحه الليلة ، وقد كان ، فلما سأله صديق له عن سر ذلك أخبره بأنه : « لما كان فى تلك الليـلة على ساعتين من الليـل تجردت وعملت نيرنج المريخ ، وقصدت بالنيرنج الأمير ، والمحبوس فأطلقه كما رأيت » . ولما سأله عن سبب إطلاقه قال : « سبب ذلك أن الأمير رأى فيما يرى النائم كأن قد دخل عليه رجل أشقر أزرق على رأسه شعر ، وهو مكشوف الرأس ، وبيده سيف مجرد ، يقول : إن لم تُخَل فى هذه الساعة فلاناً ابن فلان المحبوس عندك ، وجاءت الليلة ، قطعت رأسك بهذا السيف ! فكان هذا هو سبب التخلية له »[٢] .

ويؤمنون بطوالع النجوم وبتأثيرها فى السعد والنحس : « الكواكب السبعة السيارة ، اثنان منها نيران ، واثنان منها سعدان ، واثنان منها نحسان ،

---

(١) رسائل جـ ٤ ص ٤٢٠ ــ ٤٢١

(٢) جـ ٤ ص ٤٧٣ ــ ٤٧٥

وواحد ممتزج ... أما النيران فالشمس والقمر ، والسعدان المشترى والزهرة ، والنحسان زحل والمريخ ، وأما الممتزج فعطارد[١] .

**القوى الخفية :**

ولهم آراء فى الملائكة والشياطين والجن والقوى الخفية طريفة : « إن فى العالم نفوسا أفعالها ظاهرة ، وذواتها خفية يسمون الروحانيين ، وهم أجناس الملائكة ، وقبائل الجن ، وأحزاب الشياطين ؛ فأجناس الملائكة ، هى نفوس خيرة موكلة بحفظ العالم وصلاح الخليقة ، وقد كانت متجسدة قبل وقتاً من الزمن ، فتهذبت واستبصرت وفارقت أجسادها ، واستقلت بذاتها ، وفازت ونجت ، وساحت فى فضاء الأفلاك ، وسعة السموات ، فهى مغتبطة فرجانة مسرورة ملتذة ، مادامت السموات والأرض ؛ وأما عفاريت الجن ، ومردة الشياطين فهى نفوس شريرة مفسدة ، وقد كانت متجسدة قبل وقتا من الزمان ففارقت أجسادها غير مستبصرة ولا متهذبة ، فبقيت عميا عن رؤية الحقائق صماً عن استماع الصواب .. فهى سابحة فى ظلمات بحر الهيولى غائصة فى مقر من الأجسام المظلمة ، ذى ثلاث شعب ، تهوى فى هاوية البرزخ[٢] »

وأحيانا يبلغ بهم الأغراق فى الخيال حداً كبيراً ، فيدعون أن الأفلاك هى ملائكة الله : « أعلم يا أخى أن كواكب الفلك هم ملائكة الله ، وملوك سمواته

(١) رسائل جـ ١ ص ٩٥

(٢) رسالة جـ ١ ص ٩٦ ـ ٩٧

خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه ، وتدبير خلائقه ، وسياسة بريته ، وهم خلفاء الله في أفلاكه ، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه [١] » .

**موسيقى الأفلاك** : ويعتقدون « أن لحركات الأفلاك والكواكب نغمات وألحاناً طيبة لذيذة مفرحة لنفوس أهلها » ويرون كذلك : « أنه لو لم يكن لحركات أشخاص الأفلاك أصوات ولا نغمات ، لم يكن لأهلها فائدة من القوة السامية الموجودة فيهم ، فإن لم يكن لهم سمع فهم صم بكم عمى ، وهذه حال الجمادات الناقصات الوجود ؛ وقد قام الدليل وصح البرهان بطريق المنطق الفلسفي أن أهل السموات ، وسكان الأفلاك ، هم ملائكة الله وخالص عباده ، يسبحون الليل والنهار لايفترون ، وتسبيحهم ألحان أطيب من قراءة داود للزبور في المحراب ، ونغمات ألذ من نغمات أوتار العيدان الفصيحة ، فان قال قائل : ينبغي أن يكون لهم أيضا شم وذوق ولمس ، فليعلم هذا القائل بأن الشم والذوق واللمس إنما جعل للحيوان الآكل للطعام ، والشارب للشراب ، ليميز به النافع من الضار . . . وسكان الأفلاك قد كفُّوا عن هذه الأشياء ، وهم غير محتاجين إلى أكل الطعام والشراب ، بل غذاؤهم التسبيح ، وشرابهم التهليل ، وفاكهتهم الفكر والروية واللذة والفرح ...

ويقال إن فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء جوهر نفسه ، وذكاء قلبه نغمات حركات الأفلاك والكواكب ، فاستخرج بجودة فطرته أصول الموسيقى

(١) رسائل ح ١ ص ٩٨

ونغمات الألحان ، وهو أول من تكلم فى هذا العلم ، وأخبر عن هذا السر من الحكماء »[١] ، ويروون كذلك :

«ويحكى فى الحكمة القديمة أن من قدر على خلع جسده ، ورفض حواسه ، وتسكين وساوسه ، وصعد إلى الفلك ، جوزى هناك بأحسن الجزاء ، ويقال : إن بطليموس كان يعشق علم النجوم ، وجعل علم الهندسة سلماً صعد به إلى الفلك فمسح الأفلاك وأبعادها ، والكواكب وأعظامها ، ثم دونه فى المجسطى . وإنما كان ذلك الصعود بالنفس لا بالجسد وهكذا ... »[٢]

ولولا خشية الإطالة لذكرت كثيراً مما تغص به الرسائل من الخرافات والآراء الخيالية فليرجع إليها من أراد الاستزادة ، وحسبنا ما قدمناه مثلا على كيفية تفكيرهم وبعض معتقداتهم .

— ٣ —

**نظرية الفيض ومراتب الوجود** : ترجع نظرية الفيض التى لعبت دوراً كبيراً فى الفلسفة الإسلامية إلى الأفلاطونية الحديثة، وأول من قال بها أفلوطين مؤسس هذه المدرسة .

ومجمل هذه النظرية: أن لهذا العالم ظواهر جمة ، وهو دائم التغير ، ولم يوجد بنفسه ، بل لا بد له من علة سابقة هى السبب فى وجوده ، وهذا الذى

---

(١) رسائل جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣

(٢) جـ ١ ص ٩٢

صدر عنه العالم « واحد » غير متعدد ، وهو أزلى أبدى قائم بنفسه ، ولسنا نعلم عن طبيعة هذا الخالق إلا أنه يخالف كل شىء ، ويسمو على كل شىء ؛ ولما كان الله فوق العالم ، وهو غير محدود فلا يمكنه أن يخلق العالم مباشرة ، وإلا اضطر إلى الاتصال به ، مع أنه بعيد عنه لا ينزل إلى مستواه . ولما كان واحداً فلا يمكن أن يصدر عنه العالم المتعدد ، ولا يستطيع أن يخلق الله العالم ؛ لأن الخلق عمل ، أو إنشاء شىء لم يكن ، وذلك يستدعى التغيير فى ذات الله ، والله لا يتغير . فتقرر هذه النظرية أمرين متناقضين : أحدهما أن الله علة العالم وسبب وجوده ، وثانيهما أن الله فوق العالم ولا يستطيع أن يتصل به ويخلقه. فكيف فسرت هذا التناقض ووفقت بين الرأيين ؟ لم تلجأ إلى المنطق والفلسفة ، وإنما لجأت إلى الشعر والتمثيل والاستعارة ، فقال أفلوطين : « إن تفكير الله فى نفسه وكماله نشأ عنه فيض ، وهذا الفيض صار هو العالم ، وكما يبعث اللهيب ضوءاً ، والثلج برداً ، كذلك انبعث من الله شعاع كان هو العالم » .

وبهذا خرج أفلوطين من المأزق المنطقى بعبارات شعرية ؛ وعلى ذلك يكون الكون قد انبثق من الله انبثاقاً طبيعياً بحكم الضرورة ، ولكن ليس فى هذه الضرورة أى معنى من معانى الاضطرار والإلزام ، وليس فى الخلق معنى الحدوث، وليس يقتضى تغيراً فى الله .

ولما كان كل كائن قد تفرع هكذا من الواحد الأول ــ الله ــ فهو يميل بفطرته إلى العودة إلى أصله ومبعثه الذى كان صدر عنه ، ولا ينفك يحاول أن يصل إليه . أما ذلك المصدر الأول فمستقر فى نفسه ، مكتف بها ، لايتصل بما

تفرع عنه من أشياء ؛ وهذه الكائنات التى صدرت عن الله تكوّن سلماً نازلاً من درجات الكمال ، فكل شىء أقل كمالا مما فوقه ، ويستمر التناقص فى الكمال حتى ينعدم الكمال فى آخر السلم انعداما تاما ، حيث يتلاشى النور فى الظلام .

وأول شىء انبثق من « الواحد » هو العقل ، وهذا العقل له وظيفتان : التفكير فى الله ، والتفكير فى نفسه ، ومن العقل انبثقت نفس العالم ، ولها ميلان: فتميل علواً إلى « الواحد » ، وتميل سفلا إلى الطبيعة، وقد انبثقت منها النفوس البشرية التى تسكن هذا العالم . فنفس العالم ـ كالعقل ـ تنتمى إلى العالم الروحانى الإلهى ، ومع أنها ليست جثمانية فى ذاتها إلا أنها تميل إلى الأشياء الجثمانية ، فتنظر إليها .

ومن هذه النفس الأولى ، خرجت نفس ثانية سماها أفلوطين بالطبيعة . وهذه النفس الثانية هي التى تشترك وحدها مع العالم المادى كما تمتزج نفوسنا مع جسومنا ، وهذه النفس الأخيرة ـ التى هى عبارة عن النفوس الجزئية الموزعة على الكائنات ـ هى أدنى مراتب العالم الروحانى ، ويليها مباشرة المادة التى هى أبعد الكائنات عن الكمال .

ويقول أفلوطين : إن المادة هى مصدر التعدد ، وهى سبب الشرور ؛ لأنها عبارة عن العدم، والعدم أشد درجات النقص ، والنقص هو الشر ، وإذاً فالمادة هى منشأ الشرور جميعاً . وغاية الحياة التحرر من ربقة المادة[١] .

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ ، وارجع كذلك إلى فصل عن الأفلاطونية الحديثة عند الأستاذ Dresser فى كتابه :
History of Ancient and Medievale Philosophy

أعجب أخوان الصفا بهذه النظرية وقرروها فى رسائلهم، وتبعهم فى هـذا كثير من فلاسفة الإسلام ، فهم يقولون : « واعلم يا أخى . . . أن الله تعالى لما كان تام الوجود كامل الفضائل عالما بالـكائنات قبل كونها ، قادراً على إيجادها متى شاء ، لم يكن من الحـكمة أن يحبس تلك الفضائل فى ذاته فلا يجود بهـا ولا يفيضها . فإذا بواجب الحـكمة أفاض الوجود كما يفيض من عين الشمس النور والضياء ، ودام ذلك الفيض منه متصلا متواتراً غير منقطع .

ويسمى أول ذلك الفيض العقل الفعال : وهو جوهر بسيط روحانى نور محض ، فى غاية التمام والـكمال والفضائل ، وفيـه صور جميع الأشياء ، كما تـكون فى فـكر العالم صور المعلومات .

وفاض من العقل الفعال فيض آخر دونه فى الرتبة يسمى العقل المنفعل ، وهى النفس الـكلية : وهى جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال على الترتيب والنظام ، كما يقبل التلميذ من الأستاذ التعليم .

وفاض من النفس أيضاً فيض آخر دونها فى الرتبة ، يسمى الهيولى الأولى: وهى جوهرة بسيطة روحانية قابلة من النفس من الصور والأشكال بالزمان شيئاً بعد شىء ؛ فأول صورة قبلت الهيولى الطول والعرض والعمق ، فـكانت بذلك جسما مطلقاً ، وهو الهيولى الثانية .

ووقف الفيض عند وجود الجسم ولم يفض منه جوهر آخر ؛ لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية ، وغلظ جوهره وبعده من العلة الأولى .

ولما دام الفيض من البارى تعالى على العقل ، ومن العقل على النفس عطفت

النفس على الجسم ، فصورت فيه الصور والأشكال والأصباغ ؛ لتتمه بالفضائل والمحاسن بحسب ما يمكن من قبول الجسم وصفاء جوهره .

فأول صورة عملت النفس فى الجسم الشكل الكرى الذى هو أفضل الأشكال كلها، وحركته بالحركة الدورية التى هى أفضل الحركات، ورتبت بعضها فى جوف بعض من لدن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض ، وهى أحدى عشرة كرة »[١] .

وترتيب هذه الأكر كما أورده إخوان الصفا فى غير ما موضع من رسائلهم: فلك المحيط ، فالأفلاك الثابتة ، فزحل ، فالمشترى ، فالمريخ ، فالشمس، فالزهرة، فعطارد ، فالقمر ، فالأرض . والأرض تقع فى مركز الوجود .

ويلى هذا فى الوجود، الأركان الأربعة، والعناصر السفلى وهى : النار، والماء، والهواء ، والأرض . ولما ترتبت هذه الأكر بعضها فى جوف بعض ، ودارت الأفلاك بأبراجها ، وكواكبها على الأركان الأربعة ، وتعاقب عليها الليل والنهار والشتاء والصيف ، والحر والبرد ، واختلط بعضها ببعض فامتزج اللطيف منها بالكثيف ، والثقيل بالخفيف ، والحار بالبارد ، والرطب باليابس ، تركبت على طول الزمان أنواع التراكيب التى هى المعادن والنبات والحيوان .

والمعادن أشرف تركيباً من الأركان ، والنبات أشرف تركيباً من المعادن ، والحيوان أشرف تركيباً من النبات ، والإنسان أشرف تركيباً من جميع الحيوان[٢] .

---

(١) رسائل جـ ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨

(٢) رسائل جـ ٣ ص ١٩٠

ويمكن إجمال ترتيب الوجود عند إخوان الصفاء على الوجه الآتى :

١ — الله تعالى .

٢ — العقل الفعال : وهو جوهر بسيط روحانى أبسط من النفس وأشرف منها قابل لتأييد البارى تعالى ، علام بالفعل .

٣ — النفس الكلية : وهى جوهرة بسيطة روحانية ، علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قابلة فضائل العقل بلا زمان ، فعالة فى الهيولى بالتحريك لها .

٤ — الهيولى الأولى : وهى جوهرة بسيطة روحانية معقولة غير علامة ولا فعالة ، بل قابلة آثار النفس بالزمان منفعلة لها .

٥ — الطبيعة الفاعلة : وهى قوة من قوى النفس الكلية ، سارية فى جميع الأجسام ، مدبرة لها ، وتسمى النفوس الجزئية أو الملائكة .

٦ — الجسم المطلق ذو الطول والعرض والعمق وهو الهيولى الثانية .

٧ — عالم الأفلاك .

٨ — العناصر السفلى كالنار والهواء والماء والأرض .

٩ — المعادن والنبات والحيوان(١) .

ويحاكون أصحاب نظرية الفيض فى كلامهم عن الله وخلقه العالم ، مازجين بين هذه النظرية ، وآراء الفيثاغورية فى أن الواحد أصل الوجود :

« واعلم يا أخى بأنك إذا تأملت ماذكرنا من ترتيب العدد من الواحد الذى قبل الاثنين ونشوئه منه ، وجدته من أدل الدلائل على وحدانية البارى

(١) رسائل ج ٣ ص ١٩٨

جل ثناؤه ، وكيفية اختراعه الأشياء وإبداعه لها ، وذلك أن الواحد الذى قبل الاثنين ، وإن كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه ، فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ ، وكذلك الله عز وجل ، وإن كان هو الذى اخترع الأشياء من نور وحدانيته ، وأبدعها وأنشأها ، وبه قوامها وبقاؤها وتمامها وكمالها ، فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وإبداعه لها ، فنسبة البارى جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد ، وكما أن الواحد أصل العدد ومنشأه ، وأوله وآخره ، كذلك الله عز وجل هو علة الأشياء وخالقها وأولها وآخرها ، وكما أن الواحد لاجزء له ، ولا مثل له فى العدد ، فكذلك الله جل ثناؤه لامثل له فى خلقه[١] »

ويقولون عن النفس الكلية مثل الذى ذكرناه فى نظرية الفيض :

« وأما النفس فإنه لما كان وجودها من البارى جل ثناؤه بتوسط العقل صارت رتبتها دون العقل ، وصارت ناقصة فى قبول الفضائل ، ولأنها أيضا تارة تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل ، وتارة تقبل على الهيولى لتمدها بذلك الخير والفضائل[٢] » .

ويقولون عن الهيولى كلاما شبيها بأقوال أصحاب نظرية الفيض :

« وأما الهيولى فلبعدها من البارى صارت ناقصة المرتبة ، عادمة الفضائل غير طالبة لفيض النفس »[٣] .

---

(١) رسائل ج ١ ص ٢٩٠

(٢) ج ٣ ص ١٨٨ .

(٣) ج ٣ ص ١٨٨ .

**إهمال الجسم** : وقد أكثروا من الحث على التخلص من ربقة المادة والجسد ، بالزهد والتقشف ، وهم فى ذلك يجارون أصحاب نظرية الفيض « واعلم أن الأنبياء وأتباعهم وخلفاءهم ، ومن يرى مثل رأيهم من الفلاسفة والحكماء يتهاونون بأمر الأجساد ؛ لأنهم يرون أن هذه الأجساد حبس للنفوس أو حجاب لها ؛ أو صراط أو برزخ ، أو أعراف ، وقد فسرنا هذه المعانى فى رسائلنا ــ وإنما تشفق النفس على الجسد مالم تنبعث ، فإذا انبعثت هانت عليها مفارقة الجسد ؛ ومما يدل على صحة ماقلنا إحراق البراهمة أجسامهم وهم حكماء الهند ، أما من يفعلون ذلك من جهالهم وشطارهم فليس كلامنا فيهم ــ وإنما نريد أن نذكر المستبصرين منهم الحكماء ، وذلك أنهم يرون ويعتقدون أن هذه الأجساد لهذه النفوس الجزئية بمنزلة البيض للفرخ ، وأن الطبيعة حضنتها ، وهى تشفق عليها مالم تستتم الخلقة أو تستكمل الصورة ؛ فإذا تمت الخلقة ، وكملت الصورة تهاونت ؛ ولا تبالى إن انشقت البيضة إذا سلم الفرخ »

« فهكذا حال النفس مع الجسد إنما تشفق على الجسد وتصونه وتحن عليه مالم تعلم بأن لها وجوداً خلواً من الجسد ، وأن ذلك الوجود خير وأبقى وألذ وأحسن من هذا الوجود والبقاء الذى مع الجسد ، فإذا استتمت الأنفس الجزئية ، وكملت صورتها ، ومعارفها ، وانتبهت النفس من هذا النوم ، واستيقظت من هذه الغفلة ، وأحست بغربتها فى هذا العالم الجسمانى ، وأنها

فى أسر الطبيعة فى بحر الهيولى ناشئة فى قعر الأجسام ، مبتلاة بخدمة الأجساد مغرورة بزينة المحسوسات ، وبان لها حقيقة ذاتها ، وعرفت فضيلة جوهرها ، ونظرت إلى عالمها ، وشاهدت تلك الصورة الروحانية المفارقة للهيولى ، وأبصرت تلك الألوان والأصباغ والملاذ العقلية وعاينت تلك الأنوار والبهجة والسرور ، هانت عليها مفارقة الجسد وسمحت بإتلافه [(١)] »

ويستشهدون على ذلك بآيات من القرآن كقوله تعالى على لسان موسى حين قال لأصحابه وإخوانه: « توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم » يعنى هذه الأجساد بالسيف ؛ لأن جوهر النفس لا يناله الحديد[(٢)] وقد ذكرنا طرفا من أقوالهم فى خلود النفس ، عند الكلام على طريقة استدلالهم وقد حملوا آيات القرآن ما لا تحتمله ، وأولوا فيها تأويلات بعيدة .

**نظرية الفيض والإمامة** : وقد كان لنظرية الفيض هذه التى اعتنقها إخوان الصفاء أثر فى الاسماعيلية ، وتطور آرائهم فى الإمامة .

وقد حاول أحمد الكيَّال وهو كما يقول الشهرستانى : « من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر الصادق ، وأظنه من الأئمة المستورين » أن يمزج نظرية الفيض بعقيدة الإمامة والمهدية ؛ وطبقها على نفسه بعد أن لم يَرُق آل البيت ما أتى به من خرافات فتبرءوا منه ولعنوه ، فصرف الدعوة إلى شخصه

---

(١) رسائل ج ٤ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٢) رسائل ج ٤ ص ٩٢ وراجع كذلك ج ١ ص ١٥٦ — ١٦٩ وراجع كذلك فى ذم الجسد ج ١ ص ١٩٦ ، ص ٢١٨ .

وادعى الإمامة أولا ، ثم ادعى أنه القائم ثانياً ، وقال الشهرستانى فى محاولة الكيال هذه : « والمقابلة كما سمعتها من أخس المقالات ، وأوهى المقابلات ، بحيث لايستجيز عاقل أن يسمعها ، فكيف يرضى أن يعتقدها ، وأعجب من هذا كله تأويلاته الفاسدة ، ومقابلاته بين الفرائض الشرعية والأحكام الدينية ، وبين موجودات عالمى الآفاق والأنفس ، وادعاؤه أنه متفرد بها ، وكيف يصح له ذلك ، وقد سبقه كثير من أهل العلم بتقرير ذلك لا على الوجه المزيف الذى قرره الكيال ، وحمله الميزان على العالمين ، والصراط على نفسه ، والجنة على الوصول إلى علمه من البصائر ، والنار على الوصول إلى مايضاده[١] »

وذكر الشهرستانى عند الكلام على الإسماعيلية شيئا من نظريتهم فى المزج بين رأى الأفلاطونية الحديثة ، والإمامة المهدية بعد أن شرح نظرية الفيض « لما كان فى العالم العلوى عقل ونفس كلية ، وجب أن يكون فى هذا العالم عقلُ شخصٍ هو كلٌ ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ويسمونه الناطق ، وهو النبى ؛ ونفس مشخصة هى كلٌ أيضا ، وحكمها حكم الطفل الناقص المتوجه إلى الكمال ، أو حكم النطفة المتوجهة إلى التمام ، ويسمونه الأساس ، وهو الوصى . قالوا : وكما تحركت الأفلاك بتحريك النفس والعقل والطبائع ، كذلك تحركت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبى والوصى فى كل زمان ، دائراً على سبعةٍ سبعة ، حتى ينتهى إلى الدور الأخير ويدخل زمان القيامة[٢] » .

---

(١) الشهرستانى هامش الفصل فى الملل والنحل لابن حزم الجزء الثانى ص ١٧ ــ ٢١
(٢) المرجع نفسه ص ٣٠

ويبدو هذا الأثر الفلسفي في استعانة الدعاية الإسماعيلية بالنظريات الأفلاطونية مع ملاحظة هذا الفرق بينها وبين الصوفية ، فالصوفية لم تبغ من الاستعانة بهذه النظريات إلا أن توجد دعامة نفسية تبنى عليها الحياة الدينية ، بينما الإسماعيلية استخدمتها لكي تنفذ إلى صميم الديانة الإسلامية ، وتعمل على تعديل أحكامها وعقائدها .

وفكرة الإمامة عندهم لم تكن إلا قناعا ستروا وراءه برامجهم الهدامة ، ولم تكن إلا تكأة إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدمير ، وقد بدأ الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية ، تلك التي بنى عليها إخوان الصفا فلسفتهم الدينية في موسوعتهم ، واستنبطت الإسماعيلية من هذه الفلسفة أعمق نتائجها وأشدها تطرفا ، فوضعوا بذلك نظاما فلسفيا هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكوني التي وضحتها هذه الفلسفة ، وقد بينوا فيه المظاهر الدورية للعقل الكلي ، التي بدأت سلسلتها بآدم وانتظم فيها نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، واختتمت بالإمام الذي يلي الإمام السادس عند الشيعة — وهو اسماعيل وابنه محمد — مكونين من حلقة سبعية من «الناطقين» ، وملأوا الفترات التي تفصل بين كل ناطق وآخر بمجموعات سباعية مؤلفة من أشخاص صدروا كالناطقين تماما عن القوى الخارقة ، وتعمل كل مجموعة سباعية من هؤلاء على تدعيم عمل الناطق الذي سبقها ، والتمهيد للناطق الجديد الذي يخلفه ؛ فهي سلطة تعاقبية دقيقة التحديد بديعة التركيب ، تتجلى الروح الإلهية في درجاتها المختلفة ومراحلها المتوالية ، وتظهر الإنسانية منذ بدء الخليقة في صورة يتزايد كمالها وبهاؤها .

وكل مظهر من هذه المظاهر الدورية للعقل الكلى يبدو فى وقته حتى يكمل إنجاز العمل الذى أداه المظهر السابق ؛ أى أن الوحى الإلهى لاينقطع ولا ينتهى فى فترة زمنية معينة من فترات تاريخ الخليقة ، وبهذا النظام الدورى المتكرر، يلى المهدى الناطق السابع ، آتياً برسالة تعد من حيث هى مظهر من المظاهر الدورية أكمل وأعظم مما سبقها ، بل تفوق رسالات من سبقه حتى رسالة النبى محمد عليه السلام .

وهذا التطبيق لفكرة المهدية يهدم إحدى دعائم الإسلام الأساسية التى لم يجرؤ التشيع المألوف أن يزعزع أصولها ، فمحمد عند المسلمين هو «خاتم النبيين»، وقد نعت بهذه الصفة فى القرآن: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . والديانة المحمدية فى شكلها السنى كما فى شكلها الشيعى قد أولت هذه الفكرة أهمية اعتقادية، وهى أن محمداً قد ختم إلى الأبد سلسلة الأنبياء، وأنه أنجز إلى نهاية الحياة الدنيا مامهد إليه ماسبقه من الأنبياء ، وأنه الحامل لآخر رسالة بعث الله بها إلى الجنس البشرى، «والمهدى المنتظر » ليس إلا رجلا يعمل على إحياء سنة خاتم النبيين وإعادتها ، وهى السنة التى تنكبها الناس لفسادهم وضلالهم ، وهذا المهدى إنما يسير على نهج السنة ويحمل اسم صاحبها، ولكنه ليس نبياً بل هو دون السلطة التعليمية الهادية ، التى تقابل إحدى مراتب التطور فى الفكرة المهدية ، التى تجاوز تعاليم النبى . غير أن نظرية الفيض عند الإسماعيلية قد محت ماللصفة النبوية المحمدية ، وما للشريعة التى أرسله الله بها من قيمة وخطر ، وهى قيمة يؤمن بها المسلمون قاطبة حتى من كان منهم على

مذهب الشيعة[١] .

***نظرية الفيض والعقيدة*** : فتطبيق نظرية الفيض بهذا الشكل ينبىء عن زيغ فى العقيدة ، وإن لم يظهر أثر هذا التطبيق فى رسائل إخوان الصفاء كما ظهر فى آراء من اتخذوا رسائلهم كتابا يقتدى به أو دستوراً للعقيدة وهم الإسماعيلية

هذا والنظرية فى ذاتها تهدم العقيدة الإسلامية فى الإله وقدرته ؛ فهم وإن قالوا بأن الله علة العالم ، لكنهم قرروا أنه لا يستطيع خلقه وأن العالم صدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس ، فهو لازم له لا يستطيع حبسه ومنعه ، وهذا القول ينفى القدرة الإلهية كما يفهمها المسلمون وينفى الإرادة الإلهية كما يقول بها الإسلام، ويصف الله بأنه لا حيلة له فى خلق العالم ، ولا شأن له به، ولا رأى له فيه .

ولا شك كذلك أن هذه النظرية بهذا الوضع تصف العالم بالقدم، فالله قديم، والعالم فاض منه لفرط كماله كما يصدر الضوء عن الشمس فهو ملازم له ، فهو قديم مثله ، والعقيدة الصحيحة تقرر : أن العالم حادث ، وأنه خلق من عدم، فليس ثمة قديم بلا بداية سوى الله .

ومادام العالم قد فاض عن الإله بهذا الشكل ، فليست هناك غاية من خلق العالم كما حددها الإسلام ، وإذا كان العالم لا غاية له ، فلا نهاية له أيضاً ؛ لأن الله الذى يفيض منه هذا العالم باق ، وكماله باق مثله، فالفيض باق ببقائهما، فالعالم متصف بالبقاء كذلك ــ وعلى هذا فلا داعى للشرائع والتكاليف ، لأنه لا يوجد

---

(١) جولد تسيهر فى « العقيدة والشريعة فى الإسلام » ص ٢١٣ ــ ٢١٤

حساب أو عقاب أو قيامة ؛ لأن الله لم يكن له شأن فى خلق هذا العالم ، ولم يوجده لغاية ، ولم يتصل به أى اتصال، فكيف يكلفه وهو لم يرد خلقه لشيء معين يريده هو ، ولن ينتهى هذا العالم حتى يحاسب من عاش فيه !؟ .

فالنظرية مناقضة تمام المناقضة للعقيدة السليمة ، ولست أدرى أقال بها إخوان الصفاء عن جهل بمراميها ـ وهذا ما لا أظنه ـ أو عن معرفة تنبىء عن زيغ فى عقيدتهم ، وتؤيد صلتهم بالإسماعيلية، الذين طبقوها بالشكل العجيب الذى ذكرناه فازدادوا بعداً عن الإسلام على بعدهم عنه ؟ ؟

— ٤ —

**الله والعالم** : حاول إخوان الصفاء أن يثبتوا أن العالم حادث ، وأن له نهاية حتى يوفقوا بين نظرية الفيض هذه التى ذكرناها ، وبين الشريعة الإسلامية .

وقد بينوا أن حدوث العالم وقدمه مشكلة عويصة ، اختلف فيها العلماء والفلاسفة ؛ فأما علماء الشريعة ، والأنبياء جميعا فيعتقدون أن عالم الأجسام محدث لاشك فيه ، وأما الفلاسفة فقد انقسموا قسمين ؛ يقول أحدهما ـ وهم الراسخون فى العلم بقدم العالم ـ ويقول الآخر ـ وهم الناقصون المتشككون ـ بحدوثه[1] وهم ينصحون المتخيرين من طلاب الحقيقة ـ أن يلجئوا إليهم ، وألا يثقوا بأنفسهم فى تفهم هذه الأمور الهامة دون أن يستشيروا الإخوان الكرام الفضلاء، كما يستعين المرء فى أمور دنياه بآراء جيرانه وأصدقائه ، ويرون أن الناظر فى هذه

---

(١) جـ ٣ ص ٤٤

المسائل يحتاج إلى نفس زكية ، وفهم دقيق ، وقوة روية وجودة تصور [١] .

**حدوث العالم :** ثم أخذوا يشرحون علاقة الله بالعالم ، وكيف أنه محدث وكيف أن له نهاية ؛ حتى لايوصف بالقدم والبقاء ، فيرمَوْن بالكفر .

فقالوا : « إن وجود العالم عن الله سبحانه ليس كوحود الدار عن البنَّاء إذا فرغ من بنائها لم تعد فى حاجة إليه ، ولا كوجود الكتاب عن الكاتب إذا انتهى من كتابه صار له وجود مستقل منه ، ولكنه كوجود الكلام عن المتكلم ، فإن سكت بطل وجود الكلام ، فالكلام يكون موجوداً مادام المتكلم يتكلم ، ومتى سكت بطل وجوده ؛ أو كوجود نور السراج فى الهواء ، مادام السراج باقيا فالنور باق موجود ؛ أو كوجود ضوء الشمس فى الجو فإن غابت الشمس بطل وجود الضوء ، أو كوجود العدد عن الواحد

وكما أن كلام المتكلم ليس جزأ منه بل هو فعل له ، وعمل أظهره بعد أن لم يكن ، وكذلك صدور النور عن الشمس ليس جزءاً منها ، بل هو فيض وفضل منها ، وكذلك حرارة النار المنتشرة من حولها ليست بجزء من الشمس بل هى فيض منها ، فكذلك و جود العالم عن البارى ، ليس بجزء منه سبحانه ، بل فضل تفضل به ، وفيض أفاضه ، وفعل فعله بعد ان لم يكن فعل ، كما أن المتكلم فاه بكلامه بعد أن لم يكن .

وبذلك يكون العالم ببراهينهم هذه حادثا أى وجد من عدم ، مع أن هذا الرأى ماهو إلا شرح وتبسيط لنظرية الفيض وتدعيم لها ، وقد بينا رأينا فيها ،

---

(١) ج ٣ ص ٤٧ .

وأنها تتضمن القول بقدم العالم وبقائه .

**كيف خلق العالم** ؟ وهنا يتساءلون : هل خلق العالم دفعة واحدة ، أو خلق بالتدريج، أو بعضه دفعة واحدة، وبعضه بالتدريج ؟؟ ويرى إخوان الصفاء أن الأمور الطبيعية أحدثت وأبدعت على التدريج ، وممر الزمان ، فالنفس مثلا عاشت دهراً طويلا فى عالم المثل قبل أن تتعلق بالجسم ، وكانت وهى فى عالمها الروحانى تتلقى الفيض ، والفضائل ، والخيرات عن العقل الفعال ، فلما امتلأت من تلك الفضائل ، وكان الجسم فارغا من الأشكال والصور ، والنفوس أقبلت النفس على الهيولى تميز الكثيف من اللطيف ؛ وتفيض تلك الفضائل والخيرات ومكنها الله تعالى من الجسم ، فخلق من ذلك الجسم عالم الأفلاك وأطباق السموات، من لدن فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، ثم خلق بقية المخلوقات من إنسان وحيوان ، ونبات ومعادن .

ويستدلون على هذا بقوله تعالى: « خلق السموات والأرض فى ستة أيام»، وقوله: « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » ، أى أن النفس أخذت وقتا طويلا حتى صارت على ما هى عليه .

أما الأمور الإلهية فيرون أنها حدثت دفعة واحدة ، مرتبة منتظمة ، بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان ، بل بمقتضى قوله تعالى : « كن فيكون » وهذه الأمور الروحانية هى : العقل الفعال ، والنفس الكلية ، والهيولى الأولى والصور المجردة ؛ والعقل هو نور البارى تعالى وفيضه ، والنفس هى نور العقل وفيضه الذى أفاضه البارى منه، والهيولى الأولى هى ظل النفس وفيئها ، والصور

المجردة هي النفوس والأصباغ والأشكال التي أفاضتها النفس في الهيولى بإذن الله ، وتأييده لها بالعقل[١] .

ويرون أن هذه الأمور كلها خلقت بلا زمان ولامكان ، كما قال الله تعالى « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر »

ويضربون مثلا بالبرق ، وضوء الشمس ، وحرارة النار فكلها صدرت عن مصدرها دون زمان أو مكان[٢] والله سبحانه لايباشر الخلق بنفسه ، ولايتولى الأعمال بذاته بل يقتصر عمله على الأمور الكلية، وأما التفصيلات فيدعها لملائكته الموكلين بعباده، وذلك لقوله تعالى « وماأمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » ولقوله : « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ؛ وهذا ليس بدعاً فالملوك وهم خلفاء الله في الأرض يأمرون عبيدهم وخدمهم ورعيتهم بالقيام بالأعمال ولا يتولون هذه الاعمال بأنفسهم شرفا وإجلالا ، ونسبة الخلق والأعمال إلى الله سبحانه وتعالى كنسبة الأفعال إلى الملوك ؛ إذا قلت : بنى الملك الفلاني مدينة كذا، وحفرنهر كذا، وذلك لأن هذه الأمور وجدت بعنايتهم وإرادتهم، وهذا تفسير قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله : «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم» وقوله : «أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون »... إلى غير ذلك من الآيات[٣] .

---

(١) جـ ٣ ص ٢٢٩ — ٢٣٦

(٢) جـ ٢ ص ١٠٨

(٣) جـ ٢ ص ١٠٩

فالله غير محتاج فى أفعاله إلى الأدوات والآلات والأماكن والأزمان والهيولى والحركات، بل فعله الخاص هو الإبداع والاختراع ، وذلك بالإخراج من العدم إلى الوجود ، أما بقية التفصيلات فتركها للطبيعة تتمها .

**الطبيعة**: والطبيعة فى نظرهم ملك من ملائكة الله المؤيدين، وعباده الطائعين، يفعلون مايؤمرون، لايعصون الله ماأمرهم وهم من خشيته مشفقون ؛ ويقولون فى هذا : « واعلم أن طائفة من المجادلة أنكرت أفعال الطبيعة لماجهلت ماهية الطبيعة نفسها ، ولم تدر أنها ملك من ملائكة الله تعالى الموكلين بتدبير عالمه وإصلاح خلائقه ، فنسبت كل أفعال الطبيعة إلى البارى جل ثناؤه ، حسنة كانت أو سيئة ، خيرا كانت أو شراً ، وفيهم من نسب ما كان حسنا إلى الله وما كان قبيحاً نسبه إلى غيره ، ثم اختلفوا فى الغير من هو ؟ ، فمنهم من نسب تلك الأفعال إلى الطبيعة ، وإلى التولد ، ومنهم من نسبها إلى النجوم ، ومنهم من نسبها إلى البخت والاتفاق ، ومنهم من نسبها إلى جريان العادة ، ومنهم من نسبها إلى الشياطين ولايدرى ما الشياطين ؛ وكل هذه الأقاويل قالوها لجهلهم ماهية الطبيعة ، وقلة معرفتهم بأفعالها وأفعال ملائكة الله الموكلين بحفظ عالمه ، وإدارة أفلاكه، وتسيير كواكبه، وتوليد حيواناته ، وتربية نبات أرضه وتكوين معادنها [٢]» .

**مسئولية الإنسان عن عمله** : ورأيهم هذا فى خلق الله للكليات دون

---

(٢) ج ٢ ص ١٠٨

الجزئيات ، وفى أن الطبيعة هى الموكلة بخلق الجزئيات ، يناقض رأى الاسلام، وقد تصدى علماء التوحيد للرد عليه ، ولا حاجة بنا لتكراره هنا ، ولكن نقول : إنهم رتبوا على هذه النظرية القول بأن الانسان مسئول عن عمله ؛ لأنه يخلقه بنفسه ، وشرحوا ذلك بتأويلهم كلمة « الطبيعة » بالنفوس الجزئية ، فما كان من الأفعال خيراً نسب إلى النفس الجزئية الخيرة ، وما كان شرا نسب إلى النفس الشريرة ، وعليها تقع المجازاة والمكافأة عن الثواب أو العقاب : « واعلم يا أخى أن نفسك هى إحدى النفوس الجزئية ، وهى قوة من قوى النفس الكلية والفلكية لاهى بعينها ، ولاهى منفصلة منها ، كما أن جسدك جزء من أجزاء العالم لا هو كله ، ولا منفصل منه ، فانظر الآن أعمالك وأفعالك ، وأخلاقك ؛ وآراءك ، ومعارفك ؛ فبحسب ذلك يكون جزاؤك ومكافأتك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما هى أعمالكم ترد إليكم » ، وكما قال تعالى تصديقا لرسوله : « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ... الآية [1] »

ويرى إخوان الصفاء كذلك أن هذا العالم متوقف فى وجوده واستمراره على الله سبحانه وتعالى ، لو منع عنه القبض والحفظ والإمساك لحظة واحدة لتهافتت السموات ، وبادت الأفلاك ، وهلكت الخلائق ، ودثر العالم دفعة واحدة بلا زمان كما ذكر الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » وكما قال تعالى :

---

(١) جـ ٢ ص ١١٠ — ١١١ .

« والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه[١] »، وقد ذكرنا آنفا ما فى نظرية الفيض من التناقض مع العقيدة السليمة للمسلمين ، وماهذا الذى يقولونه الآن ، وماهذه الآيات التى يحملونها مالاتحتمل، ويؤولونها تأويلات بعيدة جداً عن حقيقة معناها، إلا بسط لنظرية الفيض .

**فناء العالم** : وقد أتعبوا أنفسهم فى البرهنة على أن هذا العالم فان ، وله نهاية مجتومة منفصلة من بارئه ، ولكن منطقهم خذلهم فلم يؤد إلى النتيجة المطلوبة؛ لأنهم قالوا إن الفاعل المختار هو الذى يقدر على الفعل وتركه متى شاء ، وإن كل فاعل مختار حكيم له غرض من فعله ، فينتج من هذه المقدمات أن العالم سيخرب[٢] ؛ أما كيف أدت هذه المقدمات إلى هذه النتيجة فهو مالم أستطع إدراكه ، وأغلب الظن أنهم أدركوا أن نظرية الفيض التى يقولون بها تحتم عليهم القول ببقاء العالم؛ لأن الفيض مستمر مابقى الله ، ولأن الله على ماتقول به هذه النظرية ليست له غاية من خلق العالم ؛ فالشمس لا تستطيع حبس الضوء ، والنار لاتستطيع أن تمنع الحرارة ؛ لأن الضوء لازم للشمس ، والحرارة لازمة للنار ، وكذلك الفيض لازم لله ، وما دام الله باقيا ، فالفيض باق ، فالعالم باق ؛ ولهذا لم يستطيعوا أن يبرهنوا على عكس ذلك ليبرئوا أنفسهم من تهمة الخروج على العقيدة السليمة .

**الغاية من خلق العالم** : وهم لم يستطيعوا أن يحددوا الغاية من خلق

(١) ج ٣ ص ٢٨٤ .
(٢) ج ٣ ص ٣٢٠ .

الله تعالى للعالم فإذا سئلوا :

لم خلق الله تعالى العالم بعد أن لم يكن ؟ أجابوا لأن الله حكيم، وخلقه العالم حكمة، وفعل الحكمة عن الحكيم واجب ، وبواجب الحكمة خلق العالم .

وإذا سئلوا : لم خلق الله فى وقت ولم يخلق قبل ذلك ؟ قالوا : لعلمه السابق أنه سيخلق فى هذا الوقت لاقبل .

فإذا سئلوا : لم خلقه على على هذه الصورة ، ولم يخلقه على صورة أخرى ؟ أجابوا : لعلمه أن هذه الصورة أحكم وأتقن ، ففعل كما علم ليكون فعله موافقا لعلمه [١] .

وهذا الكلام يدل على العجز عن التوفيق بين نظرية الفيض التى اعتقدوها، وبين العقيدة الإسلامية ، التى يحاولون أن يظهروا بمظهر المحافظ عليها ، والمدافع عنها .

ولما أدركوا إخفاقهم فى محاولتهم تلك ، وأن كلامهم لن يفهمه أحد قالوا « فمن لم يفهم ما وصفنا ، ينبغى له أن يقنع بما قالت الفلاسفة من أن العالم معلول وعلته البارى [٢] »

— ٥ —

**هل قالوا بالنشوء والارتقاء :** ذهب بعض الباحثين إلى أن إخوان الصفاء كانوا يقولون بنظرية النشوء والارتقاء [٣]، والواقع أنهم كانوا بعيدين كل

(١) ج ٣ ص ٣٣٩ .

(٢) ج ٣ ص ٤٧

(٣) دى بور — تاريخ الفلسفة فى الاسلام — مشيراً إلى العلامة ديتريصى ص ١٠٨

البعد عن هذا الرأى ، بيد أن لهم نظرية خاصة فى تدرج الأجسام المولدة ؛ فهم يرون أن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات ، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان ، كما أن أول المرتبة النباتية ، متصل بآخر المرتبة المعدنية ، وأول المرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء .

فأدون الحيوان وأنقصه ، هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة فقط ، وهو الحلزون وأكثر الديدان التى تتكون فى الطين وفى قعر البحار وأعماق الأنهار ؛ إذ ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ... فهذا النوع حيوان نباتى ؛ لأن جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات ، ويقوم على ساقه قائما ، وهو من أجل أن يتحرك جسمه حركة اختيارية حيوان ، ومن أجل أنه ليست له إلا حاسة واحدة ، فهو أنقص الحيوان رتبة فى الحيوانية ، وقد يشاركه النبات فى تلك الحاسة ، فللنبات حس اللمس فقط ، ويتمثل هذا فى إرساله جذوره نحو المواضع الندية ، وامتناعه من إرسالها نحو الصخور واليبس .

أما رتبة الحيوانية مما يلى رتبة الإنسانية فليست من وجه واحد ، ولكن من عدة وجوه ، فمنها ماقارب رتبة الإنسان بصورة جسمه مثل القرد ، ومنها ماقاربها بالأخلاق النفسانية كالفرس فى كثير من أخلاقه ، وكالطائر الإنسانى ، وكالفيل فى ذكائه ، والببغاء والهزار ، ونحوهما من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات ، وكالنحل اللطيف الصنائع ، إلى ما شا كل هذه الأجناس

والقرد لقرب شكل جسمه من جسم الإنسان صارت نفسه تحاكى أفعال النفس الإنسانية . أما الفرس بأخلاقه ، والفيل بذكائه ، وهذه الطيور بنغماتها

وموسيقاها فقد صارت فى آخر مرتبة الحيوان مما يلى رتبة الإنسان لما يظهر فيها من الفضائل [١] ،

ولا شك أن هذا الرأى بعيد كل البعد من نظرية النشوء والارتقاء كما قررها « داروين »، فالنحل والطائر والفيل والفرس فى رأيهم قريبة كلها من الإنسان وفى أعلى مراتب الحيوانية ؛ ولعلنا إذا أخذنا رأيهم من الناحية العضوية « البيلوجية » وجدت عندنا شبهة للقول بمذهب النشوء، فالحلزون حيوان نباتى والقرد قريب الشبه من الإنسان جسمياً، ومع هذا لم يقل إخوان الصفاء ، بأن الإنسان، والقرد متفرعان من أصل واحد كما قال « داروين » .

ويعتقدون أن النبات متقدم فى وجوده على الحيوان؛ لأنه غذاء له، والحيوان على الإنسان؛ لأنه من أجله خلق كى يخدمه وينفعه [٢] .

ونظريتهم هذه مأخوذة من نظرية أرسطو فى سلم العالم ، حيث يرى أنه متدرج إلى الرق ، ولكن لا بمعنى تحول النوع من شىء إلى آخر أرقى منه بمرور الزمان ؛ لأنه يرى أن الأجناس أبدية أزلية ، فأفراد الإنسان يولدون ويموتون ولكن النوع الإنسانى أزلى أبدى ؛ وإنما الترقى عند أرسطو ترق فكرى منطقى ؛ فالأدنى يحمل بذور الأعلى بالقوة ، فالقرد هو إنسان بالقوة والأعلى يحمل بذور الأدنى فعلا ، فالإنسان هو القرد وزيادة ، وذلك لأن الصورة التى تحارب للظهور فى السافل تحققت فى العالى .

---

(١) رسائل ج ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥ ، و ج ٣ ص ٢٢٢ — ٢٢٥ ، و ج ٤ ص ٢٧٨ ، وص ٣١٧ .

(١) رسائل ج ٢ ص ١٥٤ — ١٥٥ .

وأكبر مظهر لهذا التدرج هو العضوية ، فني أدنى درجات السلم الأجسام اللاعضوية ، وفيه تضعف الصورة حتى لتكاد تكون هيولى بلا صورة . وأول مايسعى إليه الجسم العضوى تحقيق شخصه ونوعه ، فللأول يتغذى وللثانى يتناسل ؛ وأحط درجات السلم مااقتصر على هذين النوعين وهو النبات ، ثم يليه الحيوان . إذ يزيد عنه بالأحساس ، ويتبع الأحساس الشعور باللذة والألم . . . الخ [١] .

وأرسطو كذلك لم يقل بما قال به أصحاب مذهب النشوء والارتقاء .

«1» Stace; A Critical History of Greek Philosophy.

# الفَصلُ الثَامِنُ

## « النفس الإنسانية »

### — ١ —

**أنواع النفوس** : « النفس الإنسانية عند إخوان الصفاء: جوهرة سماوية روحانية حية نورانية حقيقية متحركة، غير فاسدة، علامة دراكة لصور الأشياء، مثلها مثل المرآة فى إدراك صور الموجودات من المحسوسات والمعقولات ، مثل المرآة إذا كانت مستوية الشكل مجلوة الوجه تتراءى فيها الأشياء الجسمانية على حقيقتها ، وإذا كانت معوجة الشكل أرت صور الأشياء على غير حقيقتها ، وإذا كانت المرآة صدئة الوجه لايتراءى فيها شىء ألبتة [1] » .

والنفس المدنسة بالأعمال السيئة ، والأخلاق الرديئة ، المعوجة بالآراء الفاسدة ، لاترى الأشياء الروحانية على حقيقتها ، ولا تستطيع مشاهدة الأمور الغائبة عن حواسها بعقلها وصفاء جوهرها ، وإذا كانت جاهلة كانت صدئة لاترى شيئاً ولا تدرك شيئاً .

والنفوس كثيرة لايحصيها إلا الله ، ومراتبها ثلاث : فمنها النفس الإنسانية

---

(١) رسائل جـ ٤ ص ٧٤ .

وما فوقها وما دونها ؛ فالتى فوقها سبع ، والتى تحتها سبع ، فعدتها خمس عشرة نفساً ، والمعروف منها خمس : فالتى فوقها اثنتان ، رتبة الملكية ، ورتبة القدسية فرتبة الملكية : هى رتبة الحكمة ، ورتبة القدسية : هى رتبة النبوة .

وأما التى دونها فرتبة النفس الحيوانية ، والنفس النباتية .

وتقع النفس الإنسانية فى الوسط وهى التى أرادها الله سبحانه بقوله: « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

أما النفس التى فوقها مباشرة وهى رتبة الملكية فهى المقصودة بقوله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى » يعنى الإنسان « آتيناه حكما وعلما » ، وهى المقصودة كذلك بقوله تعالى: « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » يعنى الإنسان ـ أحيا نفسه بنور الهداية .

وأما مرتبة النبوة فإليها أشار الله سبحانه بقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

وأما المراتب التى دون النباتية وفوق القدسية فقد استأثر الله بعلمها [1] .

— ٢ —

**النفوس والأخلاق** : من أخلاق النفس الإنسانية ماينسب إلى النفس النباتية الشهوانية ، ومنها ماينسب إلى النفس الحيوانية الغضبية ، ومنها ماينسب

(١) ج ١ ص ٢٤٠ .

إلى النفس الناطقة الإنسانية ، وما ينسب إلى النفس العاقلة الحكيمة ، وما ينسب إلى النفس الناموسية الملكية .

فالمنسوب إلى النفس النباتية من الخصال والقوى شهوة الغذاء ، وهى النزوع والشوق نحو المأكولات والمشروبات والمشتهيات ، والرغبة فيها والحرص عليها ، واحتمال المشقة والذل فى سبيلها ، وينتمى إلى هذه النفس سبع قوى فعالة : الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، والغاذية ، والنامية والمصورة .

فالإنسان يشترك مع النبات فى هذه النفس النباتية ، التى تدفع الجذور إلى حيث المواطن الندية والتراب اللين ، وتوجه الغصون إلى الجهات المتسعة ، والميل والانحراف عن الأمكنة الضيقة والأجسام المؤذية .

وكل هذه الخصال مركوز فى الجبلة من غير فكر ولا روية ، معاونة من الطبيعة لنفوسها ؛ إذ كانت تلك المشتهيات غذاء للأجسام ، ومادة لبقائها ، وفى بقائها بقاء للنفس حتى تتم معارفها وتكمل فضائلها ، وبذلك ترقى إلى أفضل حالاتها وأشرف نهاياتها (١) .

أما المنسوب إلى النفس الحيوانية المركوز فى الجبلة ـ زيادة على ما تقدم فى النفس النباتية ـ فهو الشهوة الجنسية ، وشهوة الانتقام ، وشهوة الرياسة ، وينتمى إليها الشعور بالحواس المخصوصة ، والوهم ، والتخيل للمطالب والمنافع ،

---

(١) جزء ١ ص ٢٤٢ ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

والحفظ ، والذكر لمعرفة أبناء الجنس ، وإمكان الاحتراس من المضار ، والفرار من العدو .

والشهوة الجنسية موجودة بالغريزة لبقاء النوع ، وشهوة الانتقام لدفع الضرر ، وقد يكون دفع الضرر بالقهر والغلبة ، أو بالهرب والفرار ، أو بالتحرز والتحصن أو بالمكر والحيلة .

وشهوة الرياسة لتأكيد السياسة ـ والمراد بالسياسة صلاح الموجودات وبقاؤها على أفضل الحالات ؛ فالحيوان يشترك مع النبات فى قوى النفس النباتية والإنسان يشترك مع الحيوان فى قواه الخاصة به زيادة على قوى النفس النباتية .

أما النفس الناطقة ، فالمنسوب إليها ـ زيادة على ماتقدم فى النفس النباتية والحيوانية ـ شهوة العلوم والمعارف ، والتبحر فيها والاستكثار منها ، وشهوة الصنائع والأعمال والحذق فيها والافتخار بها ، وشهوة العز والرفعة والترقى فى غايات نهاياتها ، والشوق اليها والرغبة فيها ، والحرص فى طلبها ، واحتمال الذل والمشقة من أجلها ، والفرح والسرور من وجدانها ، والغم والحزن من فقدانها .

وسنخص قوى النفس الإنسانية الناطقة بشىء من البيان فيما بعد .

وأما ماينسب إلى النفس الحكيمة فشهوة العلوم والمعارف ، وما أعينت به على طلبها ، وإدراكها ، والوصول إليها ، من الخصال المركوزة ، والقوى المجبولة ، كالذهن الصافى والفهم الجيد ، وذكاء النفس ، وصفاء القلب ، وحدة الفؤاد ، وسرعة الخاطر ، وقوة التخيل ، وجودة التصور ، والفكر والروية

والتأمل والاعتبار ، والنظر والاستبصار ، والحفظ والتذكار ، ومعرفة الروايات والأخبار ، ووضع الأقيسة ، واستخراج النتائج بالمقدمات ، والتكهن والفراسة والقيافة ، وقبول الوحى والإلهام ، ورؤية المنامات ، والإنذار بالكائنات بعلم النجوم والزجر — كل ذلك معاون لها وتأييد إلى بلوغ الغاية والوصول إليها .

وأما الذى ينسب إلى النفس القدسية النبوية ، فشهوة القرب إلى الله ، والزلفى لديه وقبول الفيض منه ، وإفاضة الجود على من دونها من أبناء جنسها(١) .

والغرائز كلها ترجع إلى غريزتين : شهوة البقاء ، وكراهية الفناء ، وهذه الغرائز المركوزة فى الجبلة الإنسانية أصل لجميع أخلاقها وسجاياها .

وهذه الأخلاق أصول وقوانين لجميع أفعالها وصنائعها ومعارفها وتصرفها ، والسبب فى أن شهوة البقاء ، وكراهية الفناء أصل لكل الغرائز ، أنه يوجد فى المعلول دائما شىء من العلة دلالة دائمة عليه ، ولما كان الله علة الوجود لذاته ، وهو دائم البقاء لايعرض له شىء من الفناء جبلت الموجودات على حب البقاء وكراهية الفناء .

**السعادة** : ولهذا فالسعادة الدنيوية : هى أن يبقى كل موجود أطول مايمكن على أفضل حالاته وأتم غاياته ، والسعادة الأخروية : أن تبقى كل نفس إلى أبد الآبدين على أفضل حالاتها وأتم غاياتها .

---

(١) جـ ١ ص ٢٤٤ .

**الفضيلة** : كل شيء يراد فهو من أجل الخير ، والخير يراد من أجل ذاته، والخير المحض هو السعادة والسعادة تراد لنفسها لالشيء آخر .

ولكن كيف الوصول إلى عمل الخير ثم إلى السعادة ؟

الطبيعة خادمة للنفس ومقدمة لها ، والنفس خادمة للعقل ومقدمة له ، والعقل خادم للناموس ومقدمة له ؛ فإذا كانت الطبيعة قد أصَّلت خُلُقا وركّزته فى الجبلة جاءت النفس بالاختيار وأظهرته وبينته ، ثم جاء العقل بالفكر والروية فتممه وكمّله ، ثم جاء الناموس بالأمر والنهى ، فسواه وقواه وعدّله ؛ أو بعبارة أخرى إذا ظهرت هذه الغرائز والشهوات المركوزة فى الجبلة ، وكانت على ماينبغى فى الوقت الذى ينبغى ، من أجل ماينبغى ، سميت خيراً .

ومتى فعل ذلك باختياره وإرادته على ماينبغى ، بمقدار ما ينبغى من أجل ما ينبغى كان صاحبه محمودا ؛ ومتى كان بخلافه كان مذموما ، ومتى كان اختياره وإرادته بفكر وروية على ماوصفنا كان صاحبه حكيما فيلسوفا فاضلا ، ومتى كان بخلافه سمى سفيها جاهلا رذلا ، ومتى كان فعله وإرادته واختياره ، وفكره ورويته ، مأموراً بها ومنهياً عنها ، وفعل ماينبغى ، كماينبغى، على ماينبغى، كان صاحبه مثاباً أو مجازى عليها ، ومتى كان بخلاف ما ذكرنا كان مأخوذا بها ومعاقبا عليها .

ومن كل هذا يتبين أن الشهوات المركوزة فى الجبلة ، والأخلاق المترتبة عليها ، والأفعال التابعة لها ؛ لكى تبقى النفوس على أفضل حالاتها ، ويبلغ كل نوع منها أقصى مدى غاياتها وذلك هو السعادة .

ثم إن هذه النفوس الخمس : النباتية ، والحيوانية ، والإنسانية ، والحكيمة والقدسية ، كل واحدة منها خادمة وخاضعة للتي فوقها ، كما يخضع المرءوس لرئيسه ، والتلميذ لمعلمه ، فإذا ماخضعت وامتثلت وانقادت كان في ذلك صلاحها فعلت إلى مرتبة رئيسها ، وصارت مثلها في العقل .

وعلى هذا فالواجب على النفوس الحيوانية أن تنتقل إلى النفس الإنسانية ، ومن الواجب على النفوس الإنسانية أن تسعى جاهدة للترقي إلى مرتبة النفوس الحكيمة والقدسية [١] .

ويلاحظ أن إخوان الصفا قد تبعوا أفلاطون في تقسيمهم للنفس الإنسانية وأثر هذا التقسيم في الخلق .

فهذه النفس عند أفلاطون تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الجزء الشهواني أو الوضيع ، وهو الذي يتطلب الغذاء واللذة الجسدية بأنواعها ، ومكانه البطن والفرج ؛ وفضيلته العفة .

والجزء الثاني الشريف ، وهو الجزء الحيواني الغضبي في النفس ، ويسميه أفلاطون « الروح » ومكانه القلب ، وفضيلته الشجاعة ، وهو ميال إلى الجزء الثالث من النفس ومعوان له .

الجزء الثالث هو المفكر ، ومكانه الرأس ، وفضيلته الحكمة . وخضوع القسمين الأولين للعقل ، وانسجام هذه الأقسام الثلاثة بعضها مع بعض ينتج فضيله رابعة هي العدل .

---

(١) ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٨ .

ولا صلاح للنفس الإنسانية إذا لم تكن أجزاؤها فى انسجام ، ولا انسجام لها إذا لم يسيطر العقل عليها .

ومن المعلوم أن أفلاطون قد قسم المجتمع فى الجمهورية ثلاثة أقسام :

الطبقة العاملة ، وتقابل فى النفس الإنسانية الجزء الشهوانى .

ثم الطبقة المدافعة أو الجنود ، وتقابل فى النفس الإنسانية الجزء الشريف الغضبى .

ثم الطبقة الحاكمة وتقابل فى النفس الجزء المفكر ؛ ولذا اشترط أفلاطون أن يكون الحكام من الفلاسفة ، وإذا كانوا كذلك ، وانقادت كل طبقة للتى فوقها ، وخضع الجميع لرأى الفلاسفة ساد العدل فى الدولة [١] .

ويلاحظ كذلك أن إخوان الصفاء قد تأثروا بنظرية سقراط فى جعلهم العلم فضيلة للنفس الإنسانية ، كما رأينا فى أول هذا الفصل ، وأن النفس الجاهلة الصدئة لاتستطيع إدراك الحقائق ، تلك النظرية التى نماها أفلاطون تلميذه وتطورت عنده إلى نظرية المثل [٢] .

ولكن تأثرهم فى الفضيلة برأى أرسطو فى نظرية الوسط كان أوضح فى هذا المقام ، فالفضيلة عنده وسط بين طرفين : التفريط والإفراط .

فالشجاعة مثلا وسط بين الجبن والتهور ، والكرم وسط بين البخل

---

(1) R. L. Nettleship Lectures on the Republic ot Plato.
فى فصل عن مبادىء العدل .

(2) H. Sidgwick. History of Ethics p.41 London 1886

والتبذير ، والرجل الفاضل هو الذى يعقل الشىء على ماينبغى فى الوقت الذى ينبغى بالقدر الذى ينبغى من أجل ماينبغى [1] .

وقد حاول إخوان الصفاء أن يقسموا المجتمع طبقات تبعاً لتقسيم أفلاطون له ، وتمشيا مع تقسيم النفس الإنسانية إلى أجزاء ، فذكروا أن الناس سبعة أقسام : العمال وأرباب الحرف ، ثم أرباب التجارات والمعاملات والأموال ، ثم أرباب الأملاك ، ثم السلاطين والأجناد ، ثم الخدم ، ثم أهل البطالة والفراغ ، ثم أهل العلم والدين ؛ وذكروا فضيلة كل صنف من الناس وما يحتاج إليه من السجايا والأخلاق فى كلام طويل ـ ولكن يلاحظ أنهم خرجوا عن تقسيم أفلاطون للطبقات كما قررناه آنفا ، ولعل حال مجتمعهم جعلتهم ينظرون هذه النظرة الخاصة .

— ٣ —

**قوى النفس** : فى هذه النفس التى تسكن الجسد قوى طبيعية وأخلاق غريزية ، فمنها قوى النفس النباتية ونزعاتها وشهواتها وفضائلها ورذائلها ؛ ومنها قوى النفس الحيوانية وحركتها وأخلاقها وحواسها ؛ ومنها قوى النفس الناطقة وتمييزاتها ومعارفها وفضائلها ورذائلها .

وليست هذه النفوس متفرقة متباينة بعضها من بعض، ولكنها كالفروع من أصل واحد متصلات بذات واحدة ، كاتصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة

---

(1) Aristotle's Ethics P. 42 Every man's Library N. 547.

تتفرع من كل غصن عدة أغصان ، ومن كل قضيب عدة أوارق وثمار ؛ أو كرجل يقرأ ويكتب ويعلم ، فيقال قارىء كاتب معلم ؛ لأن هذه الأسماء تقع على الفاعل بحسب مايظهر منه من الأفعال والحركات .

فهكذا النفس واحدة بالذات ، وإنما تسمى بهذه الأسماء بحسب مايظهر منها من الأفعال ، فإذا فعلت فى الجسم الغذاء سميت نامية نباتيـة ، وإذا فعلت فى الجسم الحس والحركة سميت حيوانية ، وإذا فعلت الفكر والتمييز سميت ناطقة[١]

الجسد يشبه مدينة ، والنفس ملك هـذه المدينة ، وقوى النفس كالجنود والأعوان ، وأفعالها كالرعية والخدم .

**الحواس** : ومن قوى النفس الإنسانية خمس قوى حساسة ، كأنها أصحاب الأخبار ، وقد ولت النفس كل واحدة منها ناحية من مملكتها لتأتيها بالأخبار ، وهذه القوى الحساسة معروفة : وهى السمع والبصر واللمس والشم والذوق .

**كيف تعمل الحواس؟** : وقد بين إخوان الصفاء فى مهارة علمية ـ وأظهرت المخترعات الحديثة صدق حدسهم ـ كيف تؤدى كل حاسة من هـذه الحواس مهمتها ، فمثلا يقولون فى حاسة السمع :

« إن الهواء لشدة لطافته ، وخفة جوهره ، وسرعة حركة أجزائه ، يتخلل الأجسام كلها ، فإذا صادم جسم جسما انسل ذلك الهواء من بينهما بحميـة

---

(١) رسائل ج ٢ ص ٣٢٥ .

وتدافع وتموج إلى جميع الجهات ، فحدث من حركته شكل كروى ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها ، أو الماء الساكن إذا ألقى فيه حجر ، وكلما اتسع ذلك ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل ، فمن كان حاضراً من الناس وسائر الحيوان ممن له أذن بالقرب من ذلك المكان ، حملت تموجات الهواء إلى أذنه هذه الحركة وهذا التغيير فأحس به .

وللهواء قدرة على حمل كل صوت بهيئته وصيغته ، وحفظ هذا الصوت حفظا تاما حتى لاتختلط هذه الأصوات بعضها ببعض فتفسد ، إلى أن يبلغها أقصى مدى غاياتها عند القوة السامعة لتؤديها إلى القوة المتخيلة .

ولهم كذلك تعليلات طيبة وآراء موفقة فى كيفية الإبصار ، حيث يرون أن الضوء إذا سرى فى الأجسام المشفة حمل معه ألوان الأجسام وأوصافها، وحفظها بهيئتها ، حتى لايختلط بعضها ببعض إلى أن يبلغها أقصى مدى غاياتها عند القوة الباصرة[١] .

وهكذا ساروا فى تعليل كل حاسة ، وكيف تؤدى وظيفتها ، وذكروا أن هذه الحواس لاتحمل إلا الوسط من الأشياء ، فالضوء الباهر والظلمة القاتمة كلاهما يعشى العيون فتعجز عن الإبصار ، كما تعجز الأذن عن السمع إذا كان مصدر الصوت صاعقة أو دبيب نملة[٢] .

---

(١) رسائل ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) ج ٣ ص ٤١ .

**القوى العليا** : ثم إن هناك خمس قوى أخرى هن كالشركاء المتعاونات مع النفس ، ثلاث منها نسبتها إلى النفس كنسبة الندماء إلى الملك ، تطلع على سره وتحضر مجلسه دوما وهذه هي : القوة المتخيلة ، ومركزها مقدم الدماغ ؛ والقوة المفكرة ومركزها وسط الدماغ ؛ والقوة الحافظة ومركزها مؤخر الدماغ .

وهناك واحدة هي من النفس بمثابة الترجمان والحاجب من الملك ، وهي القوة الناطقة المخبرة عما لدى النفس من علوم وحاجات ، ومجراها في الحلقوم إلى اللسان؛ وقوة خامسة هي بمثابة الوزير إلى الملك يعينه في مملكته وسياسة رعيته، وهي القوة الصانعة ، التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع أجمع ومجراها في اليدين والأصابع[١] .

أما كيف تعمل هذه القوى ؟ ، فذلك أن الحواس تنقل المحسوسات إلى المخيلة فتنطبع فيها كما ينطبع الرسم في الشمع ، فإذا غابت المحسوسات عن الحواس بقيت تلك الرسوم مصورة في النفس ، ثم تؤديها كلها إلى المفكرة حتى تميز بعضها من بعض وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكار .

ثم إذا أرادت القوة الناطقة أن تخبر عنها ، وتنبيء عن معانيها تهيء من الألفاظ مايعبر عن تلك المعاني ، ويؤدي هذه الأخبار لغيرها من الناس .

ولما كانت الأصوات لاتمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم

---

(١) رسائل ج ٣ ص ١٧ .

تضمحل ، ووجدت الكتابة لتقييد معانى تلك الألفاظ ، كانت مهمة القوة الصانعة أن تصوغ لها من الخطوط والأشكال مايحفظها للأجيال المقبلة[1] .

**المجبر** : وللقوة المخيلة خصائص كثيرة فضلا عن أنها تحتفظ بصور المحسوسات بعد اختفائها ، تستطيع أن تتخيل ماله حقيقة، وماليس له حقيقة ، بتأليفها من الصور التى انطبعت فيها ماتشاء من الأشكال ـ فالإنسان يمكنه أن يتخيل بهذه القوة جملا على رأس نخلة ، أو نخلة على ظهر جمل ، أو طائراً له أربع قوائم ، أو فرسا له جناحان ، أو حماراً له رأس إنسان ..، وما شا كل هذا مما يظهر فى آثار المصورين ، والنقاشين ، مما ينسبونه إلى الجن والشياطين وعجائب البحر . .

وتنقل هذه القوة صور المحسوسات ، وصور المعقولات جميعا ـ وهذه القوة تعين الصناع فى صناعتهم ؛ إذ يتخيلون مايريدون صنعه كاملا قبل أن يعملوا فى هيكله شيئاً ما ، ثم يعمدون إلى مادة ما ، فى مكان ما فى زمان ما ؛ ليبرزوا إلى عالم الوجود هذه الصورة المتخيلة .

والناس متفاوتون فى هذه القوة تفاوتاً بعيداً ، فكثير من الصبيان يكون أسرع تصوراً لما يسمعون، وأجود تخيلا لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغين . وكثير من العلماء والعقلاء والمرتاضين فى العلوم والآداب تعجز نفوسهم عن تصور أشياء كثيرة قد قامت البراهين على صحتها .

---

(١) جـ ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١

والعلة فى ذلك اختلاف تركيب أدمغتهم ، واعتدال أمزجتها أو فسادها. ومن عجائب هذه القوة أنها تمكن بعض الكهنة من أهل الهند من أن يؤثروا فى غيرهم بإيهامهم أشياء عجيبة ينكرها أكثر الناس.

وأما حكماء اليونان فيرون أن ذلك ممكن للإنسان فى نفسه ، أما فى غيره فبعيد جداً[١]. ولعل إخوان الصفا يريدون قراءة الضمير[٢] أو الإيحاء الذاتى وغير الذاتى . .

والقوة المتخيلة هى التى تؤدى إلى الأقيسة الخاطئة عند الصبيان ، وعند كثير من الكبار، فالطفل مثلا يعتقد أن لكل الأطفال والدين وإخوة مثل حاله ، وبعض الناس يقيس الغائب على الحاضر ، والواقع مكذب قياسه .

وهذه القوة تمكن الإنسان من أن يجول فى المشرق والمغرب، والبر والبحر والسهل والجبل، وفضاء الأفلاك وسعة السموات، وينظر إلى خارج العالم ويتخيل فناءه[٣] .

**المفكرة** : أما المفكرة فأعمالها نوعان ، ماتشترك فيه مع غيرها من القوى ومايخصها. فأما ماتشترك فيه مع غيرها فذلك مثل الصناعات، تشترك فيها مع اليدين ، ومثل الكلام واللغات ، تشترك فيها مع القوة الناطقة ، ومثل رسوم المحسوسات تشترك فيها مع المتخيلة ... الخ

---

(١) ج ٣ ص ٣٨٨

(٢) ج ٤ ص ٣٧٤

(٣) ج ٣ ص ٣٨٩

وأما مايخصها فذلك مثل الفكر ، والروية ، والتميز بين الأشياء والتصور لها ، والاعتبار والتركيب ، والتحليل والجمع ، والقياس البرهانى ، والفراسة والكهانة ، والخواطر والإلهام ، والوحى والرؤيا وتأويلها ... الخ

وهى بين الحواس والمخيلة بمثابة القاضى بين الخصماء ودعاويهم ، لاتحكم بالخطأ أو بالصواب على مايصل إليها إلا بعد أن يشهد شاهدان من الحواس، أو نتائج مقدمات جزئية من البديهيات ؛ وكلما كان الإنسان أكثر محسوسات وأكثر تأملا لها ، وأدق نظراً فى أمور الموجودات ، وأقوى تخيلا لها ، وأجود بحثا عن الخفيات ، وأكثر تجارب الأمور الدنيوية ، وأحسن اعتباراً لها كان أرجح عقلا من غيره .

فالعقل الإنسانى ليس سوى النفس الناطقة إذا تصورت رسوم المحسوسات فى ذاتها، وميزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها ، وعرفت جواهرها وأعراضها وجربت أمور الدنيا ، واعتبرت بتصاريف الأيام بين أهلها وانتفعت بما علمت وماجربت[1] .

— ٤ —

**النفس والجسم** : النفس حياتها ذاتية ، لأنها بجوهرها حية بالفعل علامة بالقوة فعالة فى الأجسام ، وموتها هو جهالتها بجوهرها ، وغفلتها عن معرفة ذاتها ، وذلك عارض لها من شدة استغراقها فى المادة ، ولشدة غروبها فى الشهوات الجسمانية .

---

(١) جـ ٣ ص ٣٩٤

أما الجسد فهو ميت بجوهره ، وحياته عرضية لمجاورة النفس إياه ، كما أن الهواء مظلم بجوهره، وإنما ضياؤه بإشراق الشمس وطلوع القمر والكواكب عليه.

والدليل على أن الجسد ميت بجوهره مايرى من حاله بعد مفارقة النفس له كيف يتغير ويفسد ويتلاشى ، ويرجع إلى التراب .

والآن نتساءل : لماذا ارتبطت النفس الحية بهذا الجسد الفانى ؟ ويجيب إخوان الصفا عن هذا السؤال : بأنها ارتبطت به كى تكمل بالرياضة، وتخرج ما فى جوهرها من الحكمة والصنائع والفضائل من حد القوة إلى حد العقل ؛ لتتم الهيولى الجزئية ، ولكى تكمل هى أيضا ، ويتشبه ذلك الجزء بالكل ، وهو أن تتعلم النفس الجزئية السياسة والتدبير والتهذيب بالأخلاق الجميلة ، والآراء الصحيحة ، والأعمال الزكية ، والمعارف الحقيقية ، وبذلك يشبه الجزء الكل، كما قيل فى تعريف الحكمة بأنها التشبه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية .

فإذا بلغت النفس الإنسانية أقصى مدى غاياتها ، وكملت بما أظهرت من الفضائل ، وهدم الجسم ، نقلت إلى حالة أخرى ، وأنشئت إنشاء آخر أعلى وأشرف من هذا الجسد القابل للكون وللفساد وكما قال تعالى : « وننشئكم فيما لاتعلمون » .

والنفس لاتحس تلك الحال التى تنقل إليها إلا بعد مفارقة الجسد ، كما أن الجنين لايحس بأحوال الدنيا إلا بعد الولادة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » ، وإنما نومهم غفلتهم عما بعد الموت ، فإذا

جاءت سكرة الموت بالحق ، التى هى مفارقة النفس الجسد ، وعاينت الحقيقة التى كانوا بها يوعدون ، « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » أدركت أن الموت حكمة .

إن الجنين إذا تمت فى الرحم صورته ، وكملت هناك خلقته ، لم ينتفع فى الرحم بل ينتفع بعد الولادة فى هذه الحياة الدنيا ، كذلك النفس إذا كملت صورتها وتمت فضائلها بكونها مع الجسد ، انتفعت بعد مفارقتها الجسد فى الحياة الآخرة .

ومثل النفس مع الجسد مثل الصبى فى المكتب ، أتى المكتب ليتعلم ويتأدب ويرتاض ، فإذا تعلم ، وأحكم ذلك ، فليس أمامه من سبيل إلا الخروج من المكتب ، والانتفاع بما تعلم ، إذ قد تم ما يراد منه — وكما أن الصبى إذا أحكم ما يراد منه فى المكتب استغنى عن حمل اللوح والدواة والمداد والقلم؛ لأنه كان يكتب به ويقرأ منه ، ويمحو ليحصل العلم فى نفسه محفوظات من القرآن والأخبار ، والأشعار ، والنحو واللغة ، وما شاكلها ، مما يحفظ الصبيان فى المكتب ، فهكذا حكم النفس مع الجسد ، إذا هى أحكمت أمر المحسوسات بطريق الحواس وأمر المعقولات بطريق الفكر والروية ، وعرفت حقائق هذا العالم من الكون والفساد ، وارتفعت بعد ذلك بطريق الرياضيات التى هى البراهين إلى معرفة الأمور الغائبة عن الحواس ، وعرفتها حق معرفتها، واستبان لها أمر عالمها ومبدئها ومعادها ، وعاينت بعين البصيرة أحوال أبناء جنسها السالفين الذين مضوا على سنن الهدى ، وارتقوا إلى ملكوت السماء وفسحة

الأفلاك وسعتها ، اشتاقت عند ذلك إلى الصعود ثمة ، واللحاق بأبناء جنسها ، ولا يمكنها هذا الصعود بذلك الجسم الثقيل فعليها أن تتخلص منه ، ولهذا كان الموت حكمة ، وهذا هو تفسير قوله تعالى : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » وقوله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »[١]

صلاح النفس إذاً وفضيلتها فى هذه الحياة الدنيا العرضية لها ، التى لم تتهيأ للإقامة الدائمة بها أن تتكمل بالعلم والعمل الصالح ، والأخلاق الجميلة ، وتعتقد المعتقدات الصحيحة ، وتنظر فى أمور المحسوسات لتعرفها معرفة جيدة ، ثم فى حقائق المعقولات لتدركها إدراكا تاما ، وتعتقد اعتقاداً جازما أنها فى هذه الحياة الدنيا غريبة وأنها ستفارقها بعد حين .

— ٥ —

**أين كانت النفس ؟** : يعتقد إخوان الصفاء أن النفوس كانت فى الجنة قبل أن تهبط إلى هذه الأرض ، وتتعلق بالجسد الفانى ، وأنها كانت تعيش مع غيرها من النفوس ومع المثل العليا ، ولذا كانت علامة بالقوة ، وبعد اتصالها بالجسد تبتدىء أن تكون علامة بالفعل .

وحاول إخوان الصفا أن يوفقوا ــ على عادتهم ــ بين نظرية المثل هذه وبين الدين ، فاستدلوا بالآية الكريمة[٢] : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ،

---

(١) رسائل ج ٣ ص ٥٨ ــ ٧٣ .    (٢) سورة الأعراف الآية ٢٣ .

ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » والله ـ سبحانه ـ يقصد النفوس لما جنت هناك الجناية التى ذكرت فى قصة آدم ، ويقولون : « إذا فكر العاقل اللبيب فى حال النفوس المتجسدة ، وما يلحقها من المحن والمصائب بتوسط هذه الأجساد ، وما يعرض لها من الآلام والأوجاع والمناحس ، وتفكر كذلك فى حال النفوس ، التى هى أهل الجنة ، وعالم الأفلاك ، الذين هم سكان السموات ، إذا سمع بأنهم أحياء لايموتون ، وشبان لايهرمون ، وأغنياء لايفتقرون ، وجيران لايتحاسدون ، وإخوان على سرر متقابلين ، متنعمين متلذذين ، فهم فى روح وريحان ورضوان ـ رغبت نفسه إلى ماهنالك وزهدت فى هذه الحياة الدنيا [١]

على أن إخوان الصفاء لم يشرحوا نظرية المثل التى قال بها أفلاطون [٢] شرحا وافيا فى رسائلهم ، ولكن ذكروها غامضة ممزوجة بالآيات القرآنية فى الجنة والنار . وأصرح ماقالوه فى هذا الموضوع ، كلامهم على العشق ، وأنواع المحبوبات أخذا بنظرية الحب الأفلاطونى ، فالنفس تحب الجمال وتعشقه ، لأنه يوقظها من نوم الغفلة ، ويخرجها من عالم المادة ، ويذكرها بعهدها القديم أيام أن كانت فى عالم المثل العليا ، أيام أن كانت ترى ماصوّرته النفس الكلية فى الهيولى الأولى ، وزينت به ظواهر الأجرام وسطوح الأجسام ، وإنما فعلت النفس الكلية هذا ؛ حتى إذا نظرت النفوس الجزئية إلى هذه الأشكال الجميلة

---

(١) ج ٣ ص ٧٩ـ٨٠ .

(٢) نظرية المثل معروفة ويمكن الرجوع اليها فى : Philebus لأفلاطون ، وفى Lectures on the Republic of Plato p. 282-285 ، وفى قصة الفلسفة اليونانية .

حنت اليها ، واشتاقت نحوها ، وتصدت لمطلبها .

إن النفس لا تحب الجميل لذاته ، وإنما تحب الجمال المثالى الذى ذكرتها به صورة هذا الجميل ، فهى تهفو إليه وتعشقه ، ولو تغيرت صورة الجميل بهرم أو مرض ، أو عاهة فهى لا تزال تتذكر مافى نفسها من الصورة الجميلة الباقية من العهد القديم « فتشاهد النفس فى ذاتها حينئذ ، من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ، ما كانت من قبل تراها على غير تغير ، وتجد فى جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجا عنها ، فعند ذلك يتبين أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة ، إنما هى تلك الرسوم والصور التى كانت تراها على ذلك الشخص ، وهى اليوم تراها منقوشة فى ذاتها ، مرسومة فى جوهرها لم تتغير »[١]

— ٦ —

**خلود النفس** : يعتقد إخوان الصفا اعتقادا جازما أن النفس الإنسانية تولد يوم يموت الجسم :

« فالدنيا اسمها مشتق من الدنو والقرب ، وهى تصاريف أمور تجرى على الإنسان من يوم ولادة الجسد إلى يوم الممات الذى هو ولادة النفس ومفارقتها إياه »

والآخرة مشتقة من التأخر ، وهى تصاريف أمور تجرى على الإنسان من يوم ممات الجسد ، وولادة النفس إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين[٢] .

فالآخرة هى الحيوان ، هى عالم الأرواح ، فالنفس إذا فارقت الجثة ، ولم

---

(١) ج ٣ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٢) ج ١ ص ٢٥٠ .

يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها وتراكم جهالتها ، أو رداءة أخلاقها فهى هناك فى أقل من طرفة عين بلا زمان ؛ لأنها تكون حيث يوجد محبوبها، ومثلها فى ذلك مثل العاشق يكون حيث معشوقه ، فإذا كان عشقها هذه اللذات المحسوسة الجسمية الشهوانية فهى لاتبرح هاهنا ، ولا تشتاق الصعود إلى عالم الأفلاك ، ولا تفتح لها أبواب السموات، ولا تدخل الجنة مع زمر الملائكة بل تبقى تحت فلك القمر سائحة فى قعر هذه الأجسام ، لابثين فيها أحقابا مادامت السموات والأرض [١] .

أما إذا كانت صالحة الآراء ، والمعتقدات والأخلاق فإنها تصعد إلى ملكوت السماء ، وتدخل فى زمرة الملائكة وتحيا بروح القدس ، وتسبح فى فضاء الأفلاك فرحة مسرورة منعمة ملتذة مكرمة ، وذلك قول الله عز وجل : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » يعنى نفس المؤمن ، وقوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله »

فهذه الأجساد حبس للنفوس أو حجاب لها ، أو صراط أو برزخ أو أعراف ، فالنفس تشفق على الجسد وتحن عليه ، مالم تعلم بأن لها وجودا خلوا من الجسد، وأن ذلك الوجود خير وأبقى وألذ وأحسن من هذا الوجود مع الجسد ، فإذا استتمت الأنفس الجزئية كما لها ، وأحست بغربتها ، وأنها فى

---

(١) رسائل جـ ١ ص ٩٢ .

أسر الطبيعة ، مبتلاة بخدمة الأجساد . مغرورة بزينة المحسوسات هان عليها مفارقة الجسد .

وقد ذكرنا فى فصول سابقة كيف حاول إخوان الصفا البرهنة على خلود النفس بذكر قصص عن الأنبياء والفلاسفة والحكماء ، ومايقول به العامة .

فسقراط انقاد للقتل وشرب السم لأنه كان يعتقد بقاء النفس بعد مفارقة الجسد وأن هذا الجسد لا قيمة له .

وأفلاطون كان يرى هذا الرأى ، ويقول فيما رواه إخوان الصفاء : « لولم يكن لنا معاد نرجو فيه الخير لكانت الدنيا فرصة الأشرار [١] » .

وموسى عليه السلام قال لأصحابه ولإخوانه : « توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند ربكم [٢] » .

والمسيح عليه السلام قال للحواريين فى وصية له : « إذا فارقت هذاالهيكل فأنا واقف فى الهواء عن يمنة عرش ربى وأنا معكم حيثما ذهبت فلا تخالفونى حتى تكونوا معى فى ملكوت السموات غداً »[٣] .

والبراهمة يحرقون أجسادهم ، وآل البيت أسلموا أنفسهم للقتل يوم كربلاء اعتقاداً منهم أن هذا الجسد لاعبرة به ، وأن النفوس خالدة .... الخ[٤] .

---

(١) ج ٤ ص ١٠٠ .

(٢) ج ٤ ص ٩٢ .

(٣) ج ١ ص ٩٣ .

(٤) راجع فى ذلك الجزء الرابع رسالة معتقدات إخوان الصفا من ص ٨٣ ــ ١٠٤

« فهذه الحكايات والأخبار كلها دليل على بقاء النفس بعد مفارقة الجسد [١] ».

وعلى هذا فالنفوس الخيرة ملائكة بالقوة فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل ، والنفوس الشريرة هي شياطين بالقوة فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل [٢] .

والنفوس الإنسانية تفارق الجسد كارهة لهذا الفراق ، لأنها سلبت آلات الحواس التي كانت تنال بها اللذات الجسمانية ، وقد اعتادتها بطول الدربة ، فإذا كانت النفس شريرة تعذبت ، لأنها لاتجد عوضا عن هذا الجسد الذي ألفت أن تأخذ اللذة عن طريقه ، ويكون صاحبها لاحي يلذ بالعيش، ولاميت فيستريح كما قال تعالى: « لايموت فيها ولا يحيى » ، فتبقى نفسه تائهة هائمة بهمومها في طلب ما قد فاتها بما اعتادته من لذات هذه المحسوسات ، وقدمنعت الوصول إليها بموت الجسم ، فعند ذلك تتمنى وتقول : « ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل » . لكنهم « لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » ، فعند ذلك تبقى بحسرتها وندامتها ، متألمة بذاتها ، معذبة من سوء عاداتها ، دون فلك القمر سائحة في قعر الأجسام المدلهمة ، غريقة في بحر الهيولى ، هاوية في عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الأمم الخالية إخوان الشياطين ، وجنود إبليس أجمعين

---

(١) جـ ١ ص ٩٣ .

(٢) جـ ٣ ص ٩٤ .

كما ذكر الله تعالى: « كلما دخلت أمة لعنت أختها » [١]

ورأى إخوان الصفا فى خلود النفس يوافق الشريعة الإسلامية ، وهو كذلك رأى أفلاطون ، فعالم المثل حيث الحقائق المجردة أزلى أبدى ، وما الأشياء فى عالم المحسوسات إلا ظلال لهذه الحقائق المجردة [٢] ، والنفس الإنسانية سترجع إلى هذا العالم بعد أن تستكمل فضائلها .

ولقد صرح أفلاطون فى الجمهورية كذلك بوجود الحياة الآخرة حيث قال: « إن الرجل العادل إذا عانى فى حياته الفقر والمرض أو غيرهما من المصائب فسوف تكون عاقبة أمره خيراً ، سواء فى هذه الحياة الدنيا أو فى الآخرة ؛ لأن الآلهة لن تهمل من جاهد نفسه حتى صار عادلا ، ومن استطاع ببره وفضيلته أن يتشبه بالآلهة على قدر طاقته [٣] » .

وقال فى كتاب ( جورجياس ) : « إن ( رادامانت ) يحاكم النفوس فى الحياة الآخرة فيرسل النفوس الشريرة تهوى إلى أعماق الجحيم ، ويرسل أرواح الفلاسفة إلى الجزر السعيدة [٤] » .

وهذا الخلود الذى يقول به أفلاطون خلود للنفس الجزئية ، أما أرسطو فالخلود عنده كلى ، هو خلود النوع الإنسانى ، وأما الأفراد فنفوسهم إلى فناء. ولقد شرح ابن رشد رأى أرسطو هذا ، وخالف فلاسفة المسلمين جميعا ، فقسم العقول ثلاثة أنواع : عقل هولانى هو عقل الإنسانية ، وهو جوهر أزلى لا يفنى

---

(١) جـ ٣ ص ٩٤ .

«2» The Republic of Plato. 7. 515.

«3» The Republic of Plato. 10,613

«4» Gorgias, p. 93,99

ويسميه ابن رشد أحيانا عقلا بالملكة ، وهو خالد كالنوع الإنسانى .

وعقل منفعل وهو استعداد الإنسان أو قوته على المعرفة العقلية ، فهذا يوجد بوجود الإنسان ويفنى بفنائه .

وعقل فعال وهو واهب الصور ومهيئها لكى يتلقاها العقل الهولانى [١]

وإذا كان إخوان الصفا قد راقهم مذهب أفلاطون فى خلود النفس إلا أنهم تورطوا معه فقالوا بأزليتها ، أو بالأحرى نظرية الفيض هى التى جعلتهم يقولون بأزلية النفس لأنها جزء من العالم ، وقد بينا ذلك فى فصل سابق ، وماداموا قد قالوا بأبدية النفس فوجب أن تكون أزلية لأن الحادث لايكون أبديا .

فالنفس قد وجدت قبل وجود الجسد ، وهى شقيقة المثل هبطت على كره إلى العالم الحسى واتصلت بالجسد ، فهى إذن صورة من صور الملأ الأعلى .

ولقد قالوا : « إن الموجودات نوعان كلية وجزئية ، فالكلية دائمة الوجود والبقاء ، لأنها ابتدأت فى الترتيب من أشرفها وأتمها إلى أدونها وأنقصها ، والجزئيات دائمة فى الكون متوجهة نحو التمام [٢] ، والنفس الكلية تفيض على النفس الجزئية ، وبعض النفوس يقارب النفس الكلية ، وذلك بحسب قبولها مايفيض عليها من العلوم والمعاوف ، والأخلاق الجميلة ، وذلك كنفوس الأنبياء ونفوس الحكماء ، وفضائل النفس الكلية فائضة على الأنفس الجزئية دفعة واحدة ، مبذولة لها دائم الأوقات ، لكن الأنفس الجزئية لاتطيق قبولها إلا

---

«1» Munk: Melanges de Plilosophy Juive est Arab. Paris1859

(٢) جـ ٣ ص ٤٩

شيئا بعد شيء على ممر الزمان ، والمانع لها من قبول فيض النفس الكلية دفعة واحدة هو استغراقها فى المادة ، وتراكم ظلمات الأجسام عليها[١] ثم إن تلك المحاسن والفضائل والخيرات كلها إنما هى من فيض الله وإشراقه على العقل الكلى، ومن العقل الكلى على النفس الكلية، ومن النفس الكلية على الهيولى وهى الصورة التى ترى الأنفس الجزئية فى عالم الأجسام .

— ٧ —

**الجنة والنار** : يقول إخون الصفا : اعلم وتيقن ولاتشك فى أن جهنم هي عالم الكون والفساد الذى هو دون فلك القمر ، وأن الجنة هى عالم الأرواح ، وسعة السموات ، وأن أهل جهنم هى النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التى تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات التى فى العالم ، وأن أهل الجنة هى النفوس الملكية التى فى عالم الأفلاك البريئة من الأوجاع والآلام[٢] .

**البعث** : ويعتقد إخوان الصفا أن من الآراء الفاسدة الاعتقاد بأن القيامة والبعث يكونان بخراب هذا العالم بسمائه وأرضه ، وأن الله يعيد الخلق مرة ثانية فى صورة جديدة فيعذبهم ويجازيهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من خير وشر، « فهذا جيد للعامة ولمن لايعرف من الأمور شيئا ويرضى الدين تقليداً وإيمانا »، وأماالخاصة ومن قد نظر فى بعض العلوم الرياضية والطبيعية، فإن هذا الرأى لا يصلح لهم ؛ وذلك أن كثيراً من العقلاء والحكماء ينكرون خراب السموات

---

(١) ج ٢ ص ٨
(٢) ج ٣ ص ٧٨

ويأبون ذلك إباء شديداً ، والجيد لهم إذن أن يعتقدوا في أمر الآخرة، أن لها وجوداً متأخراً عن الكون في الدنيا ، وهي أحوال تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد إذا هي انتبهت من نوم غفلتها في الدنيا ، واستيقظت من رقدة جهالتها قبل الممات[١] .

فهم إذن يقولون بخلود العالم بسمائه وأرضه ، والآخرة عندهم شيء آخر ، هي الأحوال التي تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد ، فإن كانت صالحة لحقت بالنفوس الصالحة ، وصارت من ضمن الملائكة ، وإذا كانت قد عكفت على اللذات والشهوات الجسمية ، ولم تستكمل فضائلها ، ظلت بعد مفارقتها الجسد تهوى في عالم الهيولى دون فلك القمر ، وصارت شيطانا مع إخوانها من الشياطين تتألم وتتوجع . . .

وهم في هذا ينكرون كل الإنكار البعث بالأجساد ، ويعدونه صالحاً للعوام كما ينكرون أن تكون النار لهباً شديداً يلقى فيه الكفار ، وأن تكون الجنة روضة تتمتع فيها الأجسام بالحور والولدان ، ويقولون في هذا : « ومن الآراء الفاسدة أيضاً رأي من يرى ويعتقد أن الله الرءوف الرحيم الحنان، يعذب الكفار والعصاة في خندق في النار غيظا عليهم وحنقا ، وكلما احترقت أجسادهم وصارت فحما ورماداً عادت فيها الرطوبة والدم لتحترق مرة ثانية .

«اعلم يا أخي أن هذا الرأي يسيء ظن صاحبه بربه ويعتقد فيه قلة الرحمة ، وشدة القساوة . ومن الآثار الفاسدة أيضا الاعتقاد بأن أهل الجنة أجسادهم لحمية

---

(١) ج ٤ ص ٤٠

وأجسامهم طبيعية ، فإذا تأمل ماوصف الله تعالى فى صفات أهل الجنة لايمسهم فيها نصب ، ولا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ، وأنهم خالدون وماشا كل هذا ، وجد أن هذه الأوصاف لاتليق بالأجساد اللحمية ، والأجسام الطبيعية .

إنه لايليق بالعقلاء أن يعتقدوها فضلا عن عقول الحكماء ، بل النساء والجهال والصبيان ، فإن هذا الرأى يليق بأفهامهم ، ويصلح لهم ويقرّب من عقولهم ماوعدوا به ويوعدون من نعيم الجنان ، ويرهبهم من عذاب النيران، ويزيدهم خوفا من سوء أفعالهم فيتركونها ، ويقوى رجاؤهم لثواب أعمالهم ، وعليكم بدين العجائز، فإنه لائق فى هذا المقام لافى مقام آخر .

وأما من رزقه الله قليلا من التمييز والعقل والفهم ونظر فى علوم الحكمة فإن هذا الرأى لايصلح له ولايليق به ، لأنه إذا عرضه على عقله أنكره عليه ، فيقع عند ذلك فى شك وحيرة ، وسوء ظن وتخيلات فاسدة[1] » .

فالبعث عندهم بعث للنفوس لاللأجساد، واللذة والألم للنفوس لاللأجساد، وهذا يخالف ماعليه جمهور المسلمين، وهم يدعون أنهم مسلمون ، فكيف يوفقون بين هذا الرأى وبين الآيات القرآنية التى وردت فى وصف الجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ؟ لقد جرى إخوان الصفا ـ على عادتهم فى كل مايعترض عقيدتهم الفلسفية من آيات ـ إذ يعمدون إلى تأويلها وتحميلها مالاتحتمل ، وقد مر بنا فى ثنايا هذ الكتاب كثير من الآيات التى أولوها تبعا لآرائهم ، واستشهدوا بها تأييداً لاعتقادهم .

(١) ج ٤ ص ٦١ ـ ٦٢

فإذا كان القرآن وصف جهنم بأن لها سبع طبقات، أو أن لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، فما أسهل تأويل هذا لديهم :

« وإنما قيل إن جهنم سبع طبقات لأن الأجسام التى دون فلك القمر سبعة أنواع ، أربعة منها هى الأمهات المستحيلات ، التى هى الأركان الأربعة ، وهى النار والهواء والماء والأرض ، وثلاثة هى المولدات والكائنات الفاسدات التى هى المعادن والنبات والحيوان .

إن تلك النفوس لما أخرجت من الجنة عالم الأفلاك، أهبطت إلى الأرض عالم الكون والفساد الذى دون فلك القمر ، وهى ساكنة فى عمق هذه الأجساد ، وغريقة فى بحر الهيولى ، وغامضة فيها كل هذه المتولدات متقطعة فيها كما قال تعالى: « وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك» وقال : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وإنما قال : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم »؛ لأن كل ما يجرى فى عالم الكون والفساد فبدلائل هذه السبعة السيارة؛ وإنما قال: عليها تسعة عشر؛ لأن دلائلها لا تظهر فى عالم الكون والفساد إلا بمسيرها فى هذه البروج الاثنى عشر ، فجملتها تسعة عشر[1] » .

وهكذا أولوا الآيات المتعلقة بالجنة وقالوا : « ليس غرض الأنبياء عليهم السلام فيما وصفوا من مجلس الجنان ، ولذات أهلها هو الإقرار باللسان حسب بلا اعتقاد ، ولا الاعتقاد حسب بلا تحقيق يظهر لهم ، بل الغرض هو التصور

---

(١) ج ٣ س ٧٩

لها بحقائقها كيما تقع الرغبة فيها ، والطلب لها ؛ لأن الإنسان لايطلب مالايرغب فيه ، ولايرغب فيما لا يتحققه ، ولايتحقق مالايتصوره ، ولايتصور الشيء الخفي الغائب إلا بالوصف البليغ بالمحاسن ، فمن أجل هذا أكثر في القرآن من وصف محاسن الجنان ، وسرور أهلها ، ولذات نعيمها ، فتارة وصفها أوصافا جسمانية على قدر طاقة الفهم مثل قوله تعالى: « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين »

ذكر هذا وبين على قدر قبول أفهامهم ، لابمعنى أن هذه الأشياء ستوجد في الجنة على حالات جسمانية ، بل ستوجد أشياء روحانية : مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ وقال تعالى أيضا : « في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب » وماشا كلها من أوصاف الأمور الجسمانية . . .

وتارة وصفها بأوصاف روحانية على قدر فهم المتوسطين مثل قوله تعالى: «في مقعد صدق عند مليك مقتدر » ، وقال : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »، وقال : « وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » وقال : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة »، وماشا كلها من الأوصاف الروحانية التي لاتليق بالأجسام الطبيعية .

وتارة وصفها بأوصاف هي بين الروحانية والجسمانية مثل قوله تعالى: «مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات »

أما ترى يا أخى أنه قال : « مثل الجنة » على سبيل التشبيه والتمثيل ليقرب من الفهم تصورها ، لا أنه يقصد الوصف عنها بحقائقها ، وإنما خاطب كل طائفة من الناس بحسب عقولهم ، ومراتبهم فى المعارف والفهوم ، لأن دعوة الأنبياء عليهم السلام عامة للخاص والعام ، ومن بينها طبقات الناس » .

ويستشهدون بكلام المسيح حيث قال لحوارييه فى وصية لهم : «إذا فعلتم مافعلت، وماقلت لكم، تكونون معى غداً فى ملكوت السموات عند أبى وأبيكم وترون ملائكته حول عرشه يسبحون بحمده ويقدسونه ، وأنتم هناك ملتذون بجميع اللذات بلا أكل ولاشراب »، وإنما صرح المسيح عليه السلام ولم يرمز ؛ لأنه كان يخاطب قوما قد هذبتهم التوراة ، وكتب الأنبياء قبله وكتب الحكماء فكانوا غير محتاجين إلى الإشارات ، أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد اتفق مبعثه فى قوم أميين من أهل البوادى غير مرتاضين بالعلوم ، ولامقرين بالبعث والنشور ، ولاعارفين بنعيم ملكوت الدنيا ، فضلا عن معرفة نعيم أهل السموات الذين هم ملكوت الأفلاك والآخرة وأهل الجنان ، فجعل أكثر صفة الجنان فى كتابه جسمانية ليقربها من فهم القوم ويسهل تصورها عليهم ، وترغب نفوسهم فيها ، ونحن قد جعلنا بحثنا عن أسرار الكتب الإلهية ، وبينا فى أكثر رسائلنا معنى أسرار التنزيلات النبوية ، وكشفنا عن أكثر الرموز والإشارات وعن الموضوعات الناموسية ، وذلك لأن خطابنا لايكون إلا مع أقوام علماء فضلاء مارسوا إخوان الصفاء ، ورسخوا فى العلم وارتاضوا بالرياضيات الحكمية

المقرونة بأسرار الكتب الإلهية ، وإشارات الأنبياء عليهم السلام[١] .

**الكفر** : وعلى هذا فإن الكفر الذى يؤدى ببعض النفوس إلى جهنم له عندهم معنى خاص ، فالكفر فى لغة العرب الغطاء ، وهو شىء يعرض للنفس من جهة الجسد ، وذلك أنه إذا استقرت النفس فى الجهالة تغطى عليها أمر ذاتها ، وذهب عليها معرفة جوهرها ، حتى يبلغ من جهالتها ألا تعلم بأن لها وجوداً خلواً من الجسد[٢] » فهذا هو الكفر فى رأيهم .

**الشياطين** : وينكرون كذلك الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين : « ومن الآراء الفاسدة من يعتقد أن الله خلق خلقا ورباه وأنماه وأنشأه وسلطه وقواه على عباده متمكنا فى بلاده ، ثم ناصبه بالعداوة والبغضاء ، وهو إبليس وجنوده من الشياطين ، وهم يفعلون مايريدون على رغم منه[٣] »

وإنما الشياطين عندهم هى تلك النفوس الشريرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع إخوانها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ، وانغمست فى حمأة المادة ، وهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل ، كما قال تعالى : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا »

---

(١) ج ٣ ص ٩١ — ٩٢

(٢) ج ٣ ص ٧٦

(٣) ج ٤ ص ٦٢

فشياطين الإنس ، هى النفوس المتجسدة الشريرة التى آنست بالأجساد ، وشياطين الجن هى النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأنظار .

**العذاب** : وأما العذاب الذى تلقاه هذه النفوس فقد ذكرنا طرفا منه فيما سبق ونوضحه هنا فنقول :

إن النفوس إذا اهتمت بالجسد أكثر من اللازم ، وغاصت فى لجج اللذات ، ثم جاءت سكرة الموت بالحق ، وفارقت النفس الجسد ، وسلبت الآلات التى كانت تتلذذ بها ، وقد أعتادتها بطول الدربة ، فانطبع فى همتها النزول إليها ، ولا وصول لها إلا بهذا الجسد ـ وأين هو ؟ .

كانت فى آلامها كمن سلبت عيناه ؛ وصمت أذناه ، وشلت يداه، وقطعت رجلاه ، وخرس لسانه ، وشد منخراه ، وعمى قلبه ، وفارقه أحبابه، وجفاه أصدقاؤه، وتركه إخوانه، وظفر به أعداؤه ، وشمت به حساده .

تظل هذه النفس متعذبة نادمة متألمة من سوء عاداتها ، عمياء فى جهالاتها دون فلك القمر ، هاوية فى عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الأمم الخالية ، إخوان الشياطين « كلما دخلت أمة لعنت أختها » ، وهذه هى جهنم عند إخوان الصفا لا تلك التى وصفها القرآن بأن لها ناراً يلقى فيها الكفار كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ليتذوقوا العذاب [١] .

وأما الصالحون فثوابهم يتفاوت بحسب درجاتهم فى المعارف ، واجتهادهم

---

(١) جـ ٣ ص ٩٣ ـ ٩٤ .

فى الأعمال الصالحة ، وأجود أحوال العامة والجهال كثرة الصوم والصدقة والصلاة والقراءة والتسبيح ... وما شا كل ذلك من العبادات المفروضة والمسنونة فى الشرائع، المشغلة لهم عن فضول وبطالة، وما لاينبغى لهم؛ كيلا يقعوا فى الآفات

وأفضل أعمال الخواص التفكر والاعتبار بتصاريف أمور المحسوسات والمعقولات وبخاصة مايتعلق بالدين ، وقد قيل أيضا : أفضل أعمال الخير خصلة واحدة وهى التفكر ، قال تعالى : قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

ثم اعلم أن الإنسان إذا عقل الأمور المحسوسة وعرفها وتفكر فى الأمور العقلية وبحث عنها وعن عللها استقبلته عند ذلك طريقتان : إحداهما ذات اليمين تؤدى إلى الهداية والرشاد ، والأخرى ذات الشمال تؤديه إلى الغى والضلال ، وذلك أن أمور العالم نوعان : كليات وجزئيات لاغير ، فإذا أخذ الإنسان يفكر فى كلياتها ويعتبر أحوالها وتصاريفها ، ويبحث عن الحكمة فيها بانت له ، وأمكنه أن يعرفها بحقائقها ، وأرشد إليها ، فكلما تقدم فيه زاد هداية ونورا ويقينا .

وإذا أخذ يتفكر فى جزئياتها والبحث عنها وعن عللها خفيت وانغلقت مناحيها، وكلما ازداد تفكرا ازداد تحيراً وشكوكا ، ومن الله بعداً ، وكان قلبه من أجل ذلك فى عذاب أليم [(١)] » .

---

(١) ج ٤ ص ٤٠ — ٤١ .

وهذا هو رأى أفلاطون فى الفضيلة وفى نظرية المثل وفى السعادة الحقيقية؛ فالإدراكات الـكلية عنده هى العلم الصحيح ، والاقتصار على الجزئيات اقتصار على ظلال الحقائق ، وأخذ للعلم عن طريق الحواس وهى خاطئة . وإنما العلم المطلوب هو العلم بالحقائق المجردة أو بعالم المثل (١) .

والسعادة عنده أربعة أنواع : العلم بعالم المثل ثم تفهم الارتباط بين عالم المثل وعالم الحس، ثم التثقف بأنواع من العلوم والفنون ، ثم التمتع بلذات هذا العالم النقية الطاهرة البريئة .

وهذه هى السعادة أو الفضيلة الفلسفية ، وإن لم يجرد الفضيلة العادية من القيمة بل قال : إن الإنسان لايستطيع أن يقفز دفعة واحدة إلى قمة الفضيلة الفلسفية بل لابد من المران والسير درجات ، ومما يساعد على هذا السير الاعتبار الحسن ، وغرس الفضائل العرفية حتى إذا جاء التفكير والتأمل ـ وهو غاية الغايات ـ كان الاستعداد لذلك حاصلا ، واستطاع الإنسان أن يصعد على هذا الأساس (٢) .

## — ٨ —

**الحث على الزهد والفقر** : كان من الطبيعى بعد ماتقدم ، أن يدعو إخوان الصفاء إلى الزهد ، والفقر ، وإهمال الجسد . وقد مر بنا فى الفصل السابع ،

---

(١) The Republic 510

(٢) قصة الفلسفة اليونانية ١٧٥ ـ ١٧٥ .

عند الكلام على طريقة استدلالهم[1] ، كيف استشهدوا على أن الجسد لاقيمة له ، بأقوال الأنبياء ، والصالحين ، والفلاسفة ، والحكماء ، وأعمالهم وإقبالهم على الموت بنفوس رضيّة طيعة ؛ رغبة منهم فى التخلص من ربقة المادة ومن هذا الجسد الكثيف الغليظ ، الذى يحجب النفس عن النور ، ويعوقها عن السمو إلى العالم العلوى .

والرسائل تَغصُّ بالكلام عن الزهد ، وصفات الزهاد ، وأعمالهم فى الحياة الدنيا ، ومصيرهم فى الآخرة ، ولايكاد فصل من فصول الرسائل يخلو من كلمة تحث على الزهد ، وتحبب الناس فيه . ونجمل هنا آراءهم ، ونعطى صورة من نظريتهم فى الزهد والزهاد استيفاء للمقام ؛ لأن هذا هو فلسفتهم العملية ، والغاية التى يدعون إليها ، والنتيجة المترتبة على نظرياتهم فى النفس ، والبعث ، والجنة والنار ، والشياطين ، والملائكة .

**سياسة الجسم** : وقد رسموا لأنفسهم . ولمن يستجيب لدعواتهم سياسة جسدية ، يجب أن يسيروا عليها ؛ حتى يحققوا الهدف الذى يرنون إليه ، وهو الوصول إلى الجنة ، وإلى الحياة الباقية فى دار الخلود . وسياسة الجسد عندهم تتلخص فى قلة الأكل ، وترك الشهوات : «وفى قلة الأكل ، وترك الشهوات خصال محمودة كثيرة ، ومناقب حسنة جميلة ، فمنها ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿أجيعوا أنفسكم تفرح بكم سكان السماء﴾، ومنها أن الإنسان

---

(١) راجع ص ١٢٧ ـ ١٢٨ من هذا الكتاب .

أصح جسما ، وأجود حفظا ، وأذكى فهما ، وأقل نوما ، وأصدق رؤيا ، وأخف نفساً ، وأحد بصراً ، وألطف فكراً . . الخ

ويقولون كذلك :

« يروى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : أول بلاء حدث فى هذه الأمة فى بعد ذهاب نبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشبع وكثرته ؛ وذلك أن القوم إذا شبعت بطونهم سمنت أبدانهم وقست قلوبهم ، وجمحت نفوسهم ، واشتدت شهواتهم : ومن آفات الشبع وكثرة الأكل ، عفونة القلب ، ومرض الأجساد ، وذهاب البهاء ، ونسيان الرب ، وعمى القلوب ، وهزال الروح ، وسلاح الشياطين ، وجراحة الدين ، وذهاب اليقين ، ونسيان العلم ، وكثرة فضول القول » ... إلى غير ذلك من خمسين خصلة ذكروها ، تهيج من الشبع وكثرة الأكل[1]

وقد وضحوا ما يأكله الإنسان ، حتى لا يصاب بالآلام والأسقام فى قولهم : « فليكن غذاؤك من الموجود غير الممتنع عليك صنفين ، ثالثهما الماء ، إما ما ينزل من السماء ، أو ما ينبع من الأرض ـ ما تيسر لك ، فإنك مادمت على ذلك من قلة الأكل وترك الشبع ، وتعمد الجوع ، فى الأوقات التى يصلح فيها استعماله ، كانت طبائعك على حالها لا يزيد فيها ما يحتاج أن تنقصه ، ولا ينقص فيها ما تحتاج أن تزيده[2] »

وزادوا ذلك توضيحا حين قالوا : « ثم اعلم أنه ليس فى كثرة الأكل

---

(١) رسائل ج ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١

(٢) ج ٤ ص ٢٩٤

افتخار ، ولا يحتاج من الأكل والشرب إلا إلى مقدار مايسكن الجوع والعطش فإذا سكن ذلك كان سكونه بألوان من المأكولات ، أو بكسرة من خبز الشعير وشرب الماء القراح ، كما قال عيسى عليه السلام للحواريين : إن أكل خبز الشعير ، وشرب الماء القراح اليوم فى الدنيا لكثير لمن يريد أن يدخل الفردوس غداً (١) » .

ومع ذلك فالآلام والأسقام التى تصيب الجسد ، إنما تأتى بموجب حركة نجومية ، ومقادير سماوية ، وكذلك زوال هذه الآفات والآلام ، وإنما صار ذلك مقدراً على الأجسام من أجل أنها ليست هى الذات الباقية ، ولكنها ذات فانية

ويدعون إلى الصبر على الآلام ، والأسقام ، مادامت آتية من قبل السماء وليس لنا بها حيلة ، ولا إلى صرفها وسيلة ، ولاداعى للوم النفوس وتقريعها والأسى على إهمالها : « وأنت إذا تيقنت ذلك سكنت نفسُك ، وطاب لها الصبر على الأسقام النازلة ، والأعلال الواصلة إلى الجسم ، واجعل أكثر شوقك إلى الخلاص من هذه الدار ، ومفارقة هذا السجن ، لأنك إذا خرجت منه قدمت على ربك »(٢) .

**مدح الزهد** : والزهد عندهم هو ترك فضول متاع الحياة الدنيا ، وترك طلب شهواتها ، والرضى بالقليل ، والقناعة باليسير من الذى لابد منه .

وقد رفع الله من المؤمنين المقربين ، واصطفى منهم طائفة على غيرهم ، وهم

---

(١) ج ٣ ص ٣٤ .
(٢) ج ٤ ص ٢٩٥

العلماء والفقهاء ، ثم إن الله ـ جل اسمه ـ رفع من جملة العلماء طائفة ، وهم التائبون العابدون ، والصالحون الورعون ؛ ورفع من هؤلاء طائفة فى الدرجات وهم الزاهدون فى الدنيا ، العارفون عيوبها ، الراغبون فى الآخرة المتحققون بها الراسخون فى علمها[1]» .

ويثنون على الفقراء الذين خلفوا حطام الدنيا وراءهم ، ولم يسعوا إلى ما فيها من لذائذ ونعم :

« ثم اعلم أن لهذه الطائفة ـ أعنى الفقراء وأهل البلوى ـ فضائل كثيرة ولله ـ تعالى ـ فى إيجادهم حكمة جليلة ، تخفى على كثير من العقلاء والمترفهين من أبناء الدنيا ، فمنها : أنهم أشد الناس يقينا بالآخرة من غيرهم من المترفين ، وأنهم أسرع الناس إجابة لدعوة الأنبياء عليهم السلام من غيرهم ، وأنهم أخف مؤنة وأقل حوائج ، وأقنع باليسير ، وأرضى بالقليل ، وأنهم أكثر ذكراً لله تعالى فى السر والعلانية ، وأرق قلوبا فى الفكرة والتذكر . . الخ[2]» .

فالزهاد عندهم أقرب الخلق إلى الله ، وهم الصفوة المختارة من جميع من رضى الله عنهم ، وللفقراء منزلة عظيمة عند ربهم ، وهم مقربون إليه ، أثيرون عنـــــده .

**صفات الزاهد** : وقد أضفوا على الزهاد ـ ولعلهم يعنون بذلك المثل الأعلى فى أذهانهم ـ مجموعة من السجايا قلما توجد فى إنسان غير الأنبياء ، فمن هذه الخصال :

---

(١) جـ ١ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠

(٢) جـ ٣ ص ٢٩٨

١ — العفة ، وهذه خصلة تتبعها أخلاق جميلة ، وخصال محمودة ، فمنها الكف والورع ، والحفظ والوقار ، والأمانة ، والصحة ، والسلامة ، وحسن الثناء ، وبراءة الساحة ، وسكون الناس إليهم ، والثقة بهم ، والإجلال لهم ،

٢ — ومن خصال الزهاد: السخاء والكرم ، والبذل، والمواساة والإحسان والإيثار ، والتودد ، والبر ... الخ

٣ — ومن خصالهم : الحلم والأناة ، والتثبت والرزانة ، والتؤدة والرفق والمداراة ، والسكينة والوقار ، والحياء والصفح ، والعفو والتغافل ، والشفقة ، والرحمة . . الخ

٤ — ومن خصالهم : الرضا والقناعة ، والتجمل والكفاف ، واليأس من الطمع ، والراحة من العناء ، والتسليم للقضاء ، والصبر فى الشدائد ، وحسن العزاء . . . الخ

٥ — ومن خصالهم : التوكل على الله ، والثقة به ، والطمأنينة إليه ، والإخلاص له فى العمل ، والصدق بالقول ، والتصديق بالضمير ، والنصح للإخوان ، والوفاء بالعهد .

فالزهاد بهذه الأوصاف أولياء الله ، وخلاصة عباده من المؤمنين ، الذين يحبون الله ويحبهم .

ويصفون الطريق الموصل إلى التحلى بهذه الصفات جميعها بقولهم : « واعلم يا أخى أن الطريق إلى هذه الخصال التى وصفناها ، هو أن تبتدئ أولا بسنة الناموس ، فتعمل بوصايا صاحبه ، كما فى كتب النواميس الإلهية ، يعرفها

أكثر علماء أهل الشريعة ، وقد استغنينا عن ذكرها ؛ والذى نوصيك به نحن أن تنزع عن نفسك القشور التى تعلقت عليها من صحبة الجسد ، وتخلع اللباس الذى أحاط بها من الأمور الطبيعية ، والصفات الجسمانية ، وتجلو عنها الصدأ الذى تركب عليها من أخلاط البدن ، وسوء الخلق ، وتراكم الجهالات وفساد الآراء ، وتنحى عنها هذه الأشياء ؛ ليصفو لك اللب والمخ ، وهو جوهر نفسك النيرّة الشفافة الروحانية ، التى هى كلمة من كلمات الله ، وروح منه نفخها فى الجسد ، وأحياه بها ، وهى التى مدحها الله ـ تعالى ـ بقوله : «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء » .. الآية ، وقال : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه[1] »

**السعداء والأشقياء** : وعلى هذا فالناس ينقسمون فى سعادة الدنيا والآخرة وشقائهما ، أربعة أقسام : فمنهم سعداء فى الدنياء والآخرة جميعاً ، ومنهم أشقياء فيهما جميعاً ، ومنهم أشقياء فى الدنيا سعداء فى الآخرة ، ومنهم سعداء فى الدنيا أشقياء فى الآخرة .

فأما السعداء فى الدنيا والآخرة جميعاً ، فهم الذين وفر حظهم فى الدنيا من المال والمتاع والصحة ومُكنوا فيها ، فاقتصروا منها على البُلغة ، ورضوا بالقليل وقنعوا به ، وقدموا الفضل إلى الآخرة ذخيرة لأنفسهم ، كما ذكر الله ـ تعالى ـ بقوله : « وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

---

(١) رسائل جـ ١ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣

وأما سـعداء أبناء الدنيا وأشقياء أبناء الآخرة فهم الذين وفر حظهم من متاعها ، ومكنوا منها ، وارتقوا فيها فتمتعوا ، وتلذذوا ، وتفاخروا ولم يتعظوا بزواجر الناموس ، ولم ينقادوا له ، وطغوا وبغوا وأسرفوا ، وهم الذين أشار إليهم بقوله جل ثناؤه : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » الآية

وأما أشقياء الدنيا ، وسعداء الآخرة فهم الذين طالت أعمارهم فيها وكثرت مصائبهم فى تصاريف أيامها ، واشتدت عنايتهم فى طلبها . . الخ ، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها ، وائتمروا بأوامر الناموس ، ولم يتعدوا حدوده ، وقد ذكر الله ذلك فى آيات كثيرة من القرآن: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»

وأما أشقياء الدنيا والآخرة ، فهم الذين بخسوا حظهم من الدنيا ، ولم يمكنوا منها ، وشقوا فى طلبها، فعاشوا فيها طول أعمارهم بأبدان متعوبة ونفوس مهمومة ، ولم ينالوا خيراً ؛ ثم لم يأتمروا بأوامر الناموس ، ولم ينقادوا لأحكامه فهم الذين خسروا الدنيا والآخرة جميعا ، وذلك هو الخسران المبين»[١] .

فالزهد فى الحياة الدنيا ، وإضعاف الجسد والتخلص منه ، والسمو بالنفس الإنسانية ، هو خلاصة فلسفة إخوان الصفاء العملية . وهم فى هذا يخلطون بين الشريعة الإسلامية التى تفضل الحياة الآخرة على الحياة الدنيا ، وبين الأفلاطونية الحديثة التى تحث على الزهد ، والتخلص من الجسد؛ حتى تتحرر النفس وتكون أهلاً للاتحاد مع الله فترة من الزمن ـ ولو وجيزة ـ كما رأينا آنفاً .

---

(١) رسائل ج ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

# الفصل التاسع

## التربية عند إخوان الصفا

— ١ —

**الاهتمام بالعلم** : إن آراء إخوان الصفا فى النفس الإنسانية التى سبق الكلام عليها، وفى أن مصيرها من شقاء وسعادة بعد مفارقتها الجسد يتوقف على مقدار ما أحرزت من علم فى هذه الحياة الدنيا ، علم بكليات هذا العالم ، وحقائقه المجردة ، هذه الآراء جعلتهم يهتمون جل الاهتمام بالعلم ،وطرق تحصيله

وهم وإن لم يكونوا من الذين تولوا التدريس والتعليم بمعناهما الذى نعرفه اليوم ـ لأن المدارس النظامية فى العالم الإسلامى لم تعرف قبل مدرسة نظام الملك أبى على بن الحسن بن إسحق الطوسى، وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان فى بغداد [1] ، تلك المدرسة التى قام بالتدريس فيها الغزالى سنة ٤٨٤هـ إلا أنهم كانوا أصحاب مذهب دينى معين ، وقد عرفنا فيما سبق أنهم ينتمون إلى

---

(١) ولد نظام الملك فى ٤٠٨ هـ وتوفى ٤٨٥ ، وقد اغتيل هو والسلطان ألب أرسلان بعد سنة من قيام الغزالى بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ، وقد أنشأ مدرسة أخرى بنيسابور ووقف عليهما الأوقاف .

الشيعة الباطنية ، وكان لهم هدف ذكروه من تأليف جماعتهم ؛ وهذا الهدف هو قلب نظام الدولة ، وإسقاط العباسيين ، وإرجاع الخلافة لآل البيت ،وأنهم لم يسلكوا لهذه الغاية طريق الثورة العنيفة ، والجهاد الواضح العلنى ، ومناصبة العباسيين العداء ؛ ولكن سلكوا طريقاً طويلا ، هو تكوين جماعة من الناس تعتقد آراءهم ، وتعمل على تحقيقها ، ويكون هذا الجمهور داعية لغيره ، وهكذا حتى يؤمن الرأى العام بقضيتهم وعدالتها ، ويكون عنده من العلم والحصافة مايحصنه من الأهواء والمغريات ، فيمشى فى طريقه قدماً لايلوى على شىء ؛حتى ينجز أمله ، ويحقق غايته : « واعلم أن الدولة والملك ينتقلان فى كل دهر وزمان ، ودور وقران ، من أمة إلى أمة ، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ، ومن بلد إلى بلد .

واعلم أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء حكماء ، وخيار فضلاء يجتمعون على رأى واحد ، ويتفقون على مذهب واحد ، ودين واحد ، ويعقدون بينهم عقداً وميثاقا ، ألا يتجادلوا ولايتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً ، ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، وكنفس واحدة فى جميع تدبيرهم فيما يقصدون[1] »

ولقد ألفوا رسائلهم كما عرفنا للأخ البار الرحيم ، الذى ينتمى للطبقة الأولى من طبقاتهم الأربع ، والذى سيكون داعية لفكرتهم ، فى جميع الأمصار ، وقد وجهوا آراء تربوية لهذا الأخ البار الرحيم ، تعينه فى اتصاله بالناس ، وفى بث آرائه ، وفى تخير من يوجه إليهم الدعوة ، ويعلمهم أغراضها وطرقها . وهذه

(١) رسائل ج ١ ص ١٣١ .

الآراء منتثرة على غير نظام فى الرسائل ، لم يعقد لها فصل بعينه فى جزء من الأجزاء الأربعة ، وإنما يتصيدها المرء تصيداً من تضاعيف الكلام ، ونهايات الفصول وأوائلها .

**الحاجة إلى المعلم** : فأول مايلفت النظر من هذه الآراء تأكيدهم الحاجة إلى المعلم ، واشتراط صفات خاصة فى هذا المعلم ، ثم الإشادة بقيمته ، ومنزلته .

لأن أعمال النفس الإنسانية المكتسبة خمسة أنواع : علوم ومعارف ، وأخلاق وسجايا ، وآراء ومعتقدات ، وكلام وأقاويل ، وأعمال وحركات ، وتوصف هذه الأشياء بالخير والشر من وجهين . عقلى ووضعى ، فالوضعى هو كل شىء أمر به الشرع أو حث عليه أو مدحه ، فيسمى ذلك خيراً ، وكل شىء نهى عنه أو كرهه يسمى شراً .

أما العقلى فهو كل شىء إذا فعل منه ماينبغى، على الشرائط التى تنبغى، فى المكان الذى ينبغى ، فى الوقت الذى ينبغى، من أجل ما ينبغى يسمى ذلك خيراً ومتى نقص من هذه الشرائط واحد يسمى ذلك شراً . ومعرفة هذه الشروط ليس فى وسع كل إنسان فى أول مرتبته إلا بعد أن تتهذب نفسه، ويترقى فى العلوم والآداب.

ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم ومؤدب ، أو أستاذ فى تعلمه وتخلقه ، وأقاويله ، واعتقاده ، وصنائعه[1] »

فوجب على كل إنسان يبغى النجاة بنفسه أن يهتم بالعلم ، فليس من فريضة من جميع ما فرضته الشريعة أوجب ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع للإنسان ولا

---

(١) ج ٤ ص ١٨

أقرب له إلى ربه من العلم وطلبه وتعليمه ؛ لأن العلم حياة القلب من الجهل ( وهذا مانسميه فى عرف التربية الحديث التربية العقلية : لأن العرب كانوا يعتقدون أن القلب هو مركز الفكر – وفى الآية الكريمة : « لهم قلوب لا يفقهون بها » ) ، ومصابيح الأبصار من الظلم « وهذه هى التربية الخلقية » ، وقوة الأبدان من الضعف « وهذه هى التربية الجسمية »، ولأن العلم إمام العمل والعمل تابع له « وهذه هى التربية العملية » [١] .

**المعلم** : وما دام هذا شأن العلم فوجب على كل إنسان أن يتخير المعلم الذى يتلقى عنه أو يتلقى عنه ولده ، ومن سعادة المرء أن يتفق له معلم ذكى ، جيد الطبع ، حسن الخلق ، صافى الذهن ، محب للعلم ، طالب للحق ، غير متعصب لرأى من المذاهب [٢] . وللمعلمين آفات وعيوب كثيرة عليهم أن يتجنبوها ويحذروها فمنها :

١ – الكبر والعجب والافتخار ، وقد روى عن رسول الله أنه قال : « من ازداد علماً ولم يزدد لله تواضعاً ، وللجهال رحمة ، وللعلماء مودة لم يزدد من الله إلا بعداً »

وهذا الكبر كما يقول إخوان الصفا ، يدعو المرء إلى الاعجاب برأيه ، والأنفة عن قبول الحق ، وترك الإقرار به ، وعدم الخضوع للرؤساء، والخروج عن الحد .

---

(١) ج ١ ص ٢٧١
(٢) ج ٤ ص ١١٤

على أن كبر النفس ليس مذموما على إطلاقه عندهم، فهو كـكل الصفات ، إذا استعمل كما ينبغى، فى الوقت الذى ينبغى، بمقدار ماينبغى من أجل ما ينبغى، كان محموداً وعاملا على طلاقة النفس والمروءة ، وعلو الهمة والعفة .

٢ ـ ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فى العلم ، والتعصب والعداوة والبغضاء بين القائمين به .

٣ ـ ومنها الخوض فى المشكلات ، والترخيص فى الشبهات وترك العمل بموجب العلم(١)

على أن هذه صفات عامة يطالب بها المعلم والمتعلم على السواء ، ولكنهم ذكروا مايكاد يشبه مانسميه فى عرفنا الحديث « الاختبار الشخصى للمعلم » عند الكلام على الداعية الذى رغب فى أن يتلقى العلم عنهم ، وما الداعية إلا معلم فوجهوا الخطاب إليه قائلين : « فلما وصلت أيها الأخ السعيد إلينا واطلعت علينا ، وامتحناك بحيث نراك، كما يمتحن مثلك ممن يصل إلينا ويرد علينا ورأيناك ... الخ(٢) »، وذكروا بعد هذا صفات هذا الذى سيكون معلماً يحمل رسالتهم ، وهذه الصفات هى :

١ ـ أن يكون تام الأعضاء ، قوية قوائمه على الأعمال ، ومتى هم أن يقضى عملا أتى عليه بسهولة .

٢ ـ أن يكون جيد الفهم ، سريع التصور لكل مايقال له .

---

(١) جـ ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٧

(٢) جـ ٤ ص ٢٩٣

٣ ـ أن يكون جيد الحفظ ، لما يفهمه ، ولما يسمعه ، ولما يذكره .

٤ ـ أن يكون فطناً ذكياً ، ذا رأى يكفيه لتبيين أدنى دليل يستدل به على قضيته التى يعرضها ، أو موضوعه الذى يتكلم عنه .

٥ ـ أن يكون حسن العبارة ، يواتيه لسانه على ما فى قلبه وضميره بأوجز الألفاظ .

٦ ـ أن يكون محباً للعلم والاستفادة ، منقاداً له ، سهل القبول ، لا يؤلمه تعب العلم ، ولا يؤذيه الكد الذى يلحقه .

٧ ـ أن يكون محباً للصدق وحسن المعاملة .

٨ ـ أن يكون غير شره فى الأكل والشرب ، وفى الشهوات الجسمية .

٩ ـ أن يكون كبير النفس عالى الهمة ، محباً للكرامة ، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور ويَشْنُع ، وتسمو همة نفسه إلى أرفع الأمور رتبة وأعلاها درجة .

١٠ ـ ألا يكون المال مسيطراً على نفسه ، بل يكون راغباً فى العلم لذاته .

١١ ـ أن يكون محباً للعدل وأهله ، مبغضاً للجور والظلم وأهله ، ويكون مواتياً لكل ما يرى حسناً جميلا عدلا ، غير صعب القياد ولا جموح ، وإن دعى إلى الجور والقبيح لا يجيب .

١٢ ـ أن يكون قوى العزيمة على الشىء الذى ينبغى أن يفعل ، جسوراً

مقداماً غير خائف ، ولا ضعيف النفس [١] .

وعندى أن هذه صفات لو توفرت لأى معلم فى أية بيئة لجملته معلماً نموذجياً ينشئ من تتلمذ له تنشئة تجعلهم سادة العالم .

وزادوا على هذا بعض نصائح وجهوها للمعلم منها .

١ ـ الرفق بمن يعلمه والشفقة عليه .

٢ ـ قلة الضجر من إبطاء فهم التلميذ وحفظه ، وترك ضيق الصدر من تلقينه .

٣ ـ قلة الطمع فى أخذ العوض منه .

٤ ـ قلة المنة عليه بما يعلمه [٢]

٥ ـ أن يتعرف خبر كل واحد من تلاميذه صغيراً أو كبيراً ، ما اسمه ونسبه وصناعته وعاداته السيئة والحميدة ـ وهذه لفتة تشعر التلميذ باهتمام المعلم بشأنه فيحبه ويجتهد فى دروسه ، كما تمكن المعلم من إصلاح تلميذه وتوجيهه الوجهة العامة .

٦ ـ أن يكون قدوة حسنة لهم فى كل شىء .

٧ ـ أن يؤكد الصلات والمودة بينهم ، ويوحد كلمتهم حتى يصيروا كرجل واحد .

---

(١) ج ٤ ص ٢٩١ ، و ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٢) ج ١ ص ٢٥١ .

٨ ـ أن يقسمهم جماعات ، على كل جماعة رئيس يتلقى تعاليمه ، ويشرف عليهم من قرب [١]

**حقوق المعلم** : فإذا وجد المعلم الذى يتصف بهذه الصفات ، ويقوم بهذه الواجبات ، فله على التلميذ حقوق ذكرها إخوان الصفا فيما يأتى :

« واعلم أن المعلم والأستاذ أب لنفسك ، وسبب لنشوئها وعلة حياتها ، كما أن والدك أب لجسدك ، وكان سبباً لوجوده ؛ وذلك أن والدك أعطاك صورة جسدية ، ومعلمك أعطاك صورة روحية » [٢]

وما دام المعلم فى منزلة الأب ، بل فى منزلة أعلى من الأب ، لأنه مربى الروح فبديهى أن يعظمه ويجله ، ويحرص على رضائه ، ويحتفى به أين وجده ، ويقعد بين يديه [٣] .

— ٣ —

**التلميذ** : أمّا التلميذ فقد حرصوا على أن يكون من الأحداث الذين لم تلوث أفكارهم بمعتقدات فاسدة وآراء غير صحيحة ، وأخلاقهم بصفات رديئة ، وفى هذا يقولون :

« واعلم أن مَثَل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم ، واعتقاد

---

(١) جـ ٤ ص ١٨٤ ـ ١٩٠ ، و جـ ٤ ص ٢٩٩ .

(٢) جـ ٤ ص ١١٣ .

(٣) جـ ٤ ص ٢٠٢ .

من الآراء ، كمثل ورق أبيض نقى لم يكتب فيه شيء ، فإذا كتب فيه شيء حقاً كان أم باطلا ، فقد شغل المكان ، ومنع أن يكتب فيه شيء آخر ، ويصعب حكّه ومحوه . فهكذا حكم أفكار النفوس إذا سبق إليها علم من العلوم ، واعتقاد من الآراء ، أو عادة من العادات تمكن فيها حقاً كان أو باطلا ، ويصعب قلعها ومحوها كما قال القائل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى  فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فإذا كان الأمر كما وصفت ، فينبغى لك أيها الأخ ألا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة ، الذين اعتقدوا من الصبا أراء فاسدة ، وعادات رديئة ، وأخلاقاً وحشة ، فإنهم يتعبونك ثم لاينصلحون ، وإن صلحوا قليلاً قليلاً فلا يفلحون .

ولكن عليك بالشباب السالى الصدور ، الراغبين فى الآداب ، المبتدئين بالنظر فى العلوم [1] ؟

وقد أكدوا هذا المعنى فى غير ما موضع من الرسائل : « فهكذا ينبغى لإخواننا الفضلاء الأخيار أن يختاروا لحكمتهم الأحداث الفتيان ، الأخيار النجباء » [2] ، « ولايصلح للمذاكرة بهذا العلم إلا فتيان أذكياء ، لهم نفوس صافية وقلوب واعية ، بريئون من الآراء الفاسدة ، غير معتادين للعادات الرديئة » [3]

هذا وقد فطن إخوان الصفاء إلى أن بعض العلوم يصلح لها صنف من

---

(١) ج ٤ ص ١١٤ .

(٢) ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٣) ج ٤ ص ٢٠٨ .

الناس دون الآخرين ، ويجب أن يختار التلاميذ الصالحون لكل علم حسب استعدادهم وميلهم لهذا العلم ؛ حتى تكون الثمرة قريبة مفيدة ، وحتى لايضيع على المتعلم وقت ثمين فى تحصيل موضوع لايرغبه أو يميل إليه ، ويقولون فى هذا :

« ثم اعلم أن الله تعالى خلق لكل نوع من هذه العلوم والآداب أمة من الناس ، وجعل فى جبلة نفوسهم محبة معرفتها ، ومكنهم من طلبها وتعلمها ، والبحث عنها والنظر فيها لتكون العلوم والآداب محفوظة عليهم لاتنقرض .

واعلم أن العلوم والآداب تتفاضل ، كما أن الصنائع والتجارات والأعمال تتفاضل ، وأن أهلها يتفاضلون فيها ؛ وأفضل كل أهل علم هم الراسخون فى العلم العارفون بأصوله وفروعه ، كما أن أفضل أهل الصناعة والتجارة هم الحذاق والأساتذه فيها .

ثم اعلم أنه ليس كل علم وأدب يليق بكل إنسان أن يتعلمه ويتعاطاه ، ولكن أولى العلوم بكل إنسان أن يتعلم ما لا يسعه جهله وواجب عليه طلبه .

فانظر يا أخى بعقلك ، وميز ببصرك ، واختر من العلوم والآداب مالابدلك منه ، كما تختار من الأعمال والصنائع والتجارات مالابدلك منها » (١) .

ويفهم من هذا النص المتقدم فضلاً عن ذلك التوجيه العلمى حسب استعداد الطالب ، أنه على الرغم من تفاضل العلوم والآداب ، فإتقان أى علم والرسوخ فيه يكسب صاحبه فضلاً بين أهل هذا العلم والمشتغلين به ،

---

(١) جـ ٤ ص ٤٦ .

ويكون أستاذاً يعرف أصول هذا العلم وفروعه ، بينما لو اشتغل بغير هذا العلم ، وليس عنده الاستعداد لتحصيله ، والتفوق فيه ، فلن يكون إلا مضيعاً لوقته مغموراً بين الناس ، غير منتج الإنتاج الذى يرجى من العلماء .

كما يفهم من هذا النص شىء آخر ، وهو أن هناك قدراً مشتركا من المعلومات لابد أن يحصلها كل إنسان ، وذلك قولهم : « ولكن أولى العلوم بكل إنسان أن يتعلم مالا يسعه جهله ، وواجب عليه طلبه » وبعد هذا القدر العام من الثقافة يتجه كل امرئ حسب مايؤهله له استعداده .

وقد فصلوا هذا الكلام المجمل فى موضع آخر حيث يقولون: « ومنهم من تكون محبته فى لقاء أهل العلم ، واستماع كلام العلماء ، وطلب العلوم والآداب ومعرفة الأخبار والروايات والآثار .

ومنهم من تشتهى نفسه علم النحو والشعر والخطب والفصاحة والأقاويل والكلام ، وما شا كل هذه ويلتذ بها .

ومنهم من يشتهى علم الحساب والهندسة والنجوم والطب والمنطق والرياضيات وما شا كلها ويلتذ بها .

ومنهم من تشتهى نفسه علم العزائم والرقى والسحر والكيمياء ، والميل إلى الميكانيكا وما شا كلها ويلتذ بها .

ومنهم من يشتهى النظر فى علوم الطبيعيات والالهيات ، والبحث عنها ، وعن حقائق الموجودات الكائنات الفاسدات ، والباقيات المخلدات .

فانظر ياأخى بعقلك ، وميز ببصيرتك ، واختر لنفسك من هذه المشتهيات

مايليق بها وترضى لها (١) .

والمهم عندهم ألا يكون المرء جاهلا ، ولكن يأخذ نفسه بتعلم أى نوع من العلوم ، حتى ينقذ نفسه من تراكم الجهالات عليها ، ومن العذاب الذى ينتظرها إذا ظلت جاهلة بعد مفارقتها الجسد ، ويقولون فى هذا : « وتعلم العلم ، أىّ علم كان ، حكميا ، أو شرعياً ، رياضياً ، أو طبيعياً ، أو إلهياً ، فإنها كلها غذاء للنفس ، وحياة لها فى الدنيا والآخرة جميعاً ، ولا تتبع سبل الذين لايعلمون وهم الذين وصفهم الله بقوله : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم (٢) »

— ٤ —

**مواد الدراسة** : يعد إخوان الصفا رسائلهم منهجاً طبيعيا ، ألفوها للأخ البار الرحيم الذى دخل فى زمرتهم ، ورغب أن يكون داعية من دعاتهم فيقولون له ، بعد حثه على طلب العلم أياً كان نوع هذا العلم : « وقد عملنا فى هذه العلوم والآداب إحدى وخمسين رسالة ، كل واحدة منها فى فن من العلوم ، ونوع من الآداب ، فاطلبها واقرأها تجدها سهلة من غير تعب وكد (٣) » .

وقد بينا فيما سبق محتويات هذه الرسائل ، ونقول هنا : إن هذا المنهج

---

(١) ج ٤ ص ٦٧ .

(٢) ج ٤ ص ٧١

(٣) ج ٤ ص ٧٢

لم يشمل كل ماذكروه عن اختلاف رغبات الناس فى مختلف العلوم ولا سيما الدراسات الدينية واللغوية . وهذه الرسائل كانت تهدف إلى الدراسة الفلسفية قبل كل شىء ، وإن لم تتعمق فى دراسة الفلسفة وقد أقروا بأنها كالمدخل لكل علم من العلوم التى ضمنوها رسائلهم والتى قسموها أربعة أقسام : رياضية تعليمية كالعدد والهندسة والموسيقى ، والكلام والجغرافيا ، والمنطق؛ وجسمانية طبيعية كالزمان والمكان ، والسماء والعالم والهيولى والصورة ، وكيفية تكوين المعادن . وأجناس النبات . وأصناف الحيوان ... الخ ؛ والقسم الثالث : نفسية عقلية كالمبادىء العقلية وماهية العشق ، ونشأة العالم ، وماهية البعث والنشور ، وأقسام النفس ... ألخ . والقسم الرابع : رسائل ناموسية شرعية دينيـــة ، كالكلام فى الآراء والمذاهب ، واعتقاد إخوان الصفا ، وماهية الأيمان والكلام عن الجن والملائكة والشياطين ، وأنواع السياسات ، والسحر والعزائم ...الخ

ولما كان هذا المنهج الدراسى لايصلح لكل الناس ، ولم يقصد به كل الناس وإنما هو دراسة خاصة لطبقة معينة هى التى ستخرج للدعاية والتعليم على مبادىء إخوان الصفا ، كما أنها دراسة فلسفية لا تشمل كل العلوم، رأى إخوان الصفـا تقسيم العلوم حسب مهن الناس ، ووجهوا لكل طائفة نصائح تعليمية تعينهم على تحصيل علومهم ، وعلو ذكرهم ، وحسن أخلاقهم .

والناس فى رأيهم، أو بالأحرى فى زمانهم، الذين يشتغلون بالعلم ثمانيـــة أصناف :

أولهم : حفظة القرآن ، والشروط التى يجب أن تتوفر فى هؤلاء، والصفات

التى يجب أن يتحلوا بها هى فصاحة الألفاظ ، وتقويم اللسان ، وطيب النغمة ، وجودة العبارة ، وسرعة الحفظ وجودة الفهم ، ودوام الدرس ، والنشاط فى القراءة والتواضع لمن يتعلم منه ، والتعظيم له ، ومعرفة حقه وحرمته .

والصنف الثانى : رواة الحديث ، ويجب أن يتوفر فى هؤلاء : جودة الاستماع واستيفاء الكلام ، وضبط الألفاظ على رسمها ، وتقييدها بالكتابة والتحرز والتحرج والحذر من الزيادة والنقصان عن تمامها ، والصدق وحسن الأداء ، وتجنب الكذب ، ثم الحكاية عنها بهيئتها .

والصنف الثالث : طلاب الفقه والذين يريدون القضاء والفتيا . والمنهج الذى يلزمهم هو معرفة الرتب ، التى رتبها واضع الناموس ، من الأوامر والنواهى ، والفرائض والسنن والنوافل ، والحلال والحرام ، والحدود والأحكام ثم معرفة القياس ، وكيفية استخراج الفروع من الأصول فى الفتاوى ، والمسائل الواردة التى ليس لها ذكر فى الأصول ، والتثبت والتأنى فى الفتيا ، والاستقصاء فى استفهام السؤال بجميع شرائطه ، ثم قلة الترخيص فى الشبهات من المحذورات ودرء الحدود بالشبهات ، وترك الافتخار فى إصابة الأحكام وقلة الشنعة على العلماء بزلاتهم ، وألا تكون أقوالهم مخالفة لأعمالهم .

والصنف الرابع : طلاب التفسير لآيات القرآن ، ويلزمهم معرفة غرض صاحب الشريعة فى إيراده التنزيل ، واستعماله الألفاظ المشتركة المعانى ، وأن يكون لهم اتساع فى معرفة تصاريف الكلام والأقاويل ، ويكون لهم جودة بحث وبعد غور فى استخراج المعانى ، ولطف العبارة عنها بحسب ما تحتمل

عقول المستمعين ، ويقرب من فهم المتعلمين .

والصنف الخامس : الغزاة والمدافعون عن الثغور والبلاد ، ويجب أن يكونوا متعصبين فى الدين ( حتى يكون دفاعهم عن عقيدة فيستميتون فى القتال، ولهدف فترضى نفوسهم بالتضحية ) ، وأن تكون لهم غيرة على حرمه ، وحنق على الأعداء ، وشجاعة عند البراز ، وخفة الحركة عند القتال ، وتيقظ القلب من غدر العدو، وطلب الحيلة للظفر إذا أمكن ذلك من غير قتال ، والمخادعة فى الحروب ، والمبادرة إلى النزال ، والصبر عند اللقاء ، وترك الإفساد عند هزيمة العدو ، ورحمة الأسير وقبول الصلح عندالهدنة ، والوفاء بالعهد،وترك الإعجاب عند كثرة عدد الإخوان والأنصار .

والصنف السادس : الزهاد والوعاظ ، ويلزمهم صفات عملية وأخرى علمية ، فأما العملية : فأن يكونوا متحلين بالقناعة منصرفين عن الشهوات وأن يكونوا من المشتغلين بالعلم ، الفاهمين لعظات الآثار ، والمنازل الدارسة للأمم الخالية ، مع العبادة من صوم وصلاة . وأما الصفات العلمية فالنظر فى كتب الحكماء ، وأخبار سير الملوك الماضية ، والتفكر فى الأمثال المضروبة على ألسنة الحكماء ذوى التجربة ، ومعرفة أحوال النفوس ومصيرها ، وأمر المعاد ، وما يصيب الإنسان فيه من شقاء ونعيم .

والصنف السابع : الملوك والحكام والرؤساء ، وهؤلاء يجب أن يؤخذوا منذ الصغر بالتعليم والتأديب والرياضة ، وينهوا عن اللذات والشهوات ، وكل مالا يليق بالرؤساء والعقلاء ؛ حتى لايكونوا من هؤلاء المتخلفين والمدابير الذين

يسعون ليلهم ونهارهم فى طلب شهواتهم . ويجب أن يُعَلَّموا كيف يأخذون البيعة على الأتباع المستجيبين ، وترتيب الخاص والعام مراتبهم، وجباية الخراج والجزية من أهل الملة ، وتوزيع الأرزاق على الجند والحاشية ، وحفظ الثغور ، وقبول الصلح والمهادنة ، وتأليف القلوب ، وجمع الشمل ، وما شا كل هذا. ثم يجب أن يكونوا متدينين عالمين بأمور دينهم ، فالدين والملك أخوان ؛ لأن الناس فى طباعهم وجبلتهم لا يرغبون إلا فى دين الملوك ولا يرهبون إلا منهم ، فيجب أن يعرفوا الشريعة حتى يلزموا الناس بها ، ويعلموا القراءة والكتابة والشعر والفصاحة والنحو واللغة والحساب والنجوم والهندسة ، وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب .

والصنف الثامن : وهو أرق الأصناف جميعاً ، فهم خلفاء الأنبياء، والعالمون بالأسرار، هم الفلاسفة، ويقول فيهم إخوان الصفاء: «وقد بينا أخلاقهم وخصالهم وشرائطهم ، وعلومهم ومعارفهم وطرائقهم على إحدى وخمسين رسالة عملناها ودوناها ، فقم أيها الأخ البار الرحيم بالعمل بواجبها والقيام بحقها ، وأخبر جميع إخواننا حيث كانوا فى البلاد بما فيها »[1]. وقد أشرنا إلى ما تحتويه هذه الرسائل

هذا هو منهاجهم الذى يتمشى مع مهن الناس ، وما يصلحون له. ولكنهم عادوا فخصوا المشتغلين بالدين بشىء من التفصيل ، وقسموهم ثلاث طبقات تبعاً للدين نفسه حيث قالوا : « واعلم أن الدين وآدابه ، وما يتعلق به نوعان فمنها ظاهر جلى ، ومنها ماهو باطن خفى ، ومنها ماهو بين ذلك » .

---

(١) راجع رسائل ج ١ ص ٢٤٩ — ٢٩٢ و ج ٤ ص ٣٢ ، ٣٣ ، ص ٢٠٠ .

فالذى يصلح للمبتدئين والعامة ما كان ظاهراً جلياً مكشوفاً مثل علم الصلاة والصوم، والزكاة ، والصدقات ، والقراءة ، وعلم العبادات ، ومثل علم الأخبار والروايات والقصص ، وماشا كلها .

وأولى علوم الدين بالمتوسطين هو التفقه فى أحكامها ، والبحث عن السيرة العادلة ، والنظر فى معانى الألفاظ ، مثل التفسير والتأويل ، والنظر فى المحكمات والمتشابهات ، وطلب الحجة والبرهان ، وألا يرضى من الدين تقليداً ، إذا كان يتمكنه الاجتهاد ودقة النظر .

والذى يصلح للخواص البالغين فى الحكمة الراسخين فى العلوم من علم الدين أن يطلبوه ويليق بهم ، هو النظر فى أسرار الدين ، وبواطن الأمور ، وحكمة التشريع ، وأسراره المكنونة ، ومرامى أصحاب الشرائع فى رموزهم وإشاراتهم اللطيفة، وحقيقة معانيها الموجودة فى التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقد بينا حقيقة معانيها فى رسائلنا الناموسية الإلهية ، وذكروا المقصود بالجنة والنار ، ومافيهما من لذة وشقاء ، ومامعنى القيامة والبعث ، والبرزخ ، والميزان والوقوف على الأعراف ، وغير ذلك .

وقد ذكرنا هذا فى فصل سابق عند الكلام على النفس ومصيرها بعد مفارقة الجسد .

ويقولون بعد هذا: « ثم اعلم أن رجال هذه الطبقات الثلاث المتقدم ذكرها متفاوتو الدرجات فى علومهم ومعارفهم ، فإن استوى أن تكون فى أعلى المراتب فلا ترضى لنفسك بالدون ، واجتهد فى الطلب ، فإن الذين هم فوقك قد كانوا

وليست هذه مراتبهم، ثم اجتهدوا فى الطلب وبلغهم الله كما وعد فقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا[1] » .

— ٥ —

**طريق التحصيل** : أما عن الطريقة التى بها تحصل المعلومات فيقول إخوان الصفا: « إن أول طريق التعاليم هى الحواس ، ثم العقل ، ثم البرهان، فلولم يكن للإنسان الحواس لما أمكنه أن يعلم شيئاً ، لا المبرهنات ولا المعقولات ، ولا المحسوسات ألبتة .

والدليل على صحة ماقلنا أن كل مالاتدركه الحواس بوجه من الوجوه لاتتخيله الأوهام ، ومالاتتخيلة الأوهام لاتتصوره العقول ، وإذا لم يكن الشىء معقولا فلا يمكن البرهان عليه ؛ لأن البرهان لايكون إلا من نتائج مقدمات ضرورية مأخوذة من أوائل العقول ( البديهيات ) ، والأشياء التى هى فى أوائل العقول إنما هى كليات أنواع ، وأجناس ملتقطة من أشخاص جزئية بطريق الحواس .

والدليل على ذلك : الصبى ، لولا أنه قدر أن عشر جوزات أكثر من خمس ، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أخرى طولها ستة أذرع ، فمن أين كان يمكنه أن يعلم أن الكل أكثر من الجزء .

وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات ؛ فإنها مأخوذة أوائلها من الحواس .

والدليل على ذلك أيضاً أنك تجد من كان أكثر محسوسات ، ولها أكثر

---

(١) جـ ٤ ص ٤٦ — ٤٨

تأملا وللمتخيلات أجود اعتباراً ، فإن الأشياء المعقولة عنده أكثر عدداً ونفسه لها أكثر تحققاً .

فقد تبين بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشيء سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس من الأشخاص، مجموعة فى فكر النفس، المسمى أنواعا وأجناساً[1] Sense Perception

ويرى إخوان الصفا أن العقل الإنسانى هو تصور المحسوسات ، والتمييز بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها ، ومعرفة جواهرها وأعراضها ، وكثرة التجارب والاعتبار بتصاريف الدنيا ، ويقولون : « ثم اعلم أن كل من كان أكثر تأملا للمحسوسات ، وأدق نظراً فى أمور الموجودات ، وأجود بحثا عن الخفيات ، وأكثر تجارب للأمور الدنيوية ، وأحسن اعتباراً لأهلها كان أرجح عقلا من أبناء جنسه ، وأكثر علما من أهل طبقته»[2].

وقد اهتم إخوان الصفا باستخدام الحواس أول الأمر فى سبيل تحصيل المعلومات اهتماما زائداً فى الرسائل ، وذكروا هذا فى أكثر من موضع

وقدسبقوا برأيهم هذا بستالوتزى[3] فى اهتمامه بالملاحظة والإدراك الحسى فى التربية ، وهربرت[4] فى نظرية الاستطلاع apperception

---

(١) رسائل ج ٣ ص ٣٩٣ ــ ٣٩٤

(٢) راجع ج ٣ ص ٢٤١ ــ ٢٨٠ وص ٣٧٦ ، وص ٣٨٤

(٣) هنرى بستالوتزى العالم السويسرى ولد فى مدينة زوريخ (١٧٤٦ــ١٨٢٦)

(٤) جون فردريك هربارت الألمانى ، استاذ الفلسفة في كونيكسبرج وصاحب النظريات التربوية المشهورة ( ١٧٧٦ ــ ١٨٤١ م )

ولقد قالوا كما قال هربارت : بأن قوى النفس الإنسانية متحدة ، مرتبط بعضها ببعض ، تلك النظرية التى فرقت فى تاريخ التربية بين علم النفس القديم وعلم النفس الحديث .

وفى ذلك يقول إخوان الصفا : ثم إن هنـاك خمس قوى أخرى هن كالشركاء المتعاونات مع النفس ؛ ثلاثة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الندماء إلى الملك تطلع على سره وتحضر مجلسه ، وهى المخيلة ، والمفـكرة ، والحافظة ، وهناك واحدة كالحاجب والترجمان ، وهى القوة الناطقة ، وخامسة بمثابة الوزير وهى القوة الصانعة ، التى بها تظهر النفس الـكتابة والصنائع أجمع .

أما كيف تعمل هذه القوى ، فذلك أن الحواس تنقل المحسوسات إلى المخيلة فتنطبع فيها ، فإذا غابت المحسوسات عن الحواس بقيت تلك الرسوم مصورة فى النفس ، ثم تؤديها كلها إلى المفـكرة ؛ حتى تميز بعضها من بعض ، وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكار ، ثم إذا أرادت الناطقة التعبير ، هيأت من الألفاظ مايعبر عن تلك المعانى ، ولما كانت الأصوات لاتمكث فى الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل ، وجدت الـكتابة لتقييد تلك الألفاظ ، وكانت مهمة القوة الصانعة أن تصوغ لها من الخطوط والأشكال مايحفظها للأجيال المقبلة[١]

وكان إخوان الصفاء يرون أنه لابد من وصـول المعلومات عن طريق حاستين من الحواس على الأقل ، ولا يكفى فى ذلك حاسة واحـــدة

(١) جـ ٢ ص ـ ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، ج ٣ ص ١٧ ـ ١٨ .

حتى يستطيع الفكر أن يحكم حكما صحيحاً ، بل كلما كثرت الوسائل الحسية التى تدخل بها المعلومات إلى العقل ، ووازن الفكر بينها كان حكمه صواباً أو قريباً من الصواب ، فيقولون مثلا عن القوة المفكرة : وهى بين الحواس والمخيلة بمثابة القاضى بين الخصماء ودعاويهم ، لا تحكم بالخطأ أو بالصواب على مايصل إليها ، إلا بعد أن يشهد شاهدان من الحواس ، أو نتائج مقدمات جزئية من البديهيات » [١] .

ويقولون فى موضع آخر :

« من الواجب طلب العلوم من ثلاث طرق ، فأحد الطرق التى تنال بها النفس العلوم قوة الفكر الذى به تدرك النفس الموجودات المعقولات ، والطريق الآخر السمع الذى تقبل به النفس معانى اللغات ، وما تدل عليه الأصوات ، والآخر طريق النظر الذى به تشاهد النفوس الموجودات الحاضرة » .

وإذا اقتصر المتعلم على طريق واحد « فمثله كمثل المريض الذى ليس له من ماله حظ إلا الثلث ، لأن المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات » [٢] .

وذكر إخوان الصفا أن الحواس لاتحمل إلا الوسط من الأشياء ، فالضوء الباهر ، والظلمة القاتمة كلاهما يعشى العيون فتعجز عن الأبصار ، كما تعجز الأذن عن سماع الأصوات الشديدة جداً ، والأصوات الخفية [٣] .

---

(١) رسائل ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) ج ٣ ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) ج ٣ ص ٤١ .

ويقولون أيضاً : « إن كل حاسة من الحواس الخمس تحتاج فى أدراكها محسوساتها إلى شرائط معدودة ، لازائدة ولا ناقصة ، فمتى عدم واحدة من تلك الشرائط أو بعض، زاد أو نقص على المقدار الذى ينبغى، عوقها عن إدراك محسوساتها على حقائقها .

مثال ذلك القوة الباصرة فإنها تحتاج فى إدراكها المبصرات إلى ضوء ما ، وإلى بعد ما ، وإلى محاذاة ما ، وإلى وضع ما ، فمتى عدم شىء منها عاقها ذلك عن إدراك المبصرات بحقائقها » [1] .

وهذا ولا شك مفيد فى وضع السبورة وحسن الضوء فى المكان الدراسى إلى غير ذلك من الأمور التى تمكن التلاميذ من الرؤية الواضحة ، وكذلك فى السمع من وقفة المدرس فى أثناء الأملاء ، أو حين قراءته ، وما شاكل هذا . ويقول إخوان الصفاء بالتدرج فى إعطاء المعلومات ؛ لأن هذا يتمشى مع نمو الطفل، ويقدمون لهذا الرأى بحال الطفل الجسمية والعقلية ، وكيف ولد لايدرك شيئاً ، ثم أخذت حواسه تتنبه أول شىء فيه، ثم ابتدأ يفهم معانى الكلام والأصوات ، ويميز بينها ، ثم يميز على ممر الأوقات بين نغمة الأم ونغمة الأب وغيرهما ، ثم شيئاً بعد شىء على التدريج ؛ وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها، ثم تجىء أيام الكتابة والقراءة والآداب والعلوم والمعارف ، وطلب حقائق الموجودات ، والبحث عن الكائنات ،

(١) ج ٣ ص ٣٨٠ .

والاستدلال بالحاضرات على الغائبات ، والمحسوسات على المعقولات ، وبالجسمانيات على الروحانيات وبالرياضيات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الآلهيات [١] .

ويطلبون استعمال القوة المفكرة فى الروية والتمييز والتصور ، والاعتبار والتركيب ، والتحليل ، والجمع والقياس البرهانى ، ويطلبون ألا يكتفى الإنسان بقبول الأشياء على علاتها ولا سيما الأخبار ، بل لا يصح أن يحكم على صحتها أو بطلانها إلا بعد الحجة والبرهان على تحقيقها أو بطلانها ، كما يفعل المهندسون والمنطقيون[٢]. ونرى إخوان الصفاء يعظمون من شأن العقل ، ويتخذونه حكماً بينهم فى كل خلاف ، بل يتخذونه رئيساً مطاعا يجب الخضوع لأوامره وشروطه ، ويقولون فى ذلك : « ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا والحكم بيننا العقل ، الذى جعله الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه ، الذين هم تحت الأمر والنهى ، ورضينا بموجبات قضاياه ، على الشرائط التى ذكرناها فى رسائلنا ، وأوصينا بها إخواننا ، فمن لم يرض بشرائط العقل ، وموجبات قضاياه ، ولم يقبل تلك الشرائط التى أوصينا بها إخواننا ، أو خرج عنها بعد الدخول فيها ، فعقوبته فى ذلك أن نخرج من صداقته ، ونتبرأ من ولايته ، ولا نستعين به فى أمورنا ، ولا نعاشره فى معاملتنا ، ولا نكلمه فى علومنا ، ونطوى دونه أسرارنا ، ونوصى بمجانبته إخواننا [٣] » .

---

(١) جـ ٣ ص ٢٨٥ .

(٢) جـ ٣ ص ٣٩٠ .

(٣) جـ ٤ ص ١٨١ .

وهم بهذا يبرهنون على أنهم ليسوا من أهل التقليد ، الذين تعمى أبصارهم وبصائرهم محبة العادات التى ألفوها ، والتعاليم التى ورثوها ، ولكن يدعون فى شدة وعنف إلى تحكيم العقل ، والتسليم بما يصل إليه من نتائج ، وهذا لعمرى ! هو الغاية من التربية الحقة ، وقد عللوا هذا الاهتمام بالعقل ، وربطوا بين دعوتهم هذه ، وبين التربية العملية ، فقالوا : « واعلم ياأخى بأن خير مناقب الأنسان العقل ، وأفضل خصاله العلم ، ولكل شيء منها خاصية ، وخاصية العقل صحة التمييز ، ومعرفة الحقائق ، والسيرة العادلة ، وحسن الاختيار ؛ فانظر الآن إن كنت عاقلا ، واختر من الأمور أفضلها ، ومن الأخلاق أجملها ، ومن الأعمال خيرها ، ومن المراتب أشرفها ، ومن المنافع أعمها وأدومها »(١) .

**التربية الخلقية** : يرى إخوان الصفا إن الأنسان من حيث هو إنسان مستعد لقبول جميع الصفات ، والتشكل بأى نوع من الخلق ، وقد سموا هذا الأنسان الأنسان المطلق الكلى ، أما الأنسان الجزئى ، أو أفراد الأنسان فيختلفون فى أخلاقهم تبعا لعوامل كثيرة (٢) .

فالتباين فى الخلق قد يكون نتيجة التباين فى الأجسام ، وما هى عليه من صحة ومرض ، وضعف وقوة ، وأمزجة متعددة متفاوتة ، وقد يكون

---

(١) جـ ١ ص ٣٠٦ .

(٢) جـ ١ ص ٢٣٥ .

نتيجة اختلاف البيئة الطبيعية التى نشأ فيها الأنسان فاختلاف التربة ، والهواء له أثره فى الأخلاق ، وقد يكون نتيجة النشأة ، والتعليم ، وأثر المعلم والأستاذ ومن يقوم بالتربية والتأديب . ويصف إخوان الصفا سببا رابعا للاختلاف وهو أثر الطالع أو أحكام النجوم ؛ لأنهم كانوا يعتقدون فى تأثيرها فى هذه الـكرة الأرضية تأثيراً عظيما [١] .

وقد أفاض إخوان الصفاء فى شرح كل سبب من هذه الأسباب الأربعة، وضربوا لذلك أمثلة كثيرة ، ولهم فى ذلك التفاتات طيبة ، وأراء نيرة تدل على عظيم التجربة ، ونفاذ التفكير . ونحن يعنينا من هذه الأسباب كلامهم عن النشأة ، وأثر البيئة التعليمية فى الأنسان .

يرى إخوان الصفاء أن الفضيلة بنت العادة ؛ لأن المداومة على خلق ما تجعله طبيعة ثانية فى الإنسان يسهل عليه أداؤه . والقيام به دون تفكير أو روية، وهذه هى الغاية من التربية الخلقية عندهم «فمتى كان الإنسان مطبوعا على الشجاعة ، فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور المخوفة من غير فكر ، ولا روية ، وهكذا متى كان مطبوعا على السخاء يسهل عليه بذل العطية من غير فكر ولا روية ، وهكذا متى كان مطبوعا على العفة سهل عليه اجتناب المحظورات والمحرمات من غير فكر ولا روية ، ومن كان مطبوعا على الاعتدال سهل عليه الحكومة فى الخصومات ، والعدل والثقة فى المعاملات ، وعلى هذا

---

(١) جـ ١ ص ٢٢٩ .

المثال والقياس سائر الأخلاق والسجايا المطبوعة فى الجبلة ، إنما جعلت لكيما يسهل على النفس إظهار أفعالها وعلومها وصنائعها وسياساتها وتدبيرها بلا فكر ولا روية »[١] .

وأما من اعتاد ضد هذه الخصال حتى صارت له طبيعة ثانية ، فإنه إذا أراد أن يقدم على عمل يحتاج إلى شجاعة مثلا وجد فى ذلك حرجا شديداً ، وتكلف تكلفا عظيما ، بل هو لايقدم عليه إلا بعد وعد ووعيد ، وأمر ونهى وترغيب وترهيب ، وهكذا فى سائر الصفات الفاضلة .

ويقول إخوان الصفاء فى هذا: « واعلم أن من الأمور ماهى جبلة مركوزة فى النفس ، ومنها ماهو عادة جارية ، وألفة معتادة، إذا دام عليها الإنسان صارت جبلة وطبيعية ثابتة ، وهكذا حكم الخلق السوء والسيرة الجائرة بعضها جبلة ، وبعضها عادة جارية ، وهى التى نشأ عليها الصبيان من الصغر يتربون من الصبا عليها ، أو يأخذها الطفل ممن يصحبه، ويتربى معه من الآباء والأمهات والأخوات والجيران ، والمعلمين والأستاذين »[٢] .

وما دام للبيئة هذا التأثير العظيم ، وما دام للعادة هذا السلطان على تصرفات المرء فى حياته المستقبلة ، فلابد من الحيطة والحذر ، ولابد من اتخاذ القدوة الطيبة ، وتهيئة البيئة الحسنة التى ينشأ فيها الطفل ، واستمع لإخوان الصفاء يقررون أثر القدوة والبيئة فى أخلاق الإنسان .

---

(١) جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٢) جـ ٤ ص ٦٧ .

«واعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها تقوّى الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر فى العلوم والمداومة على البحث عنها ، والدرس لها ، والمذاكرة فيها يقوّى الحذق بها ، والرسوخ فيها ، وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدءوب فيها يقوى الحذق والأستاذية فيها ، وهكذا جميع الأخلاق والسجايا ؛ والمثال فى ذلك أن كثيراً من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم ، وهكذا أيضاً كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء والمخانيث ، والمعيوبين ، وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم ، إن لم يكن فى كل الخلق ففى بعض الخلق .

وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا التى يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر ، إما بأخلاق الآباء والأمهات ، أو الأخوة والأخوات ، والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأستاذين المخالطين لهم فى تصاريف أحوالهم»[1]

وإذا كان للقدوة ، وللأشخاص الذين ينشأ الطفل بينهم هذا التأثير العظيم على أخلاقه ، فالآراء ، والمعتقدات ، والأفكار، التى يلقنها الطفل منذ حداثته ويؤمن بها ، لها كذلك أثر كبير فى تشكيل أخلاق المرء ، وفى تصرفاته العملية ومادام الأمر بهذه الأهمية ، فالواجب أن يجنب الطفل الآراء والمذاهب التى يكون فيها التعصب والجدال والخصومات ، وفى كل هذا يقول إخوان الصفا :

« وأما الذى تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده فهو الذى إذا اعتقد رأياً ، أو ذهب مذهباً ، وتصوره ، صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه

---

(١) جـ ١ ص ٢٣١

يصرف أكثر همه ، وعنايته إلى نصرة مذهبه ، وتحقيق اعتقاده فى جميع تصرفاته فيصير ذلك خلقاله وسجية، وعادة يصعب إقلاعه عنها ، وتركه لها»(١)

وإذا كان الفيلسوف الألمانى الشهير كانت Kant ١٧١٤ — ١٨٠٤ م بنى فلسفته الأخلاقية على رأيه المعروف ( وهو أن الخير يجب أن يعمل لذاته، ولن يكون خيراً إلا إذا كان الباعث عليه نية خيرة)(٢)

والخير الذى يعمل لذاته هو الذى لايطلب صاحبه عليه مكافأة ما ، أو يفعله خشية من شىء ما ، وإنما يعمله،لأنه يعتقد أنه خير ؛ فإخوان الصفاء قد سبقوا إلى هذه الفكرة العظيمة ، وجعلوها غاية فى التربية الخلقية ، وذكروها فى عبارة صريحة واضحة ، وذلك حيث يقولون : « وسبيلك أن تعود نفسك عمل الخير ، لأنه خير ، لاتريد بفعلك عوضاً ، ولايحملك على فعله خوف ، فمتى فعلت اطلب المكافأة لم يكن خيراً ، وإن لم تطلب مكافأة ، وإنما أردت الذكر والاسم ، كنت أيضاً منافقا ، ولم يكن خيراً ، والمنافق لايستأهل أن يكون فى جوار الروحانيين(٣) » .

لقد خُلد « كانت » لفلسفته الأخلاقية تلك، التىأحدثت ثورة فى الفلسفة الأوربية ، مع أن ماقاله لايخرج عما قاله إخوان الصفاء ، وإن امتاز « كانت» بحسن العرض ، والتدليل ، والتحليل ، والإسهاب فى النتائج والاستنباط .

---

(١) جـ ١ ص ٢٣٧

(2) Sidgwick History of Ethics p. 262.

(٣) جـ ٤ ص ٢٩٨

إن هذا الرأى الذى ذكره إخوان الصفاء لو طبق وساد فى مجتمع ما لكان هذا المجتمع نموذجا بشريا كاملا ، وهيهات ! فمن منا يفعل الخير لذاته دون نظر إلى فائدته هو ، وسعادته هو ؟!. إن الكذب شر ولا شك ، وقد يكون فى الكذب نجاة شخص ما من كارثة ، فهل يؤثر فعل الخير لذاته على نجاته ؟ لاريب أنه إن جاز أن يكذب الإنسان فى مثل هذه الحال ، فلا يصح أبداً أن يجعل الكذب وإباحته قانوناً عاما يسرى فى كل حالة ، ويطبق على كل الناس

إن إخوان الصفاء يرون كما يرى « كانت » أن الخير المحض هو السعادة وليست سعادة الفرد وهناءته هى ما يجب أن يسعى إليه ، بل الخير المحض هو ما يجب أن يسعى إليه الإنسان سواء صحبه ألم أو لذة، وسواء نال الفردُ من جرائه نفعاً أو ضراً[1] .

ويقول إخوان الصفاء فى هذا: « إن كل شىء يراد فهو من أجل الخير ، والخير يراد من أجل ذاته ، والخير المحض هو السعادة ، والسعادة تراد لنفسها ، لا لشىء آخر»[2] .

ويذهب إخوان الصفاء مذهب أرسطو فى الفضيلة وهى أنها وسط بين طرفين كلاهما رذيلة، فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والكلام وسط بين الإسراف والبخل؛ ولكى يدرك الإنسان هذا الوسط ، أو يتعود طريق الفضيلة يجب أن يعرف الغاية من العمل ، والوقت الملائم ، والمقدار الملائم ... الخ .

---

(1) Sidgwick History of Ethics p. 260.

(٢) جـ ١ ص ٢٤٦

هذه النظرية المعروفة عند أرسطو [1] .

وفى شرح هذا يقول إخوان الصفا : « واعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه بأن الطبيعة خادمة للنفس ( ويقصدون بالطبيعة الحالة الجسمية ) ومقدمة لها ، وأن النفس خادمة للعقل ، ومقدمة له ، وأن العقل خادم للناموس ومقدمة له ، وذلك أن الطبيعة إذا أصلت خلقا ، وركزته فى الجبلة جاءت النفس بالاختيار فأظهرته وبينته ، ثم جاء العقل بالفكر والروية فتممه ، وكمله ، ثم جاء الناموس بالأمر والنهى فسواه وقومه وعدله ، وذلك أنه متى ظهرت من الطبيعة هذه الشهوات المركوزة فى الجبلة ، وكانت على ماينبغى فى الوقت الذى ينبغى ، من أجل ماينبغى سميت خيراً ، ومتى كانت بخلافه سميت شراً ، ومتى فعل ذلك باختياره وإرادته ، على ماينبغى بمقدار ماينبغى من أجل ماينبغى كان صاحبه محموداً ، ومتى كان بخلافه كان مذموماً ، ومتى كان اختياره وإرادته بفكر وروية على ما وصفنا كان صاحبه حكيما فيلسوفاً فاضلا ، ومتى كان بخلافه سمى سفيهاً جاهلا رذلا ، ومتى كان فعله وإرادته ، واختياره وفكره ورويته مأموراً بها ومنهياً عنها ، وفعل ما ينبغى ، كما ينبغى ، على ما ينبغى ، كان صاحبه مثاباً بها ، ومجازى عليها ، ومتى كان بخلاف ماذكرناه كان مأخوذاً بها ومعاقباً عليها . فقد تبين بما ذكرنا أن الشهوات المذكورة فى الجبلة، والأخلاق الناشئة والأفعال التابعة لها ، وجميع المتصرفات من أجلها ، هى لأن تبقى

---

(١) Aristotle's Ethics p. 34.

النفوس على أفضل حالاتها ، ويبلغ كل نوع منها إلى أقصى مدى غاياتها »[١]
وذلك كما يعتقد إخوان الصفاء منتهى السعادة ؛ لأنهم يقسمون السعادة نوعين
دنيوية وأخروية .

فالدنيوية « هى أن يبقى كل موجود أطول مايمكن على أفضل حالاته وأتم
غاياته ، والسعادة الأخروية أن تبقى كل نفس إلى أبد الآبدين على أفضل حالاتها
وأتم غاياتها[٢] » .

هذه بعض آراء إخوان الصفا التربوية ، وقد رأينا فى الفصل السابق حين
الكلام على نظريتهم فى النفس الإنسانية ، أنهم رتبوا على آرائهم فى النفس ،
نتائج خاقية ، لانرى داعيا لتكرارها هنا ، وحسبنا هذا القدر، ليوضح ما كانوا
عليه من نظرات نافذة ، وإفادة تامة من تجاربهم فى الحياة ، ومن آراء الفلاسفة
السابقين .

---

(١) جـ ١ ص ٢٤٧
(٢) جـ ١ ص ٢٤٦

# فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

# استدراك

| | |
|---|---|
| Islamisme | ص ٢٥ ، ص ١١١ |
| Philosophy | ص ١٨٦ |

# مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور منصور فهمى باشا رئيس الجمعية، والدكتور على عبد الواحد وافى وكيلها

---

يشترك فيها أعلام الباحثين فى الفلسفة والاجتماع. تستأنف النهضة العلمية فى الشرق وتجعل مسائل الفلسفة فى متناول الجميع، ضرورية لكل مثقف وباحث.

ظهر منهـــا :

١ — فيلسوف العرب والمعلم الثانى : للأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخرى للجمعية

٢ — الأسرة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٣ — شخصيات ومذاهب فلسفية : للدكتور عثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

٤ — الحياة الروحية فى الإسلام : للدكتور محمد مصطفى حلمى
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب

٥ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى
رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق

٦ — التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

٧ — المسئولية والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٨ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام: للدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول

٩ — الدين والوحى والإسلام : للأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخرى للجمعية

١٠ — اللغة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

١١ — إرادة الاعتقاد لوليم جمس : ترجمة الدكتور محمود حب الله
أستاذ الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين

١٢ — المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لأندريه كريسون : ترجمه الدكتور عبد الحليم محمود
المدرس بكلية اللغة العربية
: والأستاذ أبو بكر زكرى
المدرس بكلية أصول الدين

١٣ — العلاج النفسانى قديماً وحديثا : للأستاذ حامد عبد القادر
الأستاذ بكلية دار العلوم

١٤ — الحقيقة فى نظر الغزالى : للأستاذ سليمان دنيا
مدرس الفلسفة وعلم الكلام بكلية أصول الدين

١٥ — إخوان الصفاء : للأستاذ عمر الدسوقى
الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول